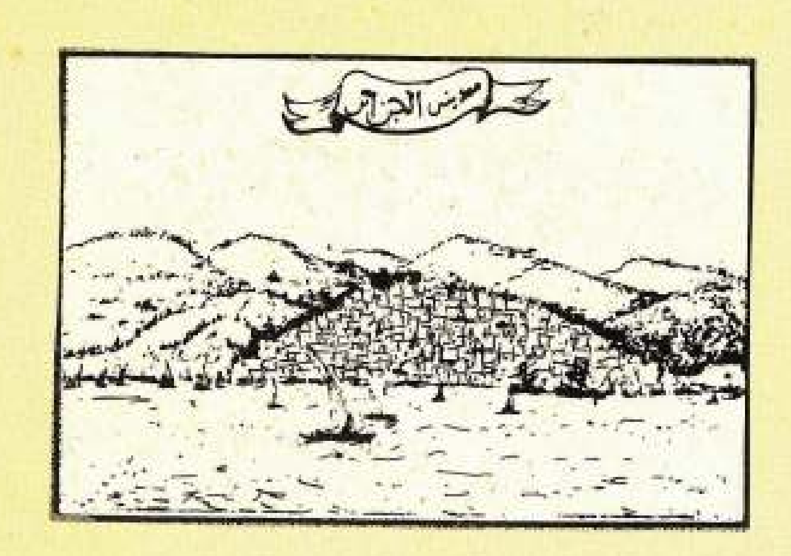
جامعة الجزائر

وزارة التربية والتعليم
كتابة الدولة للتعليم العالي
معهد التاريخ



مجلة دورية يصدرها معهد التاريخ - جامعة الجزائر



العدد السادس السنة 1413هـ - 1992م

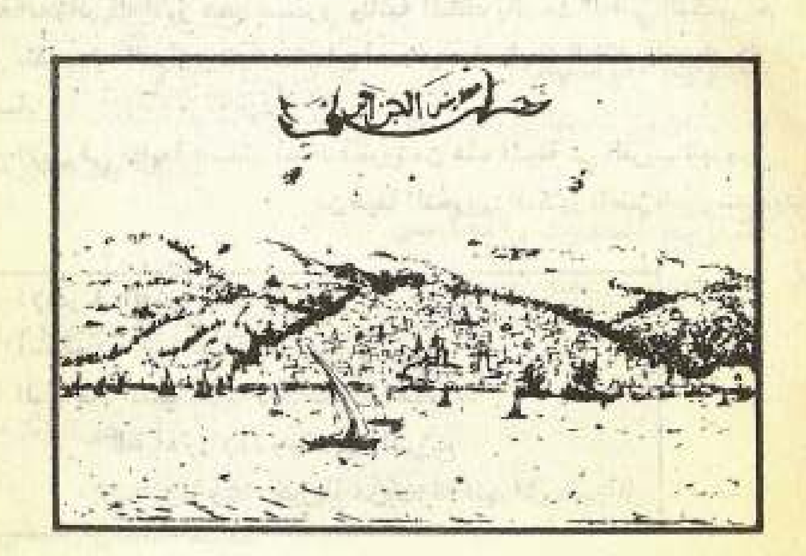
وزارة التربية الوطنية   جامعة الجزائر
مديرية التعليم العالي

معهد التاريخ



مجلة الدراسات التاريخية

مجلة دورية يصدرها معهد التاريخ - جامعة الجزائر



العدد السادس السنة 1413هـ - 1992م

ملاحظة

لم نثبت أعضاء هيئة التحرير في هذا العدد نظرا للتنظيمات التي سوف تجرى على هيئة التحرير كما نعتذر للقراء عن التأخر في صدور العددين السادس والسابع من هذه المجلة وذلك لظروف خارجة عن نطاقنا وقد تفضل السيد رئيس جامعة الجزائر الدكتور عمر صخري ونائبه المكلف بالبحث العلمي الدكتور طاهر حجار بتقديم يد العون والمساعدة على أصدارهما، فلهما الشكر الجزيل والتحية الخالصة.

مع الأمل في متابعة إصدار أعداد أخرى من هذه المجلة في القريب العاجل.

عن هيئة التحرير: الدكتور ناصر الدين سعيدوني

الإشراف الفني: محمد خليل
التنضيد : مليكة عيسى ابراهيم
الطباعة: الملكية شركة ذات مسؤولية محدودة
للطباعة والإعلام والنشر والتوزيع
39، مزرعة رشيد كوريفة ص.ب. 58 الحراش/الجزائر.

عنوان المراسلة: معهد التاريخ - بوزريعة - جامعة الجزائر

المحتويات

الدراسات

التاريخ القديم :

التاريخ الوسيط :

التاريخ الحديث والمعاصر :

تقديم الأطروحات

القسم الأجنبي :

تقديم العدد

بعد انقطاع مؤقت، تعود مجلة الدراسات التاريخية لمعهد التاريخ بجامعة الجزائر بهذا العدد السادس إلى الظهور ثانية، مجسدة طموح المؤرخ الجزائري في القيام برسالته العلمية ومهمته التربوية في مناخ عام لا يخلو من إحباطات نفسية وصعوبات مادية، رغم رعاية الجامعة وذوي النيات الخالصة لخدمة الثقافة الجزائرية الأصيلة.

إن مجلة الدراسات التاريخية ـ في هذا العدد الذي نضعه بين يدي القارئ بما اشتمل عليه من مقالات وما تضمنه من تقديم للأطروحات الجامعية ـ تؤكد دورها العملي كوسيلة بحث وصلة وصل بين المؤرخ الجزائري ومختلف المجالات التي لها صلة أو اهتمام بالبحث التاريخي على المستوى الوطني والعالمي.

ومجلة الدراسات التاريخية بهذا المسعى تطمح أن تكون مرآة صادقة تعكس مستوى الدراسات التاريخية بمعهد التاريخ شكلاً ومضموناً وتصوراً، وأن تصبح أيضاً وسيلة ترقية علمية تسمح للجيل الجديد من مختصي التاريخ أن يكتسبوا الخبرة في العرض والجد في النظرة والموضوعية في الحكم، والتي بدونها تظل الدراسات التاريخية قاصرة عن اداء دورها التثقيفي ورسالتها التربوية.

ولعل هذا الواقع وذلك الطموح يدفعنا إلى القول بأن مجلة الدراسات التاريخية لمعهد التاريخ بقدر ما هي مؤشر لمستوى الثقافة التاريخية، فهي الإطار الملائم الذي يساعد على انطلاق عمل علمي منهجي يكون منطلقاً لوضع أسس مدرسة جزائرية مهتمة بالتاريخ الوطني، مطّلعة على قضايا العالم، تجمع الأصالة في الاهتمام والجد في الطرح والموضوعية والعلمية في التناول والحكم.

والله الموفق

عن هيئة التحرير: د. ناصر الدين سعيدوني

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة رئيس الجامعة

وعياً منا أن مجلة التاريخ هي المنبر الحقيقي الذي تتاح فيه الفرصة لأي أستاذ باحث لإبراز قدرته العلمية ونشر ما يتوصل إليه من نتائج في مجال العلم والمعرفة ليكون في متناول أكبر عدد ممكن من الباحثين والطلبة ومحبي الثقافة.

سنعمل مستقبلاً، بحول الله تعالى، على إصدار مجلة معهد التاريخ بكيفية دورية، وهذا ليس هدفاً سهل التحقيق، فهو يتطلب شروطاً معقدة لا يتصورها سوى الذين يمارسون صناعة الكتب والصحف، لما يتطلبه الأمر، من وسائل مادية وبشرية وكفاءات علمية وإرادات فولاذية. وسنعوّل الكثير على كل واحد من أفراد أسرة معهدنا، لبلوغ هذا الهدف النبيل، واننا لمتأكدون أنهم لن يبخلوا بمجهوداتهم، كلٌ بما استطاع، لما لا يخفى على أي أحد منهم من أهمية وفائدة نجاح هذه العملية عليهم وعلى معهدهم وعلى جامعتهم وعلى بلادهم.

وإنّا لمتأكدون بأنّ أعضاء مجلس البحث العلمي، بصفة خاصة، سيبذلون مجهودات خاصة أكثر من غيرهم، لأنهم المسؤولون بالدرجة الأولى على نجاح أو فشل هذه العملية، وهم واعون، ولا شك، بهذا ومن هنا فإننا على ثقة أن كل واحد منهم سيضحي، بالكثير من وقته وسيبذل الكثير من عطائه حتى لا يحكم عليه التاريخ ذات يوم أنه قصّر في حق نفسه ووطنه عندما أتيحت له الفرصة وسيعمل الطاقم الإداري الحالي بكل ما في وسعه على توفير كل الإمكانيات التي ستطلب منه، وسيفتح ذراعيه لاحتضان كل المبادرات البنّاءة، ويتحمل مسؤوليته كاملة في هذا المجال الا أنه يعرف تماماً أن مثل هذا الهدف لا يمكن تحقيقه إلا بتعاون الجميع من أجل خدمة المصلحة العامة.

والله ولي التوفيق

رئيس الجامعة د. عمر صخري



تقديم

من دواعي سروري أن أقدم لهذا العدد من مجلة الدراسات التاريخية التي يصدرها معهد التاريخ بجامعة الجزائر، واغتنمها فرصة لكي أثني على أسرة معهد التاريخ لما يقدمونه من مجهودات جبارة وتضحيات في إصدار هذه المجلة التي نفتخر بها، كما نأمل أن يتابعوا مسيرتهم في إصدار أعداد أخرى لمزيد من المعرفة والثقافة.

وكما هو معلوم إن دور الجامعة لا يقتصر على تلقين المعلومات فقط، وإنما يتعداه إلى تطوير الأبحاث العلمية الرائدة في جميع المجالات، وما يوجد في هذا العدد من أبحاث ودراسات لخير دليل على هذا.

إن تاريخ الجزائر زاخر بالمواقف الشجاعة والشخصيات العظيمة التي تصلح كل منها لكي تكون نبراسا يضيء سبيل الحياة أمامنا، وقدوة صالحة يحتذى بها. ولذا يكون المطلوب من أسرة تحرير مجلة الدراسات التاريخية إتاحة الفرص العامة لقراءة ودراسة تاريخ الجزائر العظيم لما يكتسي من أهمية عظيمة بالنسبة للإنسانية وبالنسبة إلى بلدنا في الظرف الحالي.

والبقاء عادة للشيء المكتوب والمدون، وهو يمثل التراكم الحضاري والمعرفي.

وبناء على هذا فإن الجامعة على استعداد كامل لتشجيع نشر البحوث في هذا الميدان وأيضا الاستمرار في دعم إصدار هذه المجلة بالذات.

والله من وراء القصد

دكتور طاهر حجار

ناثب رئيس الجامعة

للدراسات العليا والبحث العلمي.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

مما لا يخفى على أحد أن قيمة الاستاذ الجامعي لا تتوقف على مدى كفاءته في المجال البيداغوجي فحسب بل إن الاستاذ الحقيقي يجب الا تقل كفاءته في مجال البحث العلمي، عن كفاءته التربوية ومن هنا لا يمكن تصور مؤسسة جامعية تقتصر مهمتها على تلقين دروس، مهما كانت قيمتها، مثلما يحدث ذلك عادة في المدارس الابتدائية والتكميلية والثانوية أو بمعنى آخر في المدارس الأساسية والثانوية بل أن المؤسسة الجامعية كيفما كان تخصصها ينبغي عليها أن تنشط في مجال البحث العلمي وما تدرسه لطلابها يكون في أغلب الأحيان من النتائج التي يتوصل إليها أساتذتها في أبحاثهم وهذا ما يميزهم عن أساتذة المراحل الأولى من التعليم.

وحتى لا تضيع مجهوداتهم هباء منثورا وحتى يستفيد منهم أكبر عدد ممكن من الناس يستحسن بل يستوجب نشر أعمالهم، كليا أو جزئيا، في شكل كتب اذا استوفت، الشروط وتوفرت الامكانيات المادية المطلوبة أو في شكل مقالات علمية في مجلات علمية متخصصة عندما لا تستوفى شروط الكتاب ولا تتوفر الامكانيات، ومن هنا تأتي ضرورة وجود مجلة علمية متخصصة لكل مؤسسة من مؤسسات التعليم العالي تهتم بنشر نتائج أبحاث الاساتذة حتى تكون في متناول كل طلاب العلم والمعرفة داخل الجامعات وخارجها.

ومما يمكن نشره أيضا، في المجلة العلمية، الأبحاث الجيدة التي يكتبها الطلبة الممتازون بهدف الاستفادة منها أولا وتشجيع أصحابها ثانيا مما يفتح باب المنافسة، والتسابق علي مصراعيه أمامهم ويكون ذلك أحد العوامل التي تؤدي، ولا شك، للرفع من المستوى وهذا من الاهداف النبيلة التي نسعى إلى تحقيقها اليوم أكثر من أي وقت مضى.

ومن هنا رأينا من واجبنا أن نولي هذا الأمر اهتماما خاصا حتى تؤدي مجلة معهدنا دورها على أحسن وجه في المستقبل وسنعمل، بحول الله على اصدارها بكيفية منتظمة.

والله ولي التوفيق.

الدكتور محمد بن عميرة.

أولا :

التاريخ القديم

دراسة نقدية للمصادر والآثار والأصول تاريخ إفريقيا الشمالية القديم الإنسانية والحضارية

أحمد السليماني

إن الدارس لتاريخ إفريقيا الشمالية القديم يجد نفسه أمام مشكل المصادر المحدودة نسبيا، فهناك نقص كبير من ناحية المعلومات المتعلقة بتاريخ نوميديا والبلاد الليبية على العموم من الناحية الحضارية والاجتماعية، والسياسية، والفكرية، والاقتصادية، ويعود النقص أساس لقلّة المصادر الكتابية لهذا التاريخ. مع أن المعضلة الكبرى تكمن في عدم فك رموز اللغة الليبية القديمة ولو أن فكها لا يكفي لأنها تعني في حدود علمنا النقوش الكتابية لا غير، فليس هناك كتب مدونة في المغرب القديم كتبت بهذه اللغة، حتى يوبا الثاني المؤرخ الشهير ألف كتبه باللغة الإغريقية رغم معرفته للغة الليبية يومئذ. وهذا يدل على أنها لم تكن لغة عالمية مع الأسف مثل البونية أو اليونانية أو البابلية. ولكن فك رموز اللغة الليبية مع هذا يعد فاتحة خير كمدخل للتعرف على كنه الحضارة الليبية القديمة. ومما زاد الطين بلّة أن النوميديين القدماء لم يكن لهم مؤرخون أرّخوا وكتبوا تاريخ إفريقيا الشمالية القديم، ويمكن أن نستثني القديس أوغسطين الذي كتب تاريخا لقرطاجنة ونوميديا ضمن دراسته لمدينة الله ولكن هو معروف كفيلسوف ديني أكثر منه مؤرخاً.

وقبل الخوض في هموم تاريخ إفريقيا الشمالية القديم كقضية المصادر ومضمون

هذا التاريخ والذي أودّ دراسته بشكل نقدي إرتأيت إعطاء نظرة عن تطوّر مفهوم التاريخ عند المؤرخين القدماء.

في روما مثلا كانت كلمة تاريخ تعني كل معرفة يمكن الوصول إليها عن طريق البحث والإستقصاء، أما مفهوم التاريخ عند المؤرخين أي معرفة تلك الأحداث التي صاحبت الظواهر الإنسانية، وكان لهؤلاء المؤرخين أكبر الأثر في سيادة الإتجاه الفني الذي طبع الكتابة التاريخية حتى أواخر القرن الثامن عشر فقد إجتهدوا في التصور الفني لأحداث الماضي لدرجة أن معظمه جاء معتمدا على التصوّر أكثر من إعتماده على الحقائق التاريخية الموضوعية، ومن ثمّ جاءت كتابة التاريخ في صورة قصصية ذلك أنها إتخذت من الأبطال والآلهة محاور لها، ويتمثل ذلك بوضوح في الإلياذة والأوديسة للشاعر هوميروس، وقد أكّد ذلك هيكاتيوس الملطي في منتصف القرن 6 ق.م حيث أرّخ لنشأة الإغريق فقال:

«لا أقص خبرا ما لم أعتقد بصحته»، فأساطير الإغريق عديدة وما هي إلا خرافة وقد كان هيرودوت [1] صاحب كتاب التاريخ الشامل، ويعدّ أوّل المؤرّخين الذين اعتنوا بالوصول إلى الحقائق التاريخية وتدوينها. وقام بالتجوال في أقطار الشرق باحثاً في ماضيه ومتقصياً أحواله، وجامعاً لأخباره، وأورد لنا هيرودوت أخباراً تاريخية عن القبائل النوميدية والموريطانية، وكان جهده هذا أولى الخطوات نحو البحث التاريخي والذي ظهر بشكل واضح حينما أرّخ للصراع بين الإغريق والفرس من حيث هم أصحاب مدنيتين متناقضتين.

على كل حال فإن ثوكيديديس يعد أكثر تطوراً من هيرودوت حيث تعمّق في البحث في الحقائق ونقدها من خلال معالجة كافة الروايات حولها. إلا أنه إقتصر في ذلك على أحداث الحرب والسياسة حين أرّخ لحرب البلوبونيز بين أثينا وأسبرطة، وقد جعله ذلك أكثر تمجيدا لروح البطولة الفردية الأمر الذي أصبح غالبا على كثير من الدراسات التاريخية لفترة طويلة، كما أن ثوكيديديس «هو صاحب فكرة التاريخ يعيد نفسه»، وهو الذي أتى بفكرة دورة التاريخ والتي قصد منها إعتبار التاريخ أداة لتحديد طريق المستقبل، على أن تلك الفكرة قد تعرّضت لهجوم شديد كان جوهره أنه لا وجود لإيقاع مُوحّد أو خُطة موحّدة في التاريخ، إذ أنه ليس من المحتمل إطلاقا أن يتكرر الأشخاص والمواقف والظروف بنفس الدرجة من الدقّة إلا أن هذا

لا ينفي وجود ظروف مشابهة يمكن أن تسفر عن نتائج متشابهة وقد كان بوليبيوس من أعظم مؤرخي الإغريق وأخذ بفكرة ثوكيديدس عن دورة التاريخ في تأريخ لنشأة روما ونظامها السياسي وفتوحاتها الأولى.

التاريخ كمادة فنــــية

وورث الرومان عن الإغريق النظرة إلى التاريخ من حيث هو مادة فنية وأدبية وإستمرّت هذه الفكرة في العصر الوسيط وحتى في عصر النهضة كما أن الفلاسفة المؤرخين من روما نطيقين رومانسيين مثل روسو (1712م ـ 1778م) وورلان (1661م ـ 1741م) وأتباع حركة التنوير الذين يحتكمون إلى العقل مثل فيكو (1668 م ـ 1774م) وفولتير (1694م ـ 1778م) لم يلتزموا بالدّقة في البحث عن الحقائق التاريخية فجاءت كتاباتهم في التاريخ أقرب إلى القصص الخيالية منها إلى التاريخ العلمي.

ومع ظهور العلوم الحديثة أصبح ينظر إلى التاريخ على أساس أنه يشكل مجالا من مجالات المنهج العلمي ولا يقل في ذلك عن غيره من العلوم. وهاجم بعض المؤرخين فكرة علمية التاريخ فهاجمها بعض العلماء منذ القرن التاسع عشر، وإستندوا في ذلك إلى أن التاريخ لا يمكن اعتباره علما لأن مادته لا تتسم بالتحديد أو الثبات، وليس من اليسير أن نرصد وقائعه على نحو مباشر وأن كل حادثة من أحداثه لها شخصيتها المستقلة من حيث الظروف، والعوامل، والعلل، والنتائج.

ثم ظهرت نظرية هيجل في التاريخ وهي مبنية على أساس تفسير التاريخ بشكل جدلي، وجاء بعده ماركس بمفهومه المادّي للتاريخ وهو ينكر فعل وأثر الجوانب الروحية مثل الدين، والأخلاق، مع أنه ثبت أن هذه الجوانب لها دور فعّال في حركة التاريخ.

وساهم الإسلام مساهمة فعّالة في تدوين التاريخ القديم بل التاريخ العالمي، فالقرآن الكريم يعد مصدرا رئيسيا، فقد أورد لنا قصصادينية [2] يمكن إعتبارها كمصادر تاريخية بما يخص الأمم الغابرة كعاد وثمود، والفراعنة والعبرانيين، والعرب، وأخبار وقصص الأنبياء مثل موسى ويوسف، ونوح، وعيسى عليهم السلام،

والفنيقيين أي الكنعانيين أهالي بلاد الشام القدماء. والقرآن الكريم هو كتاب تاريخ بل مصدر تاريخي وهو في نفس الوقت كتاب هداية وإرشاد أنزله الله سبحانه وتعالى ليكون دستورا للمسلمين، ومنهاجا يسيرون عليه في حياتهم، ويدعوهم إلى التوحيد وتهذيب النفوس، وإلى وضع مبادئ للأخلاق، وميزان للعدالة. وقد ذكر القرآن الكريم أحداثا دينية وسياسية، واقتصادية كان مسرح تلك الأحداث هي بلاد العرب، والعراق، ومصر وسورية، كما ذكرت آنفاً، وجاء فيه ذكر سيرة محمد ﷺ.

مصادر تاريخنا القديم

ونعود إلى تاريخنا القديم فالدارس لهذا التاريخ تعترضه عقبات كثيرة، ويعود السبب الرئيسي في مُعضلة هذا التاريخ هو قلّة المصادر الرئيسية لأنه لم يكن لنا في العهد القديم مؤرخون من أبناء المنطقة قاموا بتدوين تاريخ إفريقيا الشمالية القديم وإنما قام بكتابة هذا التاريخ خصوم المغرب العربي من إغريق ورومان وكتبوا عن تاريخنا من خلال أحداث تاريخ وقعت في نوميديا أي الجزائر وإفريقيا، وموريطانيا الغربية، كان لها علاقة بالتاريخ الروماني وهكذا فقد إرتبط هذا التاريخ ويا أسفاه أشدّ الإرتباط بالتاريخ الروماني بسبب غياب مؤرخين قدماء من الجزائر أو تونس أو المغرب ماعدا مؤرخ جزائري ظهر في وقت متأخر وهو القديس أوغسطين الذي عاش في القرن الخامس الميلادي وإرتباط تاريخنا بالتاريخ الرُّوماني كان بمثابة شرٌّ لابد منه – ورُبَّ سائل لماذا هذا الإرتباط... الجواب: إن مصادرنا إرتبطت بالتاريخ الروماني ومصادره لأن تاريخنا القديم ونقولها بصراحة لم يعرف حضارة قوية متكاملة لها مؤرخون يكتبون عنها ويؤرخون تاريخها ومن سوء الطابع أن منطقة إفريقيا الشمالية في القديم عانت من نكبات المسخ والهدم الحضاري المنظم ويمكن أن نضرب مثلا على ذلك بتهديم مدينة قرطاجنة (٥) في تونس وحرث أرضها من قبل الرومانيين في 146 ق.م. مع العلم أن القرطاجيين لم يكونوا غزاة لأن أواصر القرابة كانت تجمعهم بالنوميديين فكلهم ساميون وتجمعهم نفس الأواصر مع العرب أي عرب الجزيرة العربية.

تاريخنا من مرآة الإغريق والرومان

ومصادر تاريخ المغرب مرتبط بالتاريخ الروماني ومصادره نوعان:

1 – مصادر أدبية تشمل مؤلفات المؤرخين والخطباء، والشعراء، والكتاب الرومان أو اليونان الذين وصلتنا بواسطتهم معلومات تاريخية عن المنطقة الليبية أو منطقة إفريقيا الشمالية، وهذه المؤلفات تتضمن معلومات تفيد في كتابة تاريخ روما القديمة وتاريخ مدينة أوتيكا وتاريخ ليكسوس (أي العرائش) وتاريخ مدينة قرطاجنة على الساحل التونسي، وتاريخ النوميديين وملوكهم القدماء وتاريخ المدن الجزائرية القديمة التي أنشأت في (العهد الإفريقي المبكر، أو في العهد الفنيقي، أو في عهد الإحتلال الروماني مثل إيكوسيوم (أي مدينة الجزائر العتيقة)، ومدينة تيبازة، ومدينة إيجلجيلي أي جيجل، ومدينة لونة، ومدينة سيغا، ومدينة قيرتا، ومدينة تيمقاد، وكويكول، وسيطيفيس القيصرية.

على كل حال هناك أخبار هامّة لدى المؤرخين الإغريق والرومان عن أحوال إفريقيا الشمالية من الناحية التاريخية، ولو أنها غير وافية، وتمثل في بعض الأحيان شذرات فقط نظرا إلى إتلاف كثير من النصوص التاريخية القديمة سواء أكانت باللغة الإغريقية أو باللغة اللاتينية وسوف أتعرَّض إلى المؤرخين الذين كتبوا في تاريخ المغرب القديم الذين يُعدُّون مصدرا أساسيا لهذا التاريخ.

2 – ثانيا هناك مصادر غير أدبية أو غير كتابية وتتكون من الوثائق، والرّسوم والنقوش الكتابية، والمسكوكات، والآثار المادية التي إكتشفها علماء الآثار وبفضل هذه الآثار تمّ حل كثير من الألغاز الغامضة، ولكن مفتاح سرّ تاريخ حضارة المغرب القديم يكمن في فك رموز اللغة الليبية التي لم تجد حلا نهائيا لها بعد مثلما فعل جان فرانسوا شامبوليون عندما فك رموز اللغة الهيروغليفية الفرعونية وبذلك حصل على إنتصار كبير في إكتساب معارف ثمينة تخصُّ جوانب عديدة في الحضارة المصرية القديمة.

ولا يسعني في هذا المقام إلا أن أُحيي مجهودات إجبّرت من الولايات المتحدة الذي ألف كتابا (٥) عنوانه مدخل إلى دراسة النقوش اللاتينية وسار المؤرخون الرومان الأوائل على نهج الكهنة العظام فكتبوا التاريخ في شكل الحوْليات، ويتجلى هذا في الملاحم الرومانية الأولى مثل حوليات «الشاعر إينوس» والحرب البونية للشاعر

نايفيوس (ه). ومما يجب ذكره أنه ضاعت كل المؤلفات التاريخية التي كتبت قبل منتصف القرن الأول قبل الميلاد ماعدا بعض الشذرات أو مقتطفات ونصوص تاريخية مستورة ويدعوها المؤرخون Fragmenta ، وقـــد جمع الأستاذ بيتر كل الشذرات المتبقية من مؤلفات المؤرخين الرومان في مجلدين: الأول خاص بالمؤرخين حتى عصر سُلاَّ، والثاني خاص بالمؤرخين منذ عصر يوليوس قيصر حتى القرن الرابع الميلادي H. Peter: Historicorum Romanorum Reliquiac / 1 (2nd ed.) 1914. III (1st ed.) 1906.

مع العلم أن معظم ما لدينا الآن من من روايات تاريخية عن العصرين الملكي والجمهوري (مثال ذلك روايات ليفيوس وديونيسيوس وڤاليريوس مكسيموس) مستمدا أصلا من كتاب الحَوليات القدامى.

أما أكبر المؤرخين الرومان على الإطلاق فهم سللوستيوس وليفيوس لعصر الجمهورية (ه) وتاكيتوس وأميانوس ماركللينوس في عصر الإمبراطورية، وحول هؤلاء المؤرخين الأربعة هناك دراسة هامة كتبها ليستنر بالإنجليزية: «كبار المؤرخين الرومان» M.L.W. Laistner the Greater Roman Historians Bertkeley, 1947

المؤرخ سللوستيوس

والمؤرخ سللوستيوس وإسمه اللاتيني هو كما يلي C. Sallustins crispus (86 ق.م - 34 ق.م) كان ينتمي إلى أسرة من العامّة ويناصر الحزب الديموقراطي (Populares) باللاتينية، ويؤيد يوليوس قيصر (٦). وكان من المعجبين بماريوس وأصبح عضوا في مجلس الشيوخ وطرد منه عام 50 ق.م بتهمة أخلاقية تولى سللوستيوس حكم ولاية إفريقيا الجديدة Africa nova التي كونها قيصر من الأراضي المنتزعة من مملكة يوبا في عام 45 ق.م وأهم مؤلفاته أي سللوستيوس حرب يوغرطة Bellum Jugurthinum (116 - 105 ق.م) وهو كتاب نشر في 41 ق.م ويحتوي على مقدمة فلسفية، وفي هذا الكتاب يذكر سللوستيوس أن يوغرطة إبن غير شرعي، وهناك من يشك في هذه الرواية. كان سللوستيوس يحاول الدفاع عن سياسة وزعماء الحزب المناوئ للسناتو (أي مجلس الشيوخ) بالكشف

عن فساد رجال الحزب الأرستقراطي Ptimates ، والرّد على الدعاية ضدّ يوليوس قيصر. وكتب تاريخا إسمه (Historide) تناول فيه الفترة 78 - 67 ولم يصلنا منه سوى فقرات ورسائل سياسية إلى قيصر القائد أو الشيخ في دستور الدولة). (Epistula ad Caesarem senem de republica)

المؤرخ ليفيوس

ومن المؤرخين الرومان المشهورين الذين كتبوا في تاريخ المغرب القديم نجد المؤرخ ليفيوس، وهو المعروف بإسم تيت - ليف بالفرنسية وباللاتينية Livius ليفيوس (59 ق.م - 17م) يعد من أعظم كتاب الحوليات الرومان، كتب تاريخ روما منذ تأسيس روما، ومن ثمّ حمل تاريخه هذا الإسم (ab urbe condita) حتى سنة 9م (موت دروسوس) ألف ليفيوس (ه) 142 كتابا، وصلنا منها 35 فقط، وهي الكتب من 1 إلى 10 التي تروي تاريخ روما من البداية حتى 293 ق.م ثم الكتب من 21 إلى 45 وتروي تاريخ روما من 218 إلى 167 ق.م (أي الحرب البونية الثانية بين القرطاجنيين والرومان) ثم الحرب المقدونية والسورية) وأما الكتب الأخرى فلم تصل إلينا منها سوى مخطوطة تتضمن جزءاً من الكتب رقم 91 وسوى فقرات وردت ضمن مؤلفات كتاب آخرين أو في شكل مختصرات باللاتينية Periochae وهي مستمدة أصلا من موجز Epitome ضائـــع يرجع إلى القرن الأول الميلادي وضعت بعد عصره وهي ذات أهمية لأنها تحتوي على ملخص لجميع كتبه ماعدا الكتابين رقم 136 - 137 وتاريخ ليفيوس هو المصدر الأساسي الذي نقل عنه مؤرخون آخرون مثل فلوروس وفكتور ويوترويوس وفستوس وأورسيوس وكاسيودوروس وتغلّب على ليفيوس النزعة الأدبية فهو أديب كبير قبل أن يكون مؤرخا كبيرا، على العموم فإن تاريخ ليفيوس ملحمة تشيد بأمجاد روما نثرا مثلما تشيد بها الإنيادة ملحمة فرجيل شعرا.

الموسوعي قادو

ومن مصنفي الموسوعات نجد فارو (ه) Terentius Varro (116 ق.م - 27 ق.م) وكان بمثابة

رجل موسوعي واسع الإطلاع بمختلف العلوم، كتب حوالي 74 سفرا تنقسم إلى 620 كتابا بالمعنى القديم للكلمة في مختلف فروع المعرفة، كتب في الفنون الحرة السبعة [15] وهي تدعى Artis Liberalis : النحو والمنطق، والبلاغة والهندسة، والحساب، والفلك، والموسيقى فضلا عن الطب، والعمارة، والتاريخ والجغرافيا والأدب وكتب في فقه القانون المدني، ووضع كتابا يشتمل على مئات من التراجم لمشاهير الرومان واليونان، وكان له مقالات تاريخية فلسفية في شكل محاورات، ومع الأسف ضاعت مؤلفاته المختصة في الآثار الإنسانية والإلهية Anti quitates Rerum Humanarum et Divinarum يقع في 41 كتابا [11] ولم يبق منه سوى شذرات أو فقرات وردت ضمن الجزء السادس من كتاب مدينة الله للقديس أوغسطين ولا تزال مصدرا رئيسيا في تاريخ الديانة الرومانية.

دور الشعر في التاريخ القديم

ومما يستحق ذكره في هذا المقام أن هناك شعراء نتزود منهم بمعلومات تاريخية تخصّ تاريخ المغرب القديم مع العلم أن الشعر اللاتيني يلقي أضواء باهرة وكاشفة على الحياة العقلية والأحوال الإجتماعية في عصر الجمهورية، وإقتبس الرومان الفنون الأدبية من اليونان ماعدا فن الهجاء ويدعى باللاتينية (Satura) ، ومن هؤلاء الشاعر إنيوس Ennius (239 ـ 269) ويعد عميد الأدب اللاتيني بلا منازع، يمثل الروح والتقاليد الرومانية في أجلى صوّرها، وُلِدَ في منطقة كلابر بجنوب إيطاليا، وشارك الحرب البونية الثانية في صقلية، أي المرحلة الثانية من الحرب التي كانت بين الرومان والقرطاجنيين، وكان ضابطا في الجيش الروماني برتبة قائد سرية ، ولعب دوراً هاماً في نقل الثقافة البونية إلى روما وهي الثقافة التي كان كاتو يناهضها مناهضة شديدة وقد تعرف كاتو على إنيوس في صقلية هذه الجزيرة التي كان جزءاً كبيراً منها خاضعا لقرطاجنة.

أما أعظم مؤلفات الشاعر إنيوس فهي الحوليات وهي نظم شعري ثمرة سنوات من الجهد، حفظ لنا الزمن منها حوالي 600 بيتا من الشعر، وكانت أطول حتى من إلياذة هوميروس وإلياذة فرجيل.

وإنيوس قام بجمع القصص المتواترة عن ماضي روما السحيق ودمجها في قصة واحدة [12] ، إستعرض في الكتاب الثاني والثالث تاريخ العصر الملكي حتى قيام الجمهورية، أما الرابع والخامس فيتابعا تاريخ روما حتى قبيل الحرب ضد بيرهوس أي ملك بيرهوس (280 ـ 275 ق.م) وهذه الحرب هي موضوع الكتاب السادس، وتعالج الكتب رقم 7، 8، 9، الحربين البونية الأولى والثانية وكتب انيوس قصيدة سكيبيو يشيد فيها الشاعر بحملة صديقه سكيبيو أفريكانوس (قاهر إفريقيا) الأكبر في الحرب البونية الثانية التي توجها بإنتصاره على حنبعل القرطاجني في معركة زاما عام 202 ق.م والأبيات القليلة الباقية تصف عبور البحر ونصب المعسكر بالقرب من قرطاجنة [13] ونشوب المعركة، وإستقبل سكيبيو في روما بعد عودته ظافرا.

ومن مصادر تاريخ المغرب القديم ما كتبه المؤرخون الاغريق، منهم هيرودوت المشهور بتاريخه العام وقد سطر الأحداث المتعلقة بالحروب التي وقعت بين فارس واليونان بتفصيل عظيم، وفي شئ كثير من الجمال الجذّاب يقال أنه أول كتاب تاريخي مدون، ولد هيرودوت حوالي 484 ق.م في مدينة هاليكالوناسوس الأيونية بآسيا الصغرى فزار بابل ومصر (وكانت تعد كجزء من التراب الليبي إلتماسا للتفاصيل المضبوطة، والمشاهدات الصحيحة. وقد تعرض إلى الليبيين وعاداتهم وتقاليدهم في كتابة التاريخي.

المؤرخ بوليبيوس

ومن مؤرخي الإغريق الكبار بوليبيوس الذي يعدّ مصدرا رئيسيا في تاريخ المغرب القديم، وهناك من يرى أنه يأتي في المرتبة الثانية بعد توكيديديس الأثيني. ولد بوليبيوس حوالي (200 ق.م ـ 120 ق.م) في ميجا لوبوليس جنوب اليونان، ويُعَد تاريخه المكتوب باليونان أوثق مصدر عن تاريخ الجمهورية الرومانية منذ أوائل الحرب البونية الثانية حتى منتصف القرن الثاني ق.م اشتغل بوليبيوس [14] بالسياسة مبكّرا. ونقل كرهينة إلى روما مع ألف يوناني من بني وطنه حيث قضى عدّة سنوات درس أثناءها أخلاق الرومان ونظمهم وتعرّف على أقطابهم منهم أيميليوس، باوللوس، وسكيبيو أيميليانوس وأعضاء حلقة سكيبيو الأدبية الذين شجعوه على

كتابة تاريخه، وتنقل في أنحاء إيطاليا وصحب سكيبيو إلى إسبانيا في 151 ق.م وزار بوليبيوس نوميديا أي القطر الجزائري ورافق سكيبيو مرة ثانية في حملته [14] الإفريقية في 147 ق.م _ 146 ق.م تاريخ سقوط ودمار قرطاجنة ولذا يعد بوليبيوس شاهد عيان زوال وغروب شمس الحضارة القرطاجنية. وزار موريتانيا أي المغرب الأقصى. وكتب بوليبيوس تاريخا عالميا في 40 كتابا معالجا فيه الفترة من 220 ق.م إلى 144 ق.م والكتب الخمسة الأولى (1 _ 5) كاملة وأما الكتب الباقية من (6 إلى 40) فقد وصلتنا مبتورة في شكل شذرات فضلا عن مقتطفات منها وردت ضمن مؤلفات ليفيوس وديودور الصقلي وأبيانوس وبلوتارخوس.

مفهوم بوليبيوس في التاريخ

وصف العالم الألماني مومسن (Mommsen) بوليبيوس «على أنه الشمس الساطعة في حقل التاريخ الروماني» أما مفهوم التاريخ عند بوليبيوس فهو يعتمد على ثلاثة عناصر هي: أولها دراسة الوثائق، ثانيا معرفة الجغرافيا الطبيعية والسياسية عن طريق الملاحظة الشخصية أي السفر والتجوال لمعرفة موارد كل إقليم وإمكاناته، ثالثا الإلمام بالعلوم السياسية والعسكرية بالتجربة العملية، وهذه العناصر الغاية منها إثبات الحقيقة [15]، التي هي فضيلة التاريخ الأولى وميزته الجوهرية ومن المؤرخين الإغريق الذين كتبوا عن إفريقيا الشمالية في القديم . ديودور الصقلي (حوالي 80 ق.م) (30 ق.م)، صنف مجلدا في التاريخ العالمي، وتقع مكتبته في 40 كتابا لم تصلنا منها كاملة سوى الكتب 1 إلى 5 و11 إلى 20 وشذرات من بقية الكتب 21 إلى 40 وردت ضمن مؤلفات المؤرخ الكنسي يوسيبيوس وكتّاب العصر البزنطي.

وتناول ديودور الصقلي في الكتب الستة الأولى تاريخ الفترة السابقة على الحرب الطروادية مستعرضا أحوال الأقطار غير اليونانية منها مصر، وبلاد ما بين النهرين والهند وبلاد العرب، وإثيوبيا، وشمال إفريقيا في الكتب 1 إلى 3 / ثم الأقطار اليونانية في أوربا [16] . هذا ويجدر الإشارة إلى أن ديودور يستعرض في الكتاب الأول تاريخ مصر القديم من ملوك وأساطير وعادات، وقد زار ديودور الصقلي مصر عام 59 ق.م.

أبيانوس وتاريخ المغرب القديم

ومن المصادر الإغريقية التي اهتمت بتاريخنا القديم المؤرخ أبيانوس Appianus (95م _ 165م)، ولد في الإسكندرية واشتغل بالمحاماة ولعلّه عايش ثورة اليهود الكبرى. كان معجبا بالإمبراطورية الرومانية فاضطلع [17] بكتابة تاريخ روما وسار على منهج جديد قائم على أساس جغرافي إقليمي والتاريخ الروماني يتكون من 24 كتابا لم يصلنا منها كاملة إلا تسعة (6 _ 7 _ 11 _ 17) وصلتنا الكتب 1 _ 5، و8 _ 9، في شكل شذرات أو وصلتنا ناقصة أو في صورة مقتطفات وردت ضمن مؤلفات الإمبراطور البزنطي المؤرخ قسنطين بورفيرو جنيتوس 912م _ 959م، ويتناول الكتاب رقم 6 الحروب الإسبانية وكتاب رقم 7 حرب حنبعل في إيطاليا، وتتناول شذرات الكتاب رقم 8 الحرب البونية حتى تدمير قرطاجنة في 146 (وهي من أوفى وأصدق الروايات التي لدينا عن هذه الواقعة. ولما كان أبيانوس لم يعاصر كثيرا من الأحداث التاريخية فاعتمد على كتاب الحوليات القدامى من أمثال همينا وعلى مؤرخين من أمثال بوليبيوس ويوسيدونيوس وسللوستيوس وليفيوس وبعض كتّاب عصر أغسطس أو تيبريوس وربما أيضاً نيقولاوس الدمشقي.

ومن مصادر تاريخ إفريقيا الشمالية القديم ما كتبه سترابون الجغرافي الإغريقي الذي وصف بلدان وأقوام إفريقيا الشمالية وصفاً دقيقاً، وتحدث عن قرطاجنة حديثاً مستفيضاً، وهناك مصدر آخر ذات أهمية وهو أرسطو الذي أثنى ومدح كثيراً دستور قرطاجنة وقال عنه أنه من أرقى دساتير العالم القديم، وتحدث عن مجلس الشيوخ القرطاجي وصلاحياته أيام السلم والحرب ودور الارستقراطية القرطاجنية في السلطة. والتاريخ القرطاجني يعد جزءاً لا يتجزء من تاريخ إفريقيا الشمالية القديم لأن القرطاجيين تجمعهم بالمغاربة القدماء أواصر الدم والجنس الواحد.

تاريخنا من مرآة المؤرخين العرب

لا يمكن بأيّ حال من الأحوال نكران ما كتبه المؤرخون العرب في العصر الإسلامي حول تاريخ المغرب القديم، أو تاريخ النوميديين القدماء بل الأفارقة أو

أهل إفريقيا، كما كان ينعتهم العرب الفاتحون في القرن الأول الهجري وما بعده وليسواغزاة كما تذكر المدرسة الفرنسية في التاريخ.

قال عبد الرحمن بن خلدون في كتابه العبر [١٥].

حول أخبار البربر وإلى من يرجع نسبهم من الأمم الماضية. فيورد ما ذكره النسّابون حول أصل البربر فقال بعضهم أنهم من ولد إبراهيم عليه السلام من نقشان إبنه وقد تقدم ذكره عند ذكر إبراهيم عليه السلام وقال آخرون البربر يمنيون وقال أوزاع من اليمن وقال المسعودي من غسان وغيرهم تفرّقوا عندما كان من سيل العرم وقيل تخلفهم ابرهة ذو المنار بالمغرب وقيل من لخم وجذام كانت منازلهم بفلسطين وأخرجهم منها بعض ملوك فارس فلما وصلوا إلى مصر منعتهم ملوك مصر النزول، فعبروا النيل وانتشروا في البلاد وقال أبو عمر بن عبد البر ادعت طوائف من البربر أنهم ولد النعمان بن حميد بن سبأ قال ورأيت في كتاب الاستيداد الحكيم أن النعمان بن حمير [٢٥]. بن سبأ كان ملك زمانه في الفترة وأنه استدعى أبناءه وقال لهم أريد أن أبعث منكم للمغرب من يعمره، فراجعوه في ذلك وزعم عليه وأنه بعث منهم ومسفو أبا مسوف ومرطا أبا هسكورة وأضاك أبا صنهاجة ولمط أبا لمطة وإيلان أبا هيلانة فنزل بعضهم بجبل دون وبعضهم بالسوس وبعضهم بدرعة، ونزل لمط عند كزول وتزوّج إبنته ونزل جانا وهو أبو زناتة بوادي شلف ونزل بنوورتجين ومغراوة بأطراف إفريقية من جهة المغرب [٢١]. ونزل مقرونك بمقربة من طنجة والحكاية أنكرها أبو عمر وبن عبد البر وأبو محمد بن حزم وقال آخرون أنهم كلهم من قوم جالوت وقال على بن عبد العزيز الجرجاني النسابة في كتاب الأنساب له لا أعلم قولا يؤدي إلى الصحة إلا قول من قال أنهم من ولد جالوت ولم ينسب جالوت ممن هو وعند ابن قتيبة أنه وتور بن هربيل ابن حديلان بن جالود بن رديلان بن حطي بن زياد بن قحطان بن فارس، قال وفارس مشهور وسفك أبو البربر كلهم قالوا والبربر قبائل كثيرة وشعوب جمّة وهي هوارة وزناتة وضرية، ومغيلة، وزيحوحة، ونفزة، وكتامة، ولواتة، وغمارة ومحمودة. وصدنية ويزدران ودنجين وصنهاجة ومجكسة ووراكلان وغيرهم وذكر آخرون ومنهم الطبري وغيره (مازلنا مع رواية ابن خلدون في نفس المصدر) أن البربر أخلاط من كنعان والعماليق فلما قتل جالوت، تفرّقوا وسماهم بربر وقيل أن البربر من ولد حام بن نوح بن بربر بن تملا بن مازيغ بن كنعان بن

حام، وقال الصولي هم من ولد بر بن كسلاجيم بن مسرايم بن حام وقيل من العمالقة من بربر بن تملا بن مارب بن قاران بن عمر بن عملاق بن ولاد بن إدم بن سام. وقال مالك بن المرحل البربر قبائل شتى من حمير ومضر والقبط والعمالقة، وكنعان، وقريش تلاقوا بالشام ولغطوا فسماهم افريقش البربر لكثرة كلامهم وبسبب خروجهم عند المسعودي والطبري والسهيلي أن إفريقش إستجاشهم لفتح إفريقية وسماهم البربر.

الحسن الوزان وعروبة البربر

وإذا إنتقلنا من إبن خلدون إلى أبي الحسن الوزّان المعروف بليون الافريقي صاحب وصف إفريقيا نجده يؤكد عروبة البربر قائلا: لم يختلف مؤرخونا كثيرا في أصل الأفارقة فيرى البعض أنهم ينتمون إلى الفلسطينيين الذين هاجروا إلى إفريقيا حين طردهم الأشوريون فأقاموا بها لجودتها وخصبها، ويزعم آخرون أن أصلهم راجع إلى السبئيين أي الحميريين، الذين كانوا يعيشون في اليمن قبل أن يطردهم الأشوريون، أو الأثيوبيون منها. ويدعي فريق ثالث (حسب الوزان) أن الأفارقة (أي أهل المغرب) كانوا يسكنون بعض جهات آسيا فحاربتهم شعوب معادية وألجأتهم إلى الفرار إلى بلاد الاغريق الخالية آنذاك من السكان، ثم تبعهم أعداؤهم إليها، فاضطروا إلى عبور بحر المورة، واستقروا بإفريقيا، بينما استوطن أعداؤهم بلاد الإغريق كان هذا خاص بالأفارقة البيض القاطنين في بلاد البربر ونوميديا (نفس المصدر ص. 27 ـ 28) ... ـ والأفارقة بمعنى الكلمة فإنهم جميعاً من نسل كوش بن حام بن نوح ومهما إختلفت مظاهر الأفارقة البيض والسود فإنهم ينتمون تقريبا إلى نفس الأصل. ذلك أن الأفارقة البيض إما أن أتوا من فلسطين ـ والفلسطينيون ينتسبون إلى مصرائيم بن كوش، وإما من بلاد سبأ بن هامة بن كوش، انتهت رواية الوزان وسبأ مذكور في التوراة (X، 7) لكن السبئيين في القرآن الكريم هم رعايا بلقيس ملكة سبأ اليمنية التي جاءت سليمان (الآية رقم 27 من سورة النمل ج، 19 و15 من سورة سبأ، وسبأ في الرواية العربية هو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وهو أول ملوك اليمن حوالي القرن 20 ق.م.) تفرق أولاده العشرة بعد سيل العرم، فكانوا أصولا منهم سكان الجزيرة العربية وأهل المغرب العربي وهذه الحقائق

التاريخية تجعلنا نعتقد في صحة رواية ابن خلدون حول أصل البربر وكذا رواية أبي الحسن الوزان ولذا يمكن إعتمادهما كمصادر تاريخية صحيحة حول أنساب وأخبار أهل المغرب القديم.

المعطيات الانثربولوجية

وحسبما قام به علماء الآثار وعلماء الأنثربولوجية من أبحاث تدعم وتساند فكرة عروبة أهل المغرب العربي منذ القديم فهناك صلات وروابط كانت قائمة بين المغاربة وأهل المشرق العربي. ففي العصر الحجري الأوسط عثر على فك إنسان ينتمي إلى هذه المرحلة في كهف (هو افتيح) غرب درنة واستخدم الكربون 14 لمعرفة عمر الفحم الخشبي الذي وجد في مواقد هذا الموقع والمنتمية لهذه المرحلة. وأعطى سنة 43000 ق.م كتاريخ له، وثبت من الدراسات المقارنة وجود تشابه هذا الإنسان مع إنسان نياندرتال في فلسطين العربية. كما أن هذا التشابه أيضا يمكن ملاحظته في الصناعة الحجرية المنتمية لهذه المرحلة مما يجعلنا نستنتج وجود نوع من الصلات الحضارية والبشرية بين جنوب غربي آسيا وجنوب شرقي [22] ليبيا وأجزاء أخرى من منطقة نوميديا (أي الجزائر القديمة).

وإزدادت الإتصالات والعلاقات في وقت لاحق بين إفريقيا الشمالية والمشرق العربي.

فالمعطيات التاريخية تشهد أن الفترة السابقة (ثلاثة آلاف وثلاثمائة سنة قبل الميلاد 3300 ق.م.) شهدت أثناءها مصر صراعا قويا بين الليبيين والمصريين ويعود السبب إلى أن الليبيين كانوا يحاولون غزو مصر بصفة كلية، وقد تم ذلك في عدة محاولات ولا يستبعد المؤرخون أن هؤلاء الأقوام كانوا برابرة جاءوا من نوميديا.

وفي حوالي 1227 ق.م قام المصريون بردّ غزو لأقوام [23] مختلفة نحو الدلتا، وكان ضمن هذا الجيش الغازي جيوشا ليبية جاءت من جهة الغرب والذين كانوا يُسَمَّوْنَ بـ: الليبو.

ولوحظ أن أسماء زعمائهم يذكرنا بأسماء النوميديين، وليس من المستبعد أن هذه القبائل الليبية جاءت من منطقة الأطلس، ووجدت كتابات ليبية في سيناء والدلتا تدعّم فكرة وجود همزة [24] وصل بين الليبيين ومصر بما في ذلك سيناء. وهناك قرابة

لغوية بين الكتابة الليبية والأبجد
وتمّ العثور على كتابة ليبية في س
قلب مصر القديمة في فترات
ولاحظ المعنيون بلغات
والكنعانية والعبرانية والفنيقية
والحبشية والنبطية والبربرية والت
من جوهر اللغة، وذلك في
الأفعال، وفي زمني الفعل الرئي
أصول المفردات والضمائر والأس
أعضاء الجسم الرئيسية، وفي
المعنى، وفي التعابير التي تدل
أخرى، فقالوا بوجوب وجو
وأطلقوا على ذلك الأصل،
الأصل السامي، (emitique)
الشعوب (اللغات السامية)

وقد أخذ من أطلق هذ
«سام بن نوح» جدّ هذه ال
وأذاعها بين العلماء علما على
شلوتسر [25] أطلقها عام 81
والباحثين في موضوع لغات
وقد أخذ (آيشهورن هذه الت
المذكورة.

وفي عام 1869 قسم
الشمالية، والمجموعة السامية
به التعبير عن هذه الروابط
أما عن موطن الساميي
لأحوال جزيرة العرب إلى أ

للساميين، وفي هذه الأرضين نبتت السامية، ومنها هاجرت بعد إضطرارها إلى ترك مواطنها القديمة لحلول الجفاف بها الذي ظهرت بوادره منذ عصر الباليوليتيك هاجرت في موجات متعاقبة حملت معها آلهتها، وأولها الإله (القمر)، وحملت معها ثقافتها وخطها الذي اشتقت منه سائر الأقلام، ومنه القلم الفنيقي.

على كل حال هناك أدلة دينية ولغوية، وتاريخية وجغرافية تشير بوضوح إلى أن جزيرة العرب هي مهد السامية ووطن الساميين [29].. وقد عارض هذه النظرية طائفة من علماء الساميات، منهم العالم بلكريف الذي رأى أن إفريقيا هي المكان المناسب لأن يكون الوطن الأول للساميين، وقد كوّن رأيه من وجود تشابه في الملامح، وفي الخصائص الجنسية، وصلات لغوية بين الأحباش والبربر والعرب دفعته إلى القول بأن الوطن الأول للساميين هو إفريقية.

أما العالم جيرلند Gerland ، فذهب إعتمادا على الدراسات الفيزيولوجية مثل تكوين الجماجم والبحوث اللغوية، فزعم أنّ شمال إفريقية هو الموطن الأصلي للساميين.

واختار برتن Brinton شمال غربي إفريقية ولا سيا منطقة جبال الأطلس فجعلها الموطن الأصلي للساميين وهذه النظرية تتسم بالضعف [30]، ومن مواطن ضعفها أنها غضت الطرف عن الإعتبارات التاريخية وإستسلمت لدراسات لم تتضح بعد، فمن الممكن مثلا إرجاع ما لاحظه علماء اللغات السامية واللغة المصرية القديمة إلى عوامل الهجرات السامية من جزيرة العرب وعن طريق سيناء إلى إفريقية مثل هجرة (الهكسوس) وهم من أصل سامي جاءوا مصر من بلاد العرب وقد ثبت أيضا من تحقيقات العلماء أن كثيرا من الأسماء المصرية القديمة التي كانت تطلق على الأقسام الشرقية من الديار المصرية هي أسماء سامية. وإذا سوّغ علماء النظرية الإفريقية لأنفسهم الإستدلال على إفريقية الساميين من وجود القرابة اللغوية بين اللغة المصرية واللغات السامية مثلاً، فإن من الممكن إرجاع هذا القرابة إلى أثر الهجرات السامية في اللغة المصرية.

وأما تقارب الحبشية من اللهجات العربية الجنوبية وكتابة الأحباش حتى اليوم بقلم شبيه بالمسند، فلا يكون دليلا قاطعا على هجرة الساميين من إفريقية عن الحبشة إلى جزيرة العرب، إذ يجوز العكس، وقديما هاجر الساميون من العربية الجنوبية إلى

الحبشة. والساميون هم الذين كوّنوا دولة (أكسوم) التي كانت تتكلم باللغة (الجغزية)، وهي لغة سامية، كما أن قلمها الذي يشبه قلم المسند هو وليد القلم العربي الجنوبي وكتابات (يها) (يحا) المكتوبة بالمسند، في حد ذاتها دليل على أثر العرب الجنوبيين في الإفريقيين (الكوشيين) [31] وهذه الكتابات حديثة عهد بالنسبة إلى كتابات السبئيين كما يمكن إعتبار تشابه أسماء بعض الأماكن القديمة في الحبشة مع نظائر لها في اليمن ووجود معبد في الحبشة خُصَّ بالإله (المقة) إله سبأ العظيم [32]، وأمور أخرى دينية ولغوية وأثرية، وإعتراف الأحباش بأنهم من نسل ملكة سبأ (بلقيس) (ماقدة)، من سليمان الحكيم [33].، وأن (حبشت) التي أخذ الأحباش منها إسمهم في اللغة العربية هي مقاطعة تقع في العربية الجنوبية في رأي أكثر العلماء، وأن (الأجاعز) أصحاب اللغة الجعزية هم أقدم من هاجر من اليمن إلى الحبشة، ووجود صلات قديمة بين الساحلين الإفريقي والعربي، إذا نظرنا إلى كل هذه الأمور نظرة علمية دقيقة، نجد أنها تجعل أمام القائلين إن أصل الساميين من إفريقية صعوبات ليس من السهل التغلب عليها، ولا سيا إذا أضفنا إليها الأثر الذي تركته اليهودية والنصرانية في الأحباش وفي الشعوب الكوشية الأخرى، فقرب ثقافتها من الثقافة السامية وأثر في لغتها، وهو أثر يجب أن يقام له وزن عند بحث هذا الموضوع [34].. ثم أن كثيرا من علماء الأنثروبولوجي يرون أن إفريقية تأثرت بالدماء الأسيوية. أما تأثيرها في دماء أهل الشرق الأدنى وفي دماء سكان جزيرة العرب فقد كان قليلا. لقد دخلت إليها دماء شعوب الشرق الأدنى من البحر المتوسط ومن طور سيناء ومن مضيق باب المندب. ويظهر أثر هذا الإختلاط واضحا في إفريقية الشرقية وإفريقية الشمالية، ومازال هذا التأثر واضحا حتى اليوم [35].

وهناك نظرية لها طابع جدّي، وهي تتمثل في أنّ اللغة البربرية هي جزء من اللغات الحامية السامية، وحسب أنصار هذه النظرية فإنه تُوجد وحدة بنيوية عميقة في الجانب النحوي و syntaxiques بين اللغات الحامية واللغات السامية علاوة على أن هناك عدد كبير من الجذور الكلامية أو الأصول الكلامية تعدّ مشتركة بين اللغات الحمرية والحامية والغربية والبربرية وهكذا نجد أن الأبجدية البربرية أي تفناغ والكتابة الليبية تمثل قرابة كبيرة شديدة مع الأبجدية العربية الموجودة في الجزيرة العربية [36]

نقد بعض المغالطات التاريخية

إذا تمعنّا جيّداً في الحضارة الليبية (وهي حضارة بدائية لم تصل مرحلة النضج والشمولية والعالمية مثلما وصلت الحضارة الفرعونية في مصر) فنجد أن من عناصر هذه الحضارة اللغة الليبية القديمة والتي لم يتم فك رموزها مما يُعدّ كمُعضلة للتعرف على بعض الأمور التي لها علاقة وثيقة بالحضارة القديمة كالحياة الإجتماعية والسياسية، والإقتصادية ولو أن المعطيات قليلة مع الأسف.

هناك بعض الأحكام الإندفاعية «التي يغلب عليها الطابع العاطفي بدون مراعاة جانب التحرّي والصدق والتحليل وتتجلى هذه الأحكام لبعض المؤرخين المحليين أو من القارّة السمراء من يرجعون كل رقي حضاري عرفه المشرق العربي وبخاصة مصر القديمة، فيرجعون ذلك إلى أصول إفريقية أو نوميدية...! ولكن نتساءل هل صدقوا فيما ذهبوا إليه...؟ [٥٦]

كيف يمكن أن يُجزم أن الليبيين الذين حكموا مصر في 945 ق.م جاءوا من نوميديا بالذات. وليس هناك براهين مادّية قارّة تثبت ذلك ونفس الوضع مطروح فيما يخص البرهنة على أن عبادة أمون ـ رع الفرعوني في مصر الفرعونية هو من أصل نوميدي مع أنّه يكاد يكون من باب التوكيد أن أمون رع من أصل فرعوني مصري محض تمّ إنتقال عبادة أمون إلى أرض المغرب عن طريق مصر وليس العكس، وهناك إجماع كبار المؤرخين على ذلك. أما إثبات أن بعل حمون وتانيت وهما معبودان فنيقيان تم ظهورهما أصلا في بلاد المغرب القديم، فهذه الفكرة ليس لها أساس تاريخي ولا ديني لماذا...؟

لأن بعل حمون وتانيت وهما معبودان من أصل فنيقي وبعل بالبونية يعني «المعلم» أو السيد أو المالك ومؤنث بعل هي بعلات أما الجمع فـ بعـــاليم، وفي نصوص التوراة [٥٨] جاء ذكر المعبودات الأجنبية بإسم بعاليم.

وإسم بعل له علاقة بإسم جبل في فنيقيا بعل تسافون أوسافون وهذا الجبل يقع شمال أوغاريت في سوريا ويمكن العودة إلى سنيسر الذي بحث في الأمر وله مقاله عنوانها: أساطير وآلهة الديانة الفينقية وقد نشرت هذه الدراسة في مجلة الآثار بالفرنسية أركيولوجيا ــــــــــــــــــــــــــ Sznycer.
Mythes et dieux de la religion phénicienne (in archeologie fév. 1968.

وبعل حمون نجد له ذكرا في نصوص أوغاريت ونصوص التوراة كما سلف ذكره، وفي المعابد المقدسة بقرطاجنة، وورد إسم بعل في الأشعار الأوغاريتية على أساس أنه إله الخصوبة، وأطلق عليه إسم «النور» وهو أيضا إله محارب يجابه خصوم الحياة، وبخاصة رب الموت، ويدعى باللغة الفينقية «موت» وهنا يظهر الشبه الكبير بين الفنيقية والعربية في ذكر نفس المصطلح أي «موت»، وأمير البحر «يام» Yum مع العلم أن هناك كتابة أثرية عثر عليها بالقرب من خليج الإسكندرونة عثر فيها إسم حمون بالحاء وليس بالألف [٥٩].

بعل حمون من أصل فنيقي

وهناك بعض المؤرخين الذين يدمجون بعل حمون بالإله المصري أمون الذي تمت عبادته في المنطقة الليبية أو النوميدية. وقد جرى هذا قبل وصول الفينقيين إلى إفريقيا الشمالية أو إلى قرطاجنة على الأصح، ويؤيد هذه الفكرة كركوبينو Carcopino الذي يرى أن رع المعبود المصري، وبعل حمون الفينقي كلاهما يعنيان عبادة الشمس ويرى أن عبادة أمون ظهرت في برقة منذ العصر النيولتيكي وكذا في الجنوب الجزائري. ومن المسلم به أن عبادة أمون جاءت من مصر ولأن مصر كانت في العصر النيولتيكي المغربي في قمة الحضارة والإزدهار بينما أرض المغرب كانت تمرّ بمرحلة حضارة بدائية جداً لا تستطيع أثناءها أن تصدر حضارتها أو تكون كمركز إشعاع حضاري لأن الشروط الضرورية لم تكن متوفرة يومئذ.

وممّا يجب ذكره أن مصر الفرعونية عرفت تطوّرا حضاريا كبيرا بدأ منذ عصر بناة الأهرام، في حوالي 35 قرنا قبل الميلاد إلى عهد رمسيس الثاني الذي جعل طيبة عاصمة دولية وإنتهاء بعصر البطالمة في القرن الرابع ق.م. الذين جعلوا الإسكندرية عاصمة لهم، وفي كل هذه المراحل التاريخية عرفت مصر إزدهارا حضاريا في جميع الميادين رغم النكبات التي تعرضت إليها في مراحل تاريخها الطويل.

ويجب أن يتم التمييز بدقّة في حرف (ح) الموجود في حمون (أي بعل حمون) ووجود الحاء يُميّز حمون عن أمون، وإن لفظ حمون مشتق من الجمع الفينيقي

حامين ومعناه الحرارة والتي نجد لها مقابلا في اللغة العربية «حام» وكما هو معلوم أن مفهوم الحرارة هنا يستمد معناه من حرارة الشمس، وله علاقة بمهام الإله القرطاجني «بعل حمون» وحسب الإكتشافات الأثرية والمعطيات التاريخية فإن هناك توكيد أن بعل حمون يمثل إله الشمس ونجد إسمه مصحوبا بأسطوانة مجنحة (٤٠)

وعلاوة على ذلك فالمعطيات التاريخية تشير أو تذكر لنا أنه كان من العادات الدينية المتّبعة أن القرطاجنيين كانوا يقدمون أولادهم أو أبناءهم الأوائل فداء على شرف بعل حمون في نار موقدة. وهكذا نخرج بإعتقاد جازم أن بعل حمون يمثل سيد المواقع الساخنة أو الحارّة. ونقل عبادة بعل حمون المهاجرون الفينيقيون الأوائل وكان من جملة مضمون وطقوس هذه العبادة تقديم الأطفال لحرقهم أحياء كنوع من الفداء للإله بعل حمون، وهو نوع من الفداء البشري.

أما ديودور الصقلي عندما يتحدث عن فدية الأطفال في قرطاجنة، فإنه يدعو بعل، حمون بكرنوس Kronos .

ولكن هناك معبودات أخرى تمّ إندماجها مع بعل حمون مثل زيوس، وجوبيتر، هذا حسب ما يذكره القديس أوغسطين، ولكن في عهد الإحتلال الروماني نلاحظ أن زيوس حلّ مكان أبيه كرونوس، مثلما حلّ بعل مكان إيل على رأس أو قمة آلهة أوغاريت في رأس الشمرة بفنيقيا أي لبنان حالياً.

تاريخ الصحراء الجزائرية

إن النقص الموجود والملاحظ يخصّ ما كتبه المؤرخون الجزائريون حول تاريخ الصحراء، فهي أعمال ضئيلة وليست في المستوى المطلوب من الناحية العلمية والتاريخية والفكرية، سواء أكانت باللغة العربية أو الفرنسية، وأستثني من ذلك ما قام به من دراسات أكاديمية المركز الوطني لما قبل التاريخ والأنثربولوجيا Le Crupe أما ما عدا ذلك فقيل حول تاريخ الصحراء الجزائرية في المرحلة التاريخية أي بعد ظهور الكتابة ولا أدري ماهو السبب الذي جعل الجزائريون لا يهتمون ولا يكتبون عن تاريخ منطقة الصحراء...!

إهتمام الغربيين بالصحراء

إهتم الغربيون بالصحراء الجزائرية فقام المستكشفون والرواد الأوربيون بالكتابة عن الصحراء الجزائرية بعد زيارات متتابعة لها بحثا عن المجهول، ولرفع الغموض المتعلق بالمواقع الجغرافية والجيولوجية والأثرية. وكان هؤلاء الروّاد يقومون برحلات في الصحراء بإسم جمعيات جغرافية وتاريخية. منهم شاب ألماني يدعى هورنمان Horneman ترك لنا دراسة سجل فيها الأحداث التي صادفها والعقبات التي واجهها منذ بداية رحلته حتى نهايتها المبكرة. وترجمت الرحلة من الإنجليزية إلى الفرنسية تحت عنوان (٤١). سفر في إفريقيا الشمالية من القاهرة إلى مرزوق. مع العلم أنه قام بهذه الرحلة في أواخر القرن الثامن عشر.

وإستعان الرواد المستكشفون الأوربيون بما كتبه المؤرخ الطبيعي الروماني القديم بلين Pline 23 ق.م ـ 79. وإسترشدوا بما كتبه، واعتمدوا أيضا على ما ذكره هيرودوت في كتابه التاريخي، وسلكوا بعض طرق الصحراء إلى وصفها بلين. والمعروف أن طريق طرابلس الغرب هي التي سلكها الرومان للتوغل في الصحراء الكبرى وتعدّ إمتدادا صحراويا يصل إلى إفريقيا السوداء.

المستكشف هنري بارث

ومن المستكشفين الأوربيين الذين زاروا الصحراء الجزائرية نجد هنري بارث H. Barth الإنجليزي الذي قاد بعثة استكشافية في القرن التاسع عشر قادته من «طرابلس» إلى «آير» ثم جبال تاسيلي آجر وحمل هذا المستكشف الإنجليزي معه ثلاثة كتب هي: القرآن الكريم والعهد القديم من التوراة، وتاريخ هيرودوت. وبعد وفاة بارث عثر على عبارة كتبت بخط يده: «هيرودوت» رفيقي كل يوم في السفر، إنني أُجله وأجده ثمينا، بحيث لا يمكن تقدير ثمنه.

ومن المستكشفين الإستعماريين الرائد الفرنسي هنري دوفيريي، الذي عاش في القرن التاسع عشر وأوسكار لانز النمساوي الذي قام برحلة إستكشافية في الصحراء الجزائرية وفي الهقار بالذات كلّفته بها الجمعية الجغرافية ببرلين ولعلّ أهم مساهمة قدمها هذا العالم الطبيعي إلى الأبحاث الصحراوية هي إكتشافه لآثار حديثة للتماسيح

في بعض أودية المنطقة التي إستكشفها في سلسلة جبال آير الهجار التي يقطنها طوارق الجنوب الجزائري. وإن إكتشافه هذا يدل على بقاء هذه الحيوانات بعد موت الأنهار الكبيرة التي كانت تجري في العصر الجليدي، بعشرات القرون. وعاد لانز أوسكار من الصحراء بثروة عظيمة من المعلومات والملاحظات العلمية التي سجلها عن الصحراء والصحراويين في كتابه الذي نشره في باريس في 1886 ـ 1887 وعنوانه سفر إلى المغرب والصحراء والسودان.

ثم قامت شابة هولاندية برحلة إستكشافية بسيوة جنوب مصر وبرحلة أخرى في جبال الهقار ولكن تمَّ اغتيالها في الصحراء الجزائرية ولم يتجاوز عمرها بعدُ ثلاثين سنة فقط. وكانت قد حصلت على حماية ملك الطوارق أمينكال ولكن خصوما له باغتوها فقتلوها.

مساهمة شارل دوفوكول المريبة

ومن رواد الإستكشاف المبشر المسيحي المتعصب شارل دوفوكول، ويعتبر أكبر مستكشف ديني مسيحي للصحراء وأخطر المبشرين قاطبة لأنه كان ذوي ثقافة عملية ممتازة (فهو خريج مدرسة سانسير ويحمل في نفسه شعلة متقدة من الإيمان والتبشير للطيب ويجد لذّة في المتاعب وفي التضحية بالراحة، ومتع الحياة، وبدأ دوفوكول حياته الإستكشافية برحلة إلى المغرب الأقصى في 1883 ـ 1884، وكانت المعلومات الدقيقة والغزيرة التي جمعها خلال رحلته هذه دليلا قيّما وموثقا به، بعد ذلك بنصف قرن للقوات الفرنسية الإستعمارية التي كانت تقوم بعمليات تهدئة في جنوب المملكة المغربية، وقام برحلة أخرى إلى الصحراء الجزائرية زار خلالها الأغواط وغرداية والقليعة وورجلان وتوقرت... الخ. وقد أفضت به هذه الرحلة إلى الجنوب التونسي، وإلى قابس، واستقر به المقام أخيرا في مدينة تامنغست بأقصى جنوب الصحراء الجزائرية حيث قرَّر أن يبني ديرا له. وفي فترة لاحقة شيَّد القَسيس المبشِّر مبنى خاصا لسكنه على إحدى قمم الهجار، تسمى «إسكريم» ويبلغ إرتفاعها 2700م، وهذا لكي يقيم في عزلة وتأمل.

وكان يهدف من إستقراره في الصحراء الجزائرية القيام بالتبشير للدين المسيحي بين المسلمين من الطوارق بطريقة بسيطة وساذجة ولو أنه لم يفلح في جلب الأهالي

نحو المسيحية وإلى جانب نشاطه التبشيري قام دوفوكول بنشاط، أهمه عنايته بلغة الطوارق بتماشيق وبكتابتها «تيفيناغ» التي تحتوي على نسبة كبيرة من حروف اللغة الفنيقية وهذا يدل على أن الطوارق والفنيقيين والعرب والبربر من أصل واحد موطنهم الأول هو الجزيرة العربية وبلاد الشام. وقد عمل دوفوكول في هذا الحقل عدة سنوات بصبر ومثابرة وجمع وثائق هامة، وأهم المؤلفات التي ظهرت له في حياته في هذا الموضوع هما «نحو لغة» «تيفيناغ» وقاموس فرنسي طوارقي.

وبعد إغتياله من قبل الطوارق المسلمين الأبطال في 1916 عثر في منزله بتامنغست على مادة «موجز قاموس فرنسي ـ طوارقي» نشر في مجلدين ويبلغ مجموع صفحاته 1450 صفحة، وترك نصوصاً طوارقية مترجمة إلى الفرنسية تشكل مجلدين من الشعر والنثر الطوارقي.

الرسوم الصخرية في الصحراء الجزائرية

إكتشف الرحالة والمستكشفون الأجانب أن هناك رسوم صخْرية في الصحراء الجزائرية تعود إلى العصر الحجري الحديث، مع العلم أن هذه الرسوم منتشرة في مناطق عديدة من الصحراء الجزائرية والمغربية، والليبية، وتوجد أيضاً في الأطلس الصحراوي إبتداءً من حدود المغرب الأقصى غرباً حتى مرتفعات الأوراس شرقاً.

أما أول من إكتشف الرسوم الصخرية فهم أهالي منطقة الصحراء الجزائرية وهم الذين دلّوا المستكشفين الغربيين على مواقعها في وسط الصخور الجبلية. وبدأ الغربيون دراساتهم سقوش الحجرية في مطلع القرن العشرين على يد فلامون J.B.M. Flamand الذي جعل منها مرتعاً ومادةً لأبحاثه التي قام بها على مدى أربعين عاما. وكانت ثمرة جهوده إصداره كتابا عنوانه الصخور المكتوبة Les pierres écrites في 1921 وبعد هذا الكتاب مرجعاً لمن جاء بعده من باحثين وبيَّن أن النقوش الحجرية تنقسم إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول حفرت بالحجر «الصوان» وهي عبارة عن خطوط عريضة عميقة منتظمة.

النوع الثاني وهي نقوش أصغر حجما منقوطة بنقط غير متقنة مرفوقة بخطوط لبية

بربرية وهذه النقوش تمثل حيوانات مختلفة منها أنواع إنقرضت، ومنها ما يزال باقيا إلى يومنا هذا مثل الجمل.

النوع الثالث: هي رسوم حجرية رسمت برفق تمثل كتابات عربية كتبت بعد الفتح الإسلامي أي بعد القرن الأول الهجري.

وجاء بعد فلامون الضابط الفرنسي الإستعماري Brenant برونان وإكتشف رسوما صخرية في منطقة تاسيلي ناجر.

فيما يخص مناطق إنتشار الرسوم الصخرية فهي موجودة في الجنوب الوهراني... أي في منطقة التورات والريشة، وفي جنوب الوسط الجزائري بجانب بوجمل وثنية المزاب.

وتوجد رسوم صخرية في الشرق القسنطيني بعين وقادة وكاف لمساورة.

أما في التاسيلي ناجر فمواقع الرسوم الصخرية الكبرى توجد في أعالي الهضبة الواقعة شمال وشمال شرق مدينة جانت كموقع صفارن وجبارن، وتامريت...الخ.

وفي الهقار يعد مرتفع تيفدست من أغنى الأماكن بالرسوم والنقوش، وهناك مواقع أخرى بالقرب من تامنغست.

تطوّر الأبحاث حول الرسوم الحجرية

ولقد إنكبت الدراسات حول الرسوم الصخرية كظاهرة أثرية تستحق البحث فقام الباحثون الفرنسيون بأبحاث علمية في هذا المضمار، ولا سيما أنهم وجدوا مساعدات الحكومة الإستعمارية للقيام برحلات إلى الصحراء الجزائرية وزودتهم بالمعلومات والوسائل اللازمة ونضرب على سبيل المثال في هذا الشأن العالم الفرنسي ريقاس Reygasse ، الذي شغل منصب مدير متحف باردو للآثار بمدينة الجزائر في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية.

وقام بتحليل مجموعة من النقوش الصخرية التي عثر عليها في تاسيلي ناجر، فلاحظ أنه من الممكن التمييز بوضوح بين فئتين من الرسوم: إحداهما تمثل أهالي بدائيين يمارسون القنص والقطف، والثانية تصوّر قوماً ينتمون إلى عصر أحدث زمنيا وهم في هذا النوع الثاني يمارسون نشاط الرعي، ونسب ريقاس رسوم الفئة الأولى وهي رسوم بدائية إلى السكان الأصليين في المنطقة بينما النوع الثاني فقد نسبها إلى غزاة

جاؤوا إلى المنطقة فيما بعد. وعندما عقد المؤتمر الإفريقي الأول للآثار في مدينة الجزائر، قدمت رسوم صخرية عديدة وتبين أن هناك ظاهرة فنية تستدعي الإنتباه وتكوّنت لجنة علمية للإهتمام بهذا الجانب، وأرسلت بعد ذلك لجنة علمية إستكشافية كان يرأسها هنري لوط Henri l'Hote وتابع هذا الباحث أثر العربات في الرسوم، فاستنتج بعد البحث أنها رسوم حديثة جدا تعود إلى العهد الروماني، وهذه الرسوم (حسب إفتراضه) تشير إلى حملة رومانية إجتاحت الصحراء.

واعتمد هنري لوط في معرفته لمواقع الرسوم الصخرية على مرشد طوارقي من أبناء الهقار الذي أرشد على مواقع عديدة كانت مجهولة للباحثين الغربيين.

بعد تحليل العمر الزمني للرسوم تبيّن أنها تنقسم إلى مراحل خمسة، في المرحلة الأولى والثانية تتسم الرسوم بالطابع البدائي وهي تعود إلى 6000 ق.م.

أما المرحلة الرابعة والخامسة فهي تعود إلى العصر النيوليتيكي المتأخر أي 2000 و1500 عام ق.م، ونشاهد فيها ظهور الجمل كحيوان أليف.

مكانة تين هينان في الصحراء الجزائرية

إن إكتشاف الرسوم الصخرية في الصحراء الجزائرية من قبل الباحثين الغربيين كان ذلك حافزاً لمواصلة البحث في أعماق التاريخ الجزائري القديم النابض بالعبر والذكريات التاريخية الحقّة.

وتوصّل الباحثون الفرنسيون إلى إكتشاف جديد في الصحراء سلط أضواء كاشفة على ماض الطوارق التليد، ويتجلى ما عثر عليه من ضريح تين هينان الملكة الأسطورية التي عاشت حوالي القرن الخامس الميلادي (حسب تقدير الأنثربولوجيين للضريح). وقد اكتشف ضريح تين هينان في مطلع القرن العشرين، وكان ذلك نتيجة حفريات وقعت في 1925م.

ويقع ضريح تين هينان في ذروة هضبة إرتفاعها 914م، فوق ملتقى أودية تيفيرت وأباليسا، والضريح هذا قريب من قرية أباليسا الواقعة على بعد 80 كلم غرب تامنغست، أما البعثة التي اكتشفت الضريح وعثرت على جثة تين هينان، فهي بعثة فرنسية ـ أميريكية مشتركة تجمع موريس ريقاس الفرنسي، والكونت بيرون

كوهن ديبرووك الأمريكي. وفي 1933 قامت بعثة ثانية بقيادة ريقاس وكانت ترمي إلى القيام بأعمال حفر أثري في الغرف الأخرى، وكذا في القبور الأخرى المحيطة بضريح تين هينان.

وعثرت بعثة 1925 الآنف ذكرها في الضريح على بعض الأواني، والأثاث والمجوهرات.

تين هينان... ماهيتها

وتين هينان تعني في لغة الطوارق: ذات الخيام. فكلمة إيهن وجمعها إيهنان تعني في لغة الطوارق ذات المخيم لكنها قد تعني أيضا ذات الغُرف، هذا ما جعل البعض يعتقد أن تين هينان أي الشخصية المدفونة في هذا الموقع بالذات تم تعريفها بلقب مستعار، لأن الشخصيات أو المقدسين كثيرا ما تضيع أسماؤهم الحقيقية فيُعْرَفون بأسماء مجَازية تسمح إليهم بالتسامي عن طبيعتهم البشرية.

وتين هينان كانت إمرأة زعيمة في وسط مجتمع الهقار أو مجتمع الطوارق، وقد جاءت إلى الهقار من تافيلالت على متن ناقتها، وكانت ترافقها خادمتها تيقامت. وتين هينان تعد اليوم في الهقار رَمزا ثقافيا معتبرا وهذا ما جعل أحد الشعراء ينشد تين هينان في قَصيدته قائلا ما معناه بالعربية:

إن تين هينان هي أول من صنعت إمزاد عن طريق حبّة قرع، وحصلة وَبَر من ناقتها. وإمزاد هنا معناه آلة كمان ذات وتر واحد وإذا تمعنا جيّداً في خبايا شخصية تين هينان فإننا نجدها تحمل في طيات شخصيتها الأسطورية حقائق تاريخية.

طوارق الصحراء الجزائرية

وحديثنا عن تينْ هينان يجرنا إلى الحديث عن الطوارق الذين طبع وجودهم في الصحراء الجزائرية بطابع خاص مميّز وهم رمز الأنفة والشجاعة والنخوة والعزّة.

إن الطوارق يجمعهم بالعرب أصل واحد وهذا ما يفسر دخولهم في الإسلام بصفة عضوية لأنه دين الحق وحسب ما ذكره إبن خلدون في كتابه العِبر ينتمي الطوارق إلى قبائل المتونة الذين لهم صلة قرابة مع صنهاجة المُلثّمين وأوربة، وهذه الجماعات كان من عادتها الترحال إنطلاقا من شواطئ المحيط الأطلسي جنوب أكادير

المغربية وسيدي إفني والصحراء الغربية الساقية الحمراء ووادي الذهب إلى الصحراء الجزائرية، ثم الصحراء الليبية.

وتاريخ الطوارق يشكو نقصا كبيرا ويعود ذلك إلى قلّة المصادر والمعلومات، ولكن هذا لا يمنعنا من تصوّر حياة المجتمع الطوارقي عبر التاريخ، ولا سيما أن لديه تراث ثقافي يضرب في أعماق التاريخ وازداد أصالة وتماسكا بعد الفتح الإسلامي المبارك وهذا ما يفسر محاربة ومقاومة أهل الهقار للمستعمرين الفرنسيين من مكتشفين ومبشرين أرادوا تدنيس عقيدتهم الإسلامية السمحاء.

لقد كان يحكم مجتمع الهقار عبر التاريخ (أي في العصور الحديثة حكام من الأشراف الميسرين يعودون بأصولهم الأولى إلى غرب الصحراء).

وطوارق الهقار كانوا يعيشون تحت سلطة العشائر الثلاثة التي تُشكل النبل وهذا ما يدعى بـ (إيهقارن) والنبل في عرفهم قوامه الحرب، أي حماية مجموعة الطوارق ضد سيطرة قبائل الدُحّل المجاورين.

وإذا كان التمسك بالسلطة مرهون بالقوة الحربية والتحكم في الأرض أو المجال الحيدي، وإن هناك ظاهرة خاصة عند الطوارق وهو أن القائد الجديد، الذي يخلف الزعيم السابق في القيادة لابد أن يتم هذا الإختيار حسب وضعية أمه، وهناك من يرى أن ذلك يعود من بقايا ورواسب نظام الأسرة المعتمد على الأموية. ومن التقاليد أو العادات المتبعة عند طوارق الهقار أو عشائر الهقار أنهم يحددون هويتهم وفقا لعشيرة أمهاتهم (تاوزيت). وهكذا يستمرون في إرتباط بخيمة أخوالهم ويلاحظ أنهم يأتون لهذه الخيمة في أواخر أيامهم بعدما قضوا أعزّ أيامهم في خيمة الوالد الحنون (أي مُدّة طويلة من عمرهم).

وهناك من يعتقد أن ظاهرة الإنتساب إلى الأم لها جذور تاريخية تعود إلى ما قبل الإسلام. ويحافظ هذا الإنتساب في تجذير السلطة المحلية على مستوى القبيلة ولا سيما أن أعيان الهقار يسافرون كثيرا مما جعل المرأة تلعب دوراً كبيراً في توطيد العلاقات وإحترام قوّة القبيلة والدفاع عن إستمراريتها في الجهة المعنية كعنصر موجود بصفة دائمة ومستمرة.

هوامش:

(1) أنظر كتاب هيرودوت بالفرنسية:

Hérodote, œuvre complète A. Barget, Gallimard - Belgique 1970.

وتوجد دراسة هيرودوت بالفرنسية عن الليبيين كتبها ستيفان قزال المؤرخ الفرنسي عنوانها: القدماء مع النص الاغريقي Stéphane Gsell, Hérodote Université d'Alger paris 1916.

(2) أنظر لمزيد من التفاصيل في هذا الشأن: دكتور محمد بيومي مهران، دراسات تاريخية من القرآن الكريم في بلاد العرب (1) طبع جامعة محمد بن سعود الإسلامية المملكة السعودية 1980 / لجنة البحوث والتأليف والترجمة والنشر.

(3) أودّ أن أشير أن قرط حدشت أي المدينة الحديثة ونجد نفس التعبير في اللغة الفنيقية وفي اللغة العبرية ونفس المصطلح يقرب من المصطلح الغربي في لغة الضاد، ولابأس من إستعمال قرطاجنة لأن ابن خلدون والطبري وأحمد توفيق المدني يستعملون قرطاجنة للدلالة على قرطاج وساد هذا اللفظ الأخير (قرطاج) أخيرا وتداوله بكثرة الإخوة المؤرخين في تونس ويعود باللغة الفرنسية Carthage فإستعملوها بكثرة ونسوا اللفظة العربية للدلالة على مدينة قرطاجنة التونسية والتي تداولها كما ذكرت المؤرخون العرب وهي قرطاجنة بالنون والتاء في الأخير وأنا أحبّذ استعمالها أفضل من قرطاج ويجب أن نميز بين قرطاجنة وقرطاجنة الجديدة في إسبانيا Nova Carthago لأنه شتان ما بينهما من فروق لأن المدينة الثانية حديثة النشأة بالمقارنة مع الأولى.

ولذا لابد من تجنّب التعنت، الذي يتشبث به بعض المؤرخين الجزائريين في أمور لا تخدم البحث العلمي في التاريخ لا من قريب ولا من بعيد سامحهم الله.

(4) وعنوان الكتاب باللغة الإنجليزية هو كما يلي:

Egbert, Introduction to the Study of Latin inscription Revised édition supplément New York Chicago 1906.

(5) أنظر د. عبد اللطيف أحمد علي: مصادر التاريخ الروماني / ص 5 بيروت 1970.

(6) نفس المصدر ص. 13.

(7) نفس المصدر ص. 13.

(8) نفس المصدر ص. 15.

(9) نفس المصدر، ص. 26.

(10) نفس المصدر، ص. 26.

(11) نفس المصدر ص. 11.

(12) نفس المصدر، ص. 37.

(13) نفس المصدر، ص. 37.

(14) نفس المصدر، ص. 55.

(15) نفس المصدر، ص. 15.

(16) نفس المصدر، ص. 55.

(17) نفس المصدر، ص. 60.

(18) نفس المصدر، ص. 63.

(19) أنظر كتاب عبد الرحمن بن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ـ الجزء السادس صفحة 93، دار الكتاب اللبناني بيروت 1968.

(20) نفس المصدر، ص. 93.

(21) نفس المصدر ص. 93.

(22) يمكن العودة إلى مقالي: من أجل كتابة موضوعية لتاريخ الجزائر والمغرب القديم د. أحمد السليماني، في مجلة التاريخ التي يصدرها المركز الوطني للدراسات التاريخية ـ النصف الثاني من سنة 1985. وقد تعرضت إلى الأصول العرقية للأمة الجزائرية في هذه المقالة ـ ص.ص 87ـ96 رقم 20 ـ الجزائر.

(23) أنظر الكتاب الذي ألفه بالفرنسية بوسكي البربر وعنوانه كما يلي: ص. 26.

G.H. Bousquet, Les berbères p.26.; Presse universitaire de France.

(24) نفس المصدر ص. 27. Ibid p.27

(25) نفس المصدر، ص. 28. Ibid p.28.

(26) أنظر جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ج 1 / دار العلم للملايين مكتبة النهضة، ص. 222 ـ بيروت الطبعة الأولى، مايو 1968.

(27) نفس المصدر، ص. 223.

(28) نفس المصدر، ص. 223.

(29) نفس المصدر، ص. 233.

(30) هناك مجموعة من العلماء أيدوا هذه النظرية واستحسنوها مثل برتن Bertin, و(نولدكه)، و(موريس جسترو) و(كين) وريلي ويمكن العودة إلى:

Bertin, Journal of the Anthropological Institute, XI, 431 (1882)

وهناك كتاب برنتن Brinton

Cradle of the Semites Philadelphia 1890, Races and Peoples, New York, 1890 p.132, Enc. of Religions and Ethics vol. II, p.380.

(31) د.جواد علي المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج 1، ص. 236 237

(32) نفس المصدر، ص. 237.

(33) نفس المصدر، ص. 237.

(34) نفس المصدر، ص. 237.

(35) نفس المصدر، ص. 238.

(36) G.H. Bousquet, Les Berbères p.22.

(37) Préface à G. Picard, les religions de l'Afrique p.3.

(38) أنظر: Salah Eddine Tlatli : La carthage purique p.184-187.

(39) نفس المصدر، ص. 184. Id. Ibid p. 184.

(40) نفس المصدر بالفرنسية، ص. 185.

(41) Vori Horneman, voyage dans l'Afrique septentrionale depuis le caire jusqu'à Mourzouk.

مملكة السامرة 880 ـ 721 ق.م

عبد الله حورية

لقد صادفت أثناء جمعي لمادة أطروحتي للماجستير في تاريخ الشرق القديم «التوسع الأشوري في بلاد الشام» مادة تستهويني وتدفعني للكتابة، لكن انشغالي بتحرير الأطروحة كان يحول دون ذلك، ومن بين المواضيع التي استهوتني مملكة السامرة في فلسطين التي كانت على صلة بموضوع بحثي، ارتأيت بعد فراغي من تحرير الأطروحة أن أكتب فيها.

تعرف السامرة بالعبرانية بـ : شوميرون وسكانها: شوميرونيم، وهو اسم مشتق من شوميرون (Someron) (برج المراقبـــــة؟) أو من اسم قديم جدا Someron أو Some-Rajin وفق ما ورد في سفر الملوك[1].

أما الترجمة الأشورية Somerina والصيغة الأرامية Some-Rajin ، فهي تدلّ على مدينة قديمة تقع وسط فلسطين في البلاد التابعة لسبط إفرائيم بن يوسف[2] على بعد ستة أميال شمال غرب شكيم (نابلس).

بنى مدينة السامرة عمري* Omri[3] (885 ـ 874 ق.م) في سنة 880 ق.م، وهو سادس ملوك بني إسرائيل بعد أن حكم ست سنوات في ترصة (Thersa)[4]. عـــــلى جبل السامرة الذي اشتراه بالفضة من شامر بوزنتين وأطلق على المدينة اسم السامرة نسبة إلى شامر صاحب الجبل[5]، وجعلها عاصمة لمملكة إسرائيل. كانت من المدن النادرة التي بناها بنو إسرائيل، بحيث تحتل مكانا استراتيجيا هاما من الناحية العسكرية والإقتصادية.

ومن أشهر ملوك إسرائيل الملك أخـــاب (Achab) 874 ـ 852ق.م الذي قام ببناء عدة منشآت ووطّد النظام الإداري في السامرة. وفي عهده حاصرها

السوريون مرتين (٥). في المرة الأولى استعمل ملك آرام بن حدد 879 _ 843ق.م (Benhadad) كـــل جيشه وما يملك من خيل وعربات، وحاصرها وحاربها، إلا أنه انهزم ولم يتمكن منها، وأعاد الكرة مرة أخرى وضغط على آخاب وحاصره في عاصمته (السامرة)، وفي الأخير استطاع آخاب أن يتغلب على الارامين وعقد معهم معاهدة مفادها أن يعيد ملك دمشق لإسرائيل المدن (٦) التي أخذها أبوه من أب ملك إسرائيل، وأن يفتح لنفسه أسواقا في دمشق.

وتحالف آخاب مع مملكة دمشق ضد الهجوم الأشوري في معركة قرقر، التي لم تكن حاسمة (٥) وحـدث نزاع في عهده بين عبادة بعل وعبادة يهوه * Yahweh (٥) ولما استولى ياهو على العرش في سنة 842 ق.م أعاد عبادة «يهوه» في أواسط السامرة (١٥). وكانت حروبه الخارجية فاشلة والدليل على ذلك ما جاء في المسلّة السوداء التي أقامها شلمناصر الثالث. تبين أنه كان يقبل الأرض عند قدمي الملك الأشوري ويقدم له الجزية المتمثلة في أواني من الفضة والذهب والرصاص (١١).

والجدير بالملاحظة أن الحروب كانت متبادلة بين الطرفين إلا أن أشور نجحت في سياستها المتمثلة في تجزئة المملكة التي أصبح يشرف على إدارتها إشرافا مباشراً موظفون أشوريون بعدما كانوا يعينون الحاكم التابع للنظام المركزي في أشور.

وفي سنـة 724 ق.م حـاصرهـا شلمنـاصر الخامس (Salamanasar) 726 _ 722 ق.م(١٢) ونستطيع أن نقول بأن ثلاث سنوات من الحصار تعتبر فترة طويلة بالنسبة لإمكانيات المدينة.

انتهت مدينة السامرة بالسقوط في سنة 721 ق.م، في بداية حكم سرجون الثاني أي بعد موت شلمناصر الخامس بقليل، وهو ما تؤكده حوليات سرجون الثاني «استوليت في السنة الأولى من ملكي على مدينة السامرة ونقلت منها 27.290 شخص، وأخذت عرباتهم وأضفتها لجيشي وفرضت عليهم الجزية...»

سبى سرجون الثاني الإسرائيليين إلى أشور ووضعهم في كالخ (Khalakh) (١٥) وخابور ونهر قوزان (Gozân) وفي مدن ميديا (١٤). وإذا حاولنا أن نقارن ما ورد في النقوش وما ورد في الكتاب المقدس نجد

علاقة وطيدة، على سبيل المثال ما توصلت إليه حفريات نمرود يتطابق مع ما ورد في الكتاب المقدس، وهو ما يتضح من النقش التالي: «خلال التوسع الأشوري حاصر شرجون الثاني السامرة، وكان عدد سكانها 27.290نسمة، نفي بعضهم وبقي البعض، حيث فرض عليهم الجزية، ونهب من المدينة ما مقداره خمسين مركبة، واستباح المدينة لجنده.» (١٥). وما ورد في الكتاب المقدس: «استولى ملك أشور على البلد كله، تقدم نحو السامرة وحاصرها لمدة ثلاث سنوات، في السنة التاسعة من حكم عزية استولى ملك أشور على السامرة وسبى الإسرائيليين إلى أشور وأقامهم في كالخ وعلى شاطئ الخابور ونهر قوزان وفي مدن ميديا. (١٥)

نستنتج مما سبق بأن النصين متطابقين، وأن المدينة قد احتلت وأفرغت من سكانها، وتم إبعاد القوى الحيّة من الأمة وعوّضت بإحضار شعوب أخرى، جيء بها من مناطق نائية خاضعة لأشور(١٧).

استقرت في مملكة السامرة الجديدة أرستقراطية أجنبية قدمت من بابل ومن كوثـه (Kutha) ومـن حماة (Hamath) ومن بلدان أخرى غير معروفة (١٥)، وجاءت هذه العناصر الأجنبية بعاداتها وديانتها الخاصة، لكنها اندمجت شيئا فشيئا بالشعب الإسرائيلي الذي بقي في البلاد. كما تحمّلت السامرة في عهد سرجون الثاني على كاهلها دفع جزية ثقيلة مثل ما فعلت يهودا وجـيرانها فلسطيا (Philistic) وعـمون (Ammon) ومـؤاب (Maab) وأدوم إلى أن تلاشت، وأصبحت مملكة يهودا معرضة لهجومات مباشرة من قبل أشور (١٥).

لكننا نجد خلافا بين المؤرخين، بين من يرى أن ملك أشور لم يتسبب في سبي كل أهالي السامرة بل ترك البعض منهم فاختلطوا بالأقوام الذين أتى بهم إلى السامرة وأسكنهم بها فتشكل منهم شعب السامريين الذين أشرنا إليهم أعلاه. وتبيّن أغلبية المؤرخين الذين استخلصوا من التوراة أن شلمناصر سبي جميع الإسرائيليين من السامرة وأن اسرحـدون (Assur-aha-iddin) عمّـرها بأقوام غرباء استقدمهم من بابل وغيرها. وهؤلاء القوم كانوا يعبدون الأوثان، ومما يؤكد هذا الرأي أن (٢٥) السامريين كانوا يجهلون ديانة آل إسرائيل فطلبوا من ملك أشور أن يبعث لهم بكاهن إسرائيلي من الذين سباهم ليقيم بينهم ويعلمهم ديانة آل

إسرائيل، وكان السامريون يودون التقرب من الإسرائليين، ويدعون أن دياناتهم واحدة، ولذلك عند رجوع الإسرائليين من سبي بابل عرضوا عليهم مساعدتهم لإرجاع الهيكل فرفض الإسرائليون، فكان ذلك سببا في العدوان بينهم بداية من سنة 535 ق.م التي تؤدي إلى ما يعرف في التاريخ بالسبي البابلي أو السبي الثاني (21).

نستنتج مما سبق أن هناك نوعين من المصادر تتعرض لدراسة مملكة السامرة وهي المصادر اليهودية والعربية. فإذا كانت المصادر اليهودية تشير إلى أن السامريين كانوا يتمتعون بفكر راقي ويمتازون بالقوة، وتوجه الطعون إلى الأشوريين مثيرة قضية السبي جاعلة الهدف منه تحطيم وطنية الشعوب الراضخة ومحو جذورها، وتذكر محاولة ملوك أشور تحقيق فكرة الامبراطورية العالمية وسيادتهم على الشعوب. وغرض هذه المصادر من ذلك هو محاولة الوصول إلى إثبات فكرة «أرض الميعاد» بدعوى العودة إلى الوطن الأم «أرض الميعاد» بعد التعرض إلى السبي من طرف الأشوريين.

أما المصادر العربية ولها وجهة نظر أخرى وهي تتطابق مع المعطيات الأثرية، فإن السامريين كانوا ضعفاء خاضعين للأشوريين والدليل على ذلك ما كان يدفعه ملوك إسرائيل إلى أشور، والخضوع لها عبر مراحل طويلة من تاريخ السامريين.

ومن ثم إذا سلمنا بأن الأشوريين عاملوا أهل السامرة بفظاظة ووحشية فقد يعود ذلك إلى تفوّق أسلحتهم وتطوّر أنظمتهم، فمن البديهي أن يتطلعوا إلى فكرة تحقيق الأمبراطورية العالمية.

هوامش

(1) سفر الملوك الأول، 16 ـ 24.

(2) الموسوعة الأثرية العالمية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1977، ص 566.

(3) Dictionnaire encyclopédique de la bille, édit brepols Turnhout, Paris 1960, p.1672.

(•) عمري إسم لأربعة أشخاص أهمهم عمري الملك السادس لإسرائيل (885 ـ 874 ق.م) مؤسس السلالة الرابعة.

(4) سفر الملوك الأول 16 ـ 24.

(5) نفسه، 16 ـ 23 ـ 24.

Maspero (G.) Histoire Ancienne des peuples de l'orient, Hachette, Paris 1905, 433.

(6) نجيب ميخائيل، مصر والشرق الأدنى القديم، (6 أجزاء) الجزء الثالث طبعة، دار المعارف القاهرة 1964، ص. 361، سفر الملوك الثاني، 6.

(7) نفسه، ص. 362.

(8) فليب حتي، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، الجزء الأول، ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق، دار الثقافة بيروت 1958، ص. 179.

(•) معركة قرقر 853 ق.م كان يتزعمها الملك الأشوري شلمناصر الثالث. وكان تحالف الملوك السوريين يضم اثنى عشر ملكا، يرأسهم بين حداده.

(9) Parrot (André), samarie capitale du royaume d'Israel Nenchatel, Paris, 1955, P.65.

(••) تزوج آخاب «إيزابل» إبنة ايثعل ملك صور وصيدا، فسيطرت على زوجها وفرضت عبادة بعل صور على إسرائيل. أدى ذلك إلى نزاع طويل بين عبادة بعل، وعبادة يهوه، أنظر:

Israel et le Judaïsme dans l'ancien orient, Buysschaert (G) Edit Beryaert 1953, PP 185-190.

(10) البستاني (بطرس)، دائرة المعارف، المجلد التاسع، طبعة بيروت 1887، ص. 407.

(11) فليب حتي، المرجع السابق، ص. 211.

(•) للمزيد من المعلومات أنظر

Brion (Marcel); la Résurrection des villes mortes payer, paris 1948, p. 179.

(12) محمد عزه دروزة، تاريخ إسرائيل من أسفارهم، منشورات المكتبة العصرية، بيروت بدون تاريخ، ص. 207.

(13) Yirku (Anton), Le monde de la bible, Trad lilly yumel, édit correa Buchet chastel, Paris 1958, p.87.

Rops (Daniel) Histoire sainte, Paris 1943, p.49; Vierye (Maurice), Les Assyriens, édit du seuil 1961, P.53; Barrois (A.G.); précis d'Archélogie biblique, bibliothèque catholique; 1935; PP.37-47.

(14) Parrot (André), op.cit, P.36; André et René Neher, Histoire biblique du peuple d'Israel, Paris 1962, P.475.

(15) نسيب وهيبه الخازن، من الساميين إلى العرب، مكتبة الحياة، بيروت بدون تاريخ، ص. 132.

(16) II Rois; XVII, 5-6; Luc H. Grollenberg; Atlas de la bible, Trad Beaupère (René), édit, Elsevier, Paris (S.D.); p. 90.

(17) Parrot (André), op.cit, P.66; Garelli (Paul) Nikiprowetzky. V.; Le proche orient asiatique; (P.U.F) Paris 1974, p.261.

• كوثه: مدينة بابلية.

•• حماة: في سوريا الوسطى.

(18) سفر الملوك الثاني، 24 ـ 27،

Nath (Martin); Histoire d'Israel, édit Payot, Paris 1954, p.270.

(19) Nath (Martin); op.cit; p.267.

(20) Parrot (André); op.cit; p.66.

(21) Ibid; p.65

حملة حنبعل على إيطاليا

د. محمد الهادي حارش

تعد حملة حنبعل على إيطاليا أهم أطوار الحرب البونية الثانية (218 ـ 201 ق.م) التي تعد بدورها من أقسى مراحل الصراع المسلح بين قرطاجة وروما، هذا الصراع الذي بدأ باحتلال القرطاجيين لمدينة مسينا في صقلية سنة 264ق م، وما أعقبه من أحداث الحرب البونية الأولى (264 ـ 241 ق.م)، وينتهي بتهديم قرطاجة في نهاية الحرب البونية الثالثة (149 ـ 146 ق.م) على يد سكيبيو إيميليانوس.

كان إحتلال مدينة ساغنتة Sangonte[1] سنة 219 ق م من طرف حنبعل، بعد حصار دام ثمانية أشهر بمثابة «الشرارة» التي أشعلت فتيل الحرب البونية الثانية، والواقع أن هذا الإحتلال جاء بعد سلسلة من الفتوحات التي قام بها حنبعل في إسبانيا، توغل على إثرها حتى بلغ الألفادا وهزم الفاكين وأفتك منهم سلامنكا Salamanque، كما هزم جيش «الكرابطة» على ضفة التاج، وهي الإنتصارات التي جعلت رجال المال الإيطاليين يتحيرون من إستيلاء حنبعل على مناجم الفضة، فكانوا بذلك وراء إشهار روما الحرب سنة 218ق م، بعد رفض الشيوخ البونيقيين وضع حدٍ لتصرفات حنبعل[2]

بعد عودة حنبعل إلى قرطاجنة، علم بإعلان روما الحرب أواخر ربيع 218 ـ ربما خلال شهر مايو ـ فقرر مهاجمة روما في عقر دارها، وكان عليه أن يختار بين سلوك الطريق البري أو ركوب البحر. فاختار الطريق البري، تجنبا ـ ربما ـ لمخاطر حملة بحرية، وآملاً في التحالف مع البويان Boiens[3]، الذين ثاروا ضد روما بعد تأسيسها لمستعمرتي «بلاكنتيا» و«كريمون»[4].

اجتاز حنبعل نهر الإيبرو على رأس قوات معتبرة من الأفارقة والإسبان، تعد على ما يذكر بوليبيوس[4] تسعون ألفاً (90.000) من المشاة واثنا عشر ألفاً (12.000) من الفرسان، وسبع وثلاثين (37) فيلا.

بعد اجتيازه للايبرو ـ الحد الفاصل بين الرومان والقرطاجيين ـ أخضع الشعوب القاطنة بين المجرى الأسفل لهذا النهر وجبال البرانس، واجتاز هذه الجبال الأخيرة بعد أن ترك حنون Hannon للحفاظ عن المنطقة رفقة عشرة آلاف (10.000) من المشاة وألف (1.000) من الفرسان[5]. وسرح عددا مماثلا، واجتاز جبال البرانس بما تبقى له من الجيش والذي يقدر حسب بوليبيوس بـ: خمسين ألفاً (50.000) من المشاة وتسعة آلاف (9.000) من الفرسان[6].

لم يصطدم حنبعل بمقاومة تذكر في بلاد غالة، حيث اجتاز نهر الرون Rhône في شهر أغسطس بعد مناوشات خفيفة، خلال ذلك، وصل بوبليوس كورنيليوس سكيبيو (P. Cornelius Scipio) عن طريق البحر، ونزل على المصب الشرقي لهذا النهر، وعلم أن حنبعل قد دخل بلاد غالة، وكان عليه أن يوقفه هنا، لكن حنبعل تحاشى الاشتباك معه في معركة، تجنباً لإضاعة الوقت، ذلك أن الخريف على الأبواب، ولا يمكن اجتياز جبال الألب في ذلك الفصل، بسبب تراكم الثلوج[5]، وتوغل نحو الشمال، متبعاً الضفة اليسرى للنهر في تجاه منبعه إلى حيث يلتقي هذا النهر بنهر الإيزير (Isère)، بينما عاد سكيبيو إلى الساحل بعد أن رأى أنه ليس من الحكمة اللحاق به، فسلم الفرق لشقيقه كينيوس الذي أمره بالذهاب بها إلى إسبانيا، وعاد هو إلى بيزا (Pise) من حيث سيلحق بسرعة بقبل ـ الألب (Cisalpine) لأخذ قيادة الفرقتين اللتين أرسلتا ضد الغاليين الثائرين[5].

اجتاز حنبعل جبال الألب عبر فج سان برنار الأصغر على ما يرى غالبية المؤرخين[10]، ولم يكن اجتيازه هذا سهلاً، إذ تعرض لمقاومة سكان الألب الجبليين، أضف إلى ذلك بداية تساقط الثلوج، فلم يمر إلا بعد صعوبات جمة ومعاناة كبيرة، وهو ما يفسر فقدانه لأزيد من نصف قواته[11]، إذ لم يصل معه إلى البو (Pô) غير عشرين ألفاً (20000) من المشاة وستة آلاف (6000) من الفرسان وواحد وعشرين (21) فيلاً[12]، بعد سير خمسة أشهر، منها خمسة عشر يوما قضاها في تلك الجبال[13].

اعترض سكيبيو طريق حنبعل على الضفة اليسرى «للبو» إلى الغرب من تيسينو (Tecino)، لكن الفرسان النوميديين دحروه على ما يذكر بوليبيوس[14]، فتراجع نحو بلاكستيا (Placentia) بعد أن تعرض لجروح خطيرة.

قدوم سمبرونيوس (Sempronius) على رأس القوات المقرر إرسالها إلى إفريقيا[15]، لم يزد وضع الرومان غير تدهور، إذ قرر الاشتباك مع جيوش حنبعل، رغم رأي زميله ـ سكيبيو ـ المخالف[16]، فكانت معركة تربيه (Trebie) التي كانت الهزيمة فيها حليفة الرومان، رغم تساوي القوات[17]، فكانت هذه الهزيمة التي فقد فيها سمبرونيوس ثلاثة أرباع قواته[18] عاملا غذى ثورة الغاليين الذين إنضموا بأعداد كبيرة إلى جيوش حنبعل[19] الذي أصبح سيد غالة قبل الألب (Cisalpine)[20]، حيث بقي حتى نهاية فصل المطر.

دخل حنبعل الشبه الجزيرة الإيطالية في فصل الربيع، وكان في انتظاره جيشين، أحدهما في أريمنيوم Ariminium على ضفاف الادرياتيك بقيادة القنصل (Servilius) والآخـــر في أريتيوم (Arretium) باتروريا بقيادة القنصل فلامينيوس (Flaminius)، بهدف سد الطريقين المؤديين إلى روما أمام حنبعل[21].

قرر حنبعل الدخول إلى أتروريا (Etrurie)، مروراً على جبال الابنين (Apennin)، رغم صعوبة المسلك، إذ عانى وجيوشه كثيراً من المستنقعات التي أحدثتها فيضانات نهر أرنو (Arno)، ولم يصل فيزول (Fiesole) إلا بعد أربعة أيام من السير ومعاناة كبيرة، كما أصيب برمد فقد على أثره عينه اليمنى على ما يذكر كورنيليوس نيبوس[22].

من فيزول واصل سيره عبر سهول «توسكانه» (Toscane) التي نهبها على أمل أن يدفع ذلك فلامينيوس للحاق به، وهو ما حدث، فلم ينتظر هذا الأخير وصول قوات زميله (سرفيليوس) من «أريمنيوم» (Ariminium)، فتحرك من أريتيوم (Arretium) للعودة جنوبا، وفي الوقت الذي كان يتقدم فيه عبر ممر ضيق بين بحيرة ترازيمان le Lac trasimène والهضاب المحاذية لها على الشمال الشرقي، طوقه حنبعل وهاجمه من كل الجهات، فهلك في المعركة مع خمسة عشر ألفاً (15.000) من رجاله[23]، وأسر عددا مماثلا[24] (21 جوان 217). واحتفظ حنبعل بالرومان وخلى

سبيل الحلفاء متظاهراً بذلك أنه لم يأت محارباً لهم، وإنما جاءهم محرراً[25].

بعد السيطرة على إقليم إتروريا، كان يعتقد أن حنبعل سيتوجه في الحال نحو «روما»، التي بدأت تتهيأ للدفاع، وعينت كنتوس فابيوس مكسيموس (Q. Fabius Maximus) ديكتاتوراً، لكن حنبعل أدرك أن أسوار المدينة تضعها في مأمن، ولحصارها لم يكن معه الجيش الكافي وفرسانه الذين يشكلون قوته الأساسية لا يخدمونه في هذا الحصار، وكذا نقص أدوات الحصار وانعدام الأسطول الذي يراقب منفذ التيبر ويعزل الرومان من جهة البحر، دفعه إلى التوجه شرقاً حتى وصل بيكينوم (Picenum) على الأدرياتيك، حيث بقي بعض الوقت ممكناً قواته من بعض الراحة[26].

تعيين مكسيموس ديكتاتوراً لم يغير في الوضع، إذ رغم تعقبه لحنبعل. كان يرفض الإشتباك معه في معركة فاصلة، ولذا تلاعب به هذا الأخير وقصد إحباط أسلوب مكسيموس «المتأني»[27] جال بشمال أبوليا Apulie كما عبر السامنيوم Samnium وتوغل غرب كمبانيا Campanie، وأراد بإنتهاجه سياسة النهب، إجبار مكسيموس على معركة حاسمة، وإن لم ينجح في ذلك، فصل عن روما حلفائها الذين تبدو بذلك عاجزة عن الدفاع عنهم، وقد تمكن فعلاً من جمع غنائم كثيرة وسلب ممتلكات حلفاء روما هؤلاء على مرأى من جيوشها، لكن مكسيموس ظل مخلصا لتكتيكه ولم يبال بشكاوي الفلاحين الذي خربت أملاكهم، ولا بإنتقادات الذين عدّوا حذره جبناً[28].

قضى حنبعل شتاء 217 ـ 216ق م، والربيع الموالي في أبوليا في بلاد القمح والمراعي[29]، ومع ذلك كان في وضعية مهزوزة، لا انتصاراته في غالة قبل الألب وفي أتروريا ولا نهبه دفع شعوب إيطاليا إلى التخلي عن روما، الغاليون لم يقدموا كل الخدمات التي كان ينتظرها منهم، خاصة أنه فقد الإتصال بحوض البو وبإسبانيا[30].

لكن الرومان الذين ملّوا من سياسة مكسيموس سيتكفلون بإخراجه من هذه الورطة، بتعيين لوكيوس إيمليوس باولوس (Licius Aemilius Paulus) وكايوس ترنتيوس فارو (C. Terentius Varro) قنصلين لسنة 216 ق م، ودفعها للبحث عن المعركة التي جرّت في سهل أوفيدوس Aufide قرب كانة في الثاني (02) أغسطس 216ق م[31].

كان الجيش الروماني يضم ثمانين ألفاً (80.000) من المشاة وستة آلاف (6.000) فارس، مقابل أربعين ألفاً (40.000) من المشاة وعشرة آلاف (10.000) فارس في صفوف حنبعل، قد يكون هذا التفوق العددي هو الذي أغرى فارو ودفعه إلى الإسراع في دخول المعركة التي طوق فيها حنبعل القوات الرومانية وأبادها عن آخرها[32]؛ في وقت لم يفقد فيه غير خمسة آلاف وسبعمائة (5700) مقاتل أكثرهم من الغاليين على ما يذكر بوليبيوس[33].

تساءل كثير من المؤرخين عن الدواعي التي حالت دون استغلال حنبعل انتصار «كانة» في الزحف على «روما»، فكان حتى أصحاب حنبعل يرون أن الوقت كان مناسبا على ما يذكر أحمد صفر، الذي نقل لنا حديثا بين حنبعل ومهر بعل في هذا الإطار[34]. لكن المحللين يرون أن حنبعل لم يكن يتوفر على الإمكانيات اللازمة لحصار روما. ولهذا الغرض سعى للحصول على الدعم من قرطاجة[35].

جلب انتصار «كانة» بعض الحلفاء لحنبعل على رأسهم مدينة كابوا Capoue، التي جعلها قاعدة أعماله لأزيد من خمسة (05) أعوام. وكذا كثير من مدن وسط وجنوبي إيطاليا التي انضم سكانها إلى حنبعل[36]، مثل سكان البريتيوم Britium وأبوليه Apulie ومعظم السمنتيين Samnites واللوقانيين Lucaniens، بينما استعصت عليه مدن: نولة Nola ونابولي Naples وكوماي Cumae.

كما سمح أيضاً انتصار «كانة» لحنبعل بعد وفاة هيرون (Hieror) من مضاعفة بسط نفوذه في صقلية سنة 215 ق.م[37].

لكن هذه الإنتصارات سرعان ما تنهار إذ رغم سكوت حنبعل في إيطاليا نحوا من خمسة عشر عاما بعد «كانة» إلا أن عدم تلقيه أي نجدة من قرطاجة من جهة وتماطل «فيليب» ملك مقدونيا من جهة أخرى حال دون مزيد من الإنتصارات، بل أكثر من ذلك بدأت قواه تنهار إبتداء من سنة 212 التي فقد فيها سرقوسة[38]، التي تلاها سقوط «كابوا» سنة 211، بعد حصار طويل عجز حنبعل خلاله عن تقديم العون لها رغم توجهه نحو روما لكن بدون جدوى[39]، دخل الرومان مدينة «اقريجنوم» قبل دخول مدينة ترنتة (Tarente) سنة 209 ق م[40].

في الوقت الذي توالت فيه هذه الأحداث في إيطاليا، كانت الأوضاع في إسبانيا تسير لغير صالح القرطاجيين، فإضافة إلى الانتصارات التي حققها بوبليوس

كورنيليوس الذي استولى على قرطاجة سنة 209 والتي كانت وراء طلب قرطاجة من ماقون (Magon) البقاء في إسبانيا نجد أيضا سردينيا التي أظهرت استعدادها للتخلص من الرومان، إن وجدت المساعدة وبالتالي طلب من ماقون تحضير هذه المساعدات وهو ما حال دون نجدة حنبعل[41] الذي وجد نفسه معزولاً في الجنوب الغربي لشبه الجزيرة الإيطالية[42].

– إجتياز اصدروبعل لجبال الألب بهدف نجدة شقيقه لم يزد الوضع إلا تدهوراً، بعد إنهزامه في معركة ميتور (Metaures) – يونيو- يوليو 207 ق.م – التي لقي فيها مصرعه[43].

أدرك حنبعل بعد معركة «ميتور» أن الأمر آل لروما، فتخلى عن «أبوليا» (Apulie) ولوكانيا (Lucanie) وغادر حتى ميتابونتم (Metapontum) وانسحب نحو البروتيوم (Bruttium)، حيث بقي أربع سنوات (4) أخرى دون أن يتجاسر أحد على اقتحام مكانه[44].

أما في اسبانيا فقد واصل سكيبيو (Publius Cornelius Scipio) الحرب، وتمكن سنة 206 من إلحاق الهزيمة بالقرطاجيين في إلبيا (Ilipa)، ورغم محاولة ماقون إصلاح الوضع ومواصلة الحرب لكن أحد أعوان سكيبيو وضع حداً لهذه المحاولة بعد احتلال قادس[45].

بعد الإنتصارات التي حققها سكيبيو في إسبانيا عاد إلى روما سنة 205 وانتخب قنصلاً، وبدأ يعد للحملة على إفريقيا[46].

نزل سكيبيو قرب أوتيكا (Utique) سنة 204 ق.م، وكانت انتصاراته وراء طلب قرطاجة من حنبعل العودة للدفاع عن وطنه، بعد أن شعرت بحاجتها لكل قواها[47].

نزل حنبعل في لمطة في صائفة 203 ق.م، ومنها توجه إلى حضرموت (Hadrumatum)، حيث أعد المدة للمعركة الفاصلة في زاما 19 أكتوبر 202[48]، حيث انهزم وفقد في المعركة أزيد من عشرين ألف (20.000) قتيل وعدد مماثل من الاسرى[49]. وبذلك وضعت الحرب البونية أوزارها، بعد أن كبلت قرطاجة بشروط معاهدة السلام 201 التي كرست التفوق الروماني. رغم الإصلاحات السياسية والمالية الكبرى التي قام بها حنبعل في قرطاجة، والتي كان

يستهدف من ورائها الاعداد للحرب من جديد، لكن روما طلبت من قرطاجة تسليم حنبعل لها سنة 195 ق.م، هذا الأخير الذي أسرع بالفرار إلى الشرق محاولا إثارته على روما، وهو ما جعل روما تنتظر دائما المفاجآت ما دام حنبعل حيا على ما يذكر كورنيليوس نيبوس[50]، لكن لامبالاة وقصر نظر ملوك الشرق منع مشاريعه الكبرى من التحقيق[51]، كما عاق الشيوخ البونيقيون مشاريعه في إيطاليا من الإنجاز[52].

الهوامش

(1) مدينة موريفيدرو (Muriredro) بإسبانيا حالياً، إلى الجنوب من نهر الإيبرو، وبالتالي خارج النفوذ الروماني، على ما تقتضيه معاهدة 226 ق.م التي نصت على أن يكون نهر الإيبرو حداً فاصلاً بين مناطق النفوذ القرطاجي والروماني، انظر:
Décret (F), Carthage ou l'empire de la mer, éd. Seuil, (Paris 1977), P.184

(2) يقول بوليبيوس (40, III) أن إجراءات إعلان الحرب اتخذت بعد عودة الوفد المبعوث إلى قرطاجة.

(3) يذكر قزال اتصالات تمت بين هؤلاء وحنبعل شتاء 219-218 ق.م، أنظر:
Gsell (S.); H.A.N.N., t.3, p. 145 N° I

(4) يرجع قزال اختيار حنبعل للطريق البري إلى عدة عوامل، منها: افتقاره إلى أسطول قادر على ضمان نقل جيش ضخم كجيش حنبعل، إضافة إلى عدم توفره في إيطاليا على منطقة أو مدينة ينزل بها، وبالتالي لم يبق أمامه غير الطريق البري، أنظر:
Gsell (S.); op.cit, pp. 144-145

(6) Poybius, III, 35; Titus livius, XX, 23, 3

(7) Polybius, Loc.cit

(8) Ibid CF Gsell, op.cit p. 152

(9) الطريق التي سلكها حنبعل بعد الإيزير كانت محل جدل كبير بين المؤرخين حول مختلف الإحتمالات أنظر:
Berthelot (Ph), Annibal, dans la grande encyclopédie, T.3, pp. 71-72.

(10) يذكر تيتوس ليفيوس (XXI، 38، 5) أن حنبعل فقد عند اجتيازه الألب ستة وثلاثين ألف (36.000) رجل وعدد هائل من الخيول والحيوانات الأخرى.

(11) Polybius, III, 56, Tite Live, XXI, 38, 5.

(12) Polybius, III, 65

(13) Polybius, III, 65; Gsell, op.cit, t.2, p.403 et t.3, p. 153.

(14) حول هذا الموضوع انظر قزال، المرجع السابق، ج 2 ص 140، 153.

(15) Polybius, III, 70.

(16) حوالي أربعين ألف (40.000) جندي، عن كل طرف، مع تفوق طفيف في الفرسان لصالح القرطاجيين وتفوق مماثل في المشاة لصالح الرومان.

(17) لم ينج في هذه المعركة غير عشرة آلاف من قواته المقدرة بحوالي أربعين ألف (40.000) جندي، بينما كانت خسائر حنبعل طفيفة على ما يذكر بوليبيوس Polybius, III 74, 2

(18) يذكر بيرتيلو (Berthelot) أن صدى المعركة كان كبيرا لدرجة أن الغاليين ثاروا وانضم إلى حنبعل أزيد من ستين ألفا من المشاة وأربعة آلاف من الفرسان. انظر المرجع السابق، ص 73.

(19) Gsell (S.); op.cit, T.3, p.154.

5 ـ نفسه.

(20) Cf. Cornelius Nepos, Vie d'Hannibal, XXIII, 4).

(21) Cf. Tite Live, XXII, 7, 2; Polybius, III, 84.

(22) يذكر بوليبيوس (، 84 ـ 85) أن حنبعل أسر تسعة آلاف (9.000) في ميدان المعركة وستة آلاف (6.000) في مواقع قريبة من ميدان المعركة. بينما لم يفقد غير ألف وخمسمائة رجل، خلافا لتيتوس لفيوس (3, 7, XXII) الذي يقول أن حنبعل فقد ألفين وخمسمائة رجل.

(23) Gsell (St.), H.A.A.N, T. 2, P. 155

(24) ID., T. 3, P. 155

(25) عرف بالمتأني ((Cunetator))، لأنه كان من أنصار الحرب الطويلة، التي تنهك العدو بطول المقاومة مع تجنب الإصطدام المباشر به، فيريد أن ينهك العدو بحرمانه من المؤونة، ويناوشه مناوشات خفيفة دون أن يعرض نفسه لأخطار كبرى.

(26) Gsell (St.) op.cit., T. 3, PP. 156-157.

(27) (Gsell (St.), op.cit, T.2, P. 155

(28) ID., T.3, P. 157

(29) Combet Farnoux (B.), les guerres puniques, éd. P.U.F. (Coll. que-sais-je), Paris 1960, PP. 85-86

(30) لم يشارك في هذه المعركة من طرف الرومان عشرة آلاف مقاتل كانوا مكلفين بحراسة المعسكر، كل الباقي أهلك، وعددهم سبعين ألفاً ووقع بوليبيوس((117,113, III)) ضمنهم ألفين في المعسكر، كما أسر حنبعل 12000 أسير: 10.000 من المشاة من ضمنهم 8.000 في المعسكر.

(31) بوليبيوس، 117, III

(32) أحمد صفر، مدينة المغرب العربي في التاريخ، ص 218.

(33) انظر قزال، المرجع السابق، ج 2، ص 158. جوليان، المرجع السابق، ص 103.

(34) بوليبيوس، 118, III ، قزال، المرجع السابق، ج 2، ص 159.

(35) أنظر جوليان (شارل أندري)، المرجع السابق، ص 103.

(36) تعرضت «سرقوسة» لحصار دام عشرة أشهر. سقطت على إثرها في أيدي ماركيلوس ((Marcellus))، رغما عن جميع الوسائل التي ابتكرها ارخميدس. أنظر قزال، المرجع السابق، ج 3، ص 165.

(37) Cf. Tite Live, XXVI, 16, 13

(38) Cf. Gsell, op.cite, T.3, P. 165

(39) Gsell, op.cit., PP. 159, 163, 165

(40) Berthelot (Ph.), op.cit, P. 76

(41) أنظر جوليان (شارل أندري)، المرجع السابق، ص 104.

(42) المكان السابق. أنظر أيضا كورنيليوس نيبوس، حياة حنبعل، 5, XXIII

(43) Cf. Gsell, op.cit, PP. 168-165

(44) Cf. Gsell, op.cit, P. 170

(45) Cf. Berthelot (Ph), op.cit, P. 76

(46) Cf. Winkler (A.), Bataille de Zama 19 Oct. 202 av. J., dans B.S.G.O. T.16, 1894 PP. 17-46

(47) Cf. Polybe, XV, I4, 9; Appien, Lib. 48: 25.000 tués, 8.500 prisonniers.

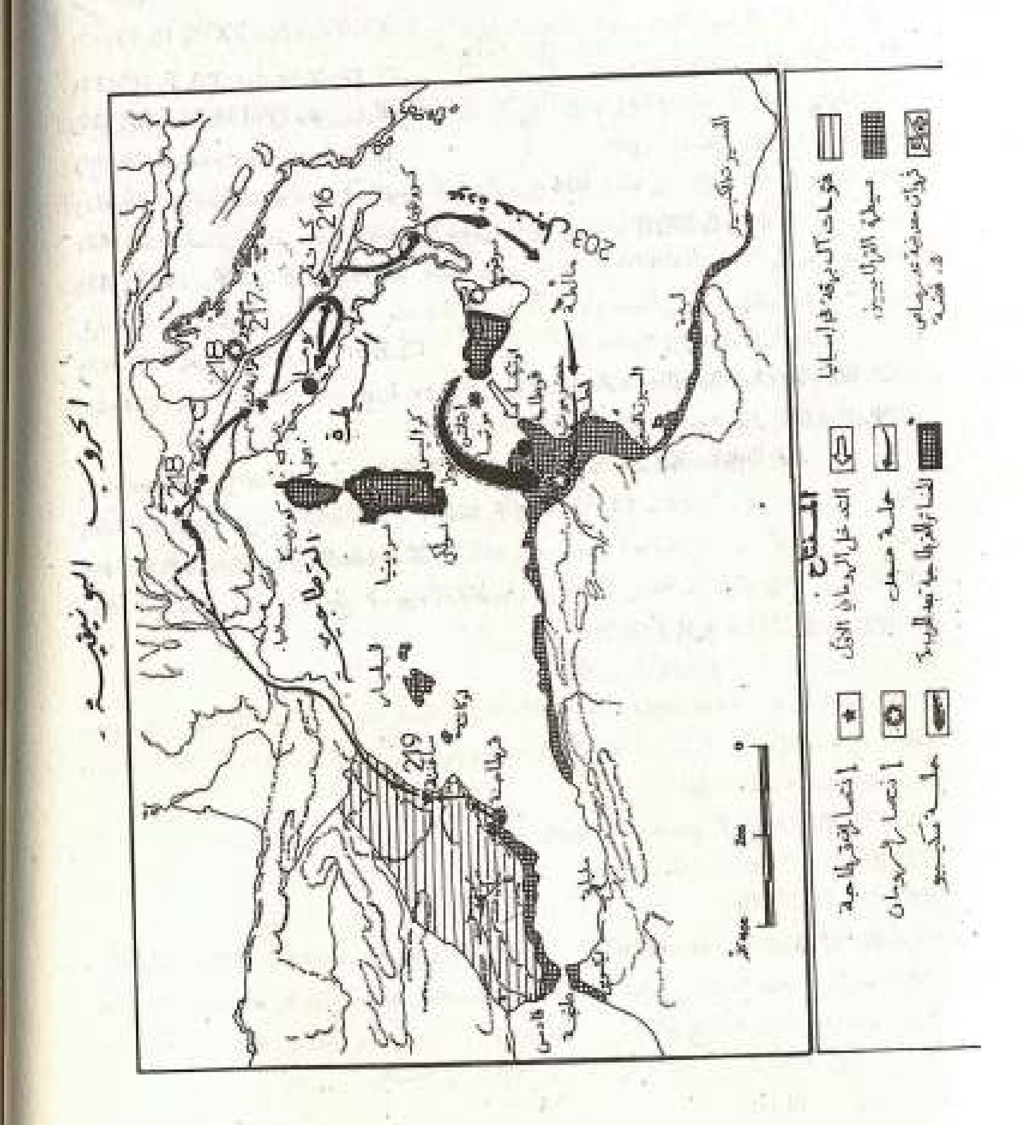
(48) كورنيليوس نيبوس، حياة حنبعل، 6-5, XXIII

(49) Cf. Berthelot (Ph.), op.cit, P. 77

(50) كورنيليوس نيبوس، المرجع السابق، 1, XXIII.

ثانيا:

التاريخ الوسيط



تلمسان من نشأتها
إلى قيام دولة بني عبد الواد

لطيفة بن عميرة

يذهب أغلب المؤرخين إلى القول إن تلمسان قديمة النشأة، ومن بينهم الإدريسي الذي يقول عنها إنها «أزلية»[1]، وأبو عبيد البكري الذي يقول إن: «فيها للأول آثارا قديمة»[2]. ويذكر الرحالة الحسن الوزان المعروف ب (Léon l'Africain)، والذي زار المنطقة في القرن السادس عشر، وسجل ماشاهده في إمارة تلمسان، أن هذه المملكة كانت تسمى في العهد الروماني قيصريّة وكانت خاضعة لسلطة الرومان.[3]

وقد اهتم الباحثون في العصر الحديث بدراسة آثارها، فتوصلوا إلى أن منطقة تلمسان عرفت استقرار الإنسان منذ عصر ما قبل التاريخ.[4]

كما عثر على مخلفات أثرية تعود إلى العصر الروماني[5] وهي عبارة عن:

ا) نقوش لاتينية: مازالت تظهر على بعض الصخور المتناثرة، التي يدل شكلها على أنها تعود إلى العصر الروماني، وأهمها: نصبين نذريين للإله أوليسفا كتبهما ضابطان في الجيش الروماني، ويحمل النصب الأول إسم صاحبه ومهنته واسم الإمبراطور الإسكندر سيفير (Alexandre sévère) (222 ـ 235م)، وقد استعملت هذه الصخرة في بناء مئذنة مسجد أجادير فيما بعد والنصب الثاني يحمل أيضا اسم ومهنة صاحبه، وهو ضابط في جيش الفرسان ومقتصد خاص بأموال الإمبراطور قورديان (Gordien) (238 ـ 244م)؛ وقد نسب الضابطان نفسيهما إلى بومارية (Pomariensiens)[6] وهذا هو المهم.

ب) وعثر على شاهدي قبرين: يحمل أحدهما اسم إمرأة بومارية والآخر اسم طفل لأحد ضباط الفرسان في الجيش الروماني عاش ثلاث سنوات وعشرة أيام[7].

جـ) عثر على نصبة أميال (8) قرب مغنية كتب عليها أن هذا الموضع، يبعد عن بومارية 29 ميلاً (أي حوالي 52 كلم) وهي المسافة التي تفصل مغنية عن تلمسان(9). ونصبة أميال أخرى في مقبرة يهودية بتلمسان سُجّل فوقها «إن الإمبراطور الإسكندر سيفر حفيد الإمبراطور سبتيم سيفر أمر الوالي الروماني – تيتوس أوليوس ديكـــريـــانوس... (Titus Aélius Décrianus) بوضع نصب أميال جديدة – جمهورية بومارية (10).

ومن خلال هذه الآثار الباقية من العهد الروماني استطاع الباحثون أن يستنتجوا بعض المعلومات التاريخية عن تلمسان منها: أن الكتابات اللاتينية تدل على الوجود الروماني، والأسماء الوارد ذكرها في النصبيين النذرين، سمحت بالتعرف على وجود رعايا رومان وجيش من الفرسان يقيم في مركز عسكري أطلقوا عليه اسم «بومارية»(11) أي البساتين.

وقد حدّدت هذه الفترة بفضل العثور على إسمي الامبراطورين: الإسكندر سيفير وجورديان، وتعود إلى القرن الثالث الميلادي، فالأول حكم بين سنتي 222 و235م، والثاني من سنة 238 إلى 244م(12). وفي هذه الفترة وصلت حدود الإمبراطورية الرومانية في شمال إفريقيا إلى تلمسان ومغنية(13). ويضيف الضابطان إلى إسميهما هذه النسبة (Pomariensiens) أي البوماريانيان مما يتبين أنهما من بومارية(14).

ويستنتج مارسي (G. Marçais) أن جنود الفرسان كانوا يقيمون في مراكز يراقبون منها السكان الذين يرفضون الخضوع لدولتهم، ويقاومونهم(15). ومن بين تلك المراكز: مركز بومارية وكان يقع في مفترق طرق عسكرية، يمر أحدها عبر ألبالاي (Albulae)، عين تموشنت اليوم)(16)، ويربطها بميناي بورتوس ديفيني (Portus Divini) (مرسى الكبير(17)، ويصلها بسيكا (Siga) (18)، وميـــنـــائها بورتـوس سيجيـنسيس (Portus sigensis) الواقع عند مصب (وادي تافنة)، وطريق آخر يمر عبر إفريقية الرومانية ويربط الشرق بالغرب قرب الحدود الجنوبية (19).

فبومارية التي تقع بين موريطانية غرباً ونوميديا شرقاً كانت في البداية معسكراً محصناً تقيم به فرق من جيش الفرسان تهتم بالحفاظ على الأمن في البلاد(20). ثم تطوّرت لتصبح أيام حكم الإسكندر سيفير جمهورية تتمتع بنظام سياسي، كما هو

واضح من خلال كتابات وجدت فوق إحدى نصب الأميال (21). وتعتبر الشواهد وبعض النقوش الأخرى التي بقيت فوق عتبة مسجد أجادير دليلاً على استقرار جنود الرومان هناك. وقد سمحت لهم السلطة بالزواج والعمل(22)، ويحدد (Mac carthy)، الذي زار تلمسان في بداية الإحتلال الفرنسي، موقع بومارية بالزاوية الشمالية الغربية من المدينة الحالية، وكانت مساحتها حوالي ستة عشر هكتاراً(23).

فبومارية إذن تطورت من معسكر صغير إلى مدينة عسكرية، وقد اختارها الرومان بسبب موقعها الإستراتيجي، فهي تشرف شمالاً على البحر وكذلك على المناطق الشرقية والغربية وجنوباً على الصحراء، فمن خلالها كان الرومان يراقبون تحركات السكان المتشرين في تلك الضواحي.

وعندما زحف الوندال على شمال إفريقيا ونزلوا بوهران(24)، مرّت إحدى فرقهم بألطافا (أولاد ميمون) على بعد ثلاثين كيلومترا من بومارية، ولا يستبعد أن يكونوا قد وصلوا إليها وخرّبوها (25) وهو ما يفسر إختفاءها بعد ذلك.

وكان سكان بومارية آنذاك وثنيين وفي الغالب يعبدون إلها يُسمى أوليسفا (26). وفي القرن الخامس الميلادي انتشرت بينهم المسيحية كما تدل على ذلك شواهد قبور عثر عليها هنا وهناك (27). ويذكر البكري أن بها «... بقية من النصارى إلى وقتنا هذا (القرن الخامس الهجري / الحادي عشر ميلادي) ولهم بها كنيسة معمورة...» (28).

وبعد إختفاء بومارية، ظهرت مكانها أجادير(29) التي يصفها إبن خلدون بـ «قاعدة المغرب الأوسط وأم بلاد زناتة» (30). ولا يبين كيف ومتى اختفت تسمية أجادير، وظهرت تسمية تلمسان في قوله وهو يتحدث عن أجادير: «... اختطها بنويفرن بما كانت في مواطنهم... ولم نقف لها على خبر أقدم من خبر ابن الرقيق بأن أبا المهاجر دينار الذي ولي إفريقية بين ولايتي عقبة بن نافع الأولى والثانية، توغل في ديار المغرب، ووصل إلى تلمسان وبه سميت عيون أبي المهاجر...» (31)

وقد أخذت تلمسان تلعب دورها في تاريخ بلاد المغرب الإسلامي منذ قيام ثورة ميسرة المطغري سنة 122هـ / 739م(32)، عندئذ وجه الوالي الأموي عبيد الله ابن الحنجاب(33) قائده أبا خالد حبيبا بن أبي عبيدة(34) من جزيرة صقلية على رأس جيش ليشارك في إخضاع ذلك الثائر الصفري بطنجة (35) لكنه عندما وصل إلى

تلمسان بلغه أن معركة الأشراف انتهت فمكث بها إلى أن التحق به الوالي الجديد كلثوم بن عياض القشيري [36] وابن أخيه بلج ثم انطلقوا منها لخوض معركة وادي سبو [37] ضد الخوارج الصفرية [38].

وتتصدر تلمسان الأحداث في عهد أبي قرّة اليفرني [39] الذي أعلن نفسه خليفة بها وتزعم الخوارج الصفرية في ثورتهم ضد عمال الخلافة العباسية بالقيروان. [40] وعندما انهزم عاد «إلى مواطنه بنواحي تلمسان...» [41].

ويذكر ابن خلدون أن إبراهيم بن الأغلب نزل بها عندما قام بحملة ضد أبي قرّة [42].
وفي رجب 173هـ / نوفمبر ديسمبر 789م، نزل إدريس بن عبد الله [43] مؤسس الدولة الإدريسية قرب المدينة «فتلقاه محمد بن خزر بن صولات أمير زناتة وتلمسان، فدخل في طاعته وحمل عليها مغراوة وبني يفرن وأمكنه من تلمسان فملكها...» [44].

وبقي بها إدريس بضعة أشهر، بنى خلالها مسجداً أمر أن يكتب على منبره: «بسم الله الرحمن الرحيم»، هذا ما أمر به الإمام إدريس بن عبد الله... وذلك في شهر صفر سنة أربع وسبعين ومائة (جوان جويلية 790م) [45]. ثمّ عاد بعد ذلك إلى عاصمته وليلي. وتذكر بعض المصادر أنه ولى على تلمسان أخاه سليمان [46]، غير أن بعضها الآخر يذكر أن هذا الأخير قتل في وقعة فخ مع الحسين [47] أو هو إلتحق بتلمسان بعد مهلك أخيه، ويمكن أن يكون إدريس قد ولى على تلمسان محمد بن خزر المغراوي [48].

ثمّ بويع إبنه إدريس الثاني يوم الجمعة 7 ربيع الأول سنة 187هـ [49] / فيفري 803م، وتوجه بدوره إلى تلمسان [50] وبقي بها ثلاث سنوات [51] وأقطعها «لمحمد ابن عمه سليمان» [52] الذي يكون نزل بها قبله [53].

وعاد إدريس الثاني إلى فاس سنة 199هـ [54] / 814 ـ 815م ومات بوليلي سنة 213هـ [55] / 828 ـ 829م.

وقد اقتسم بنو محمد بن سليمان تلمسان وما جاورها بعد وفاة أبيهم على غرار ما فعله بنو عمومتهم، الأدارسة بفاس، واستقل كل واحد منهم بمدينة أو بحصن [56]. واختلطت أسماؤهم على المؤرخين، فيذكر بعضهم أن تلمسان كانت من نصيب القاسم بن محمد بن سليمان [57]، أو هي من نصيب عيسى بن محمد بن سليمان،

المكنى بأبي العيش والأرجح أنها كانت لهذا الأخير [58]. وأهم المدن والحصون التي توارثها العلويون من بني سليمان، والتي شملتها فيما بعد، الدولة الزيانية هي: جراوة [59] وأرشقول [60] ومدينة العلويين [61] وتمطلاس [62] وترنانا [63] وحمزة [64] وتنس [65].

وقد سيطر بنو محمد بن سليمان على تلمسان وأعمالها من بداية القرن الثالث (التاسع) إلى بداية القرن الرابع (الحادي عشر) بدأوا يضعفون، وأخذ الزناتيون يسترجعون أمصارها شيئاً فشيئاً بقيادة محمد بن خزر [66]، الذي كان يشكل أكبر قوة بالمنطقة بدليل أنه تصدى وحده للفاطميين عند استيلائهم على مدينة تاهرت [67]. وكان أبو عبد الله الشيعي [68] قد تمكّن من تأسيس الدولة الفاطمية برقادة [69] سنة 297هـ / 910م على حساب الدولة الأغلبية [70]، ودولتي بني رستم في تاهرت [71] وبني مدرار بسجلماسة [72] في نفس السنة، وخلص عبيد الله المهدي [73] وإبنه أبا القاسم من السجن ثم عادوا جميعا إلى رقادة ودخلوها في 20 ربيع الآخر سنة 297هـ / ديسمبر ـ جانفي 909 ـ 910م، وتركوا على تاهرت أبا حميد دواس بن صولات اللهيصي [74] وعلى سجلماسة إبراهيم بن غالب المزاتي [75]، وقد ثار أهل سجلماسة على العامل الشيعي، وهاجم محمد بن خزر مدينة تاهرت، وهو ما لفت نظر خصمهم أمير قرطبة، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله [76] الذي بادر بإيفاد مبعوثا هو محمد بن عبد الله بن عيسى إلى محمد بن خزر ليستميله فلقي منه استجابة [77] وازداد قوة ونشاطا، فملك مناطق واسعة حول تلمسان [78]، لحساب الخلافة الفاطمية التي اتخذت منها قاعدة لإيقاف الزحف الفاطمي نحو الغرب. وتحولت تلمسان وأعمالها إلى منطقة صراع بين الخلافتين الأموية بالأندلس والفاطمية بإفريقية، استمر إلى أن رحل الخليفة المعز لدين الله الفاطمي إلى مصر 361هـ / 971م [79].

بعد ذلك أخذ أمراء مغراوة يتنافسون على السلطة بها، ولم يصف الجو لزيري ابن عطية، منهم، إلا سنة 378هـ [80] / 988 ـ 989م، وبفضل تدعيم المنصور بن أبي عامر [81] حاجب خليفة الأندلس هشام المؤيد بالله [82]، له إلا أن ذلك التدعيم لم يمنع إبن عطية من إعلان تمرده على السلطة الأندلسية التي لم يعد لوجودها بالمغرب الأوسط أي مبرر، مادام الفاطميون صرفوا عنه أنظارهم نهائيا إلى بلاد المشرق. لكن

تلك السلطة تشبثت بنفوذها في المغرب وحافظت عليه إلى أن اشتعلت نار الفتنة في الأندلس سنة 398 أو 399هـ / 1007 أو 1008م [53].

وبقيت السلطة بتلمسان بيد الأمراء المحليين، من مغراوة وبني يفرن الزناتيين، إلى أن قامت دولة المرابطين [54] واستقر يوسف بن تاشفين [55] بمراكش، وبدأ بتوسع شرقاً، فوجه حملة إلى المغرب الأوسط، قادها مزدلي تبلكان، فهزم القائد يعلى بن أمير تلمسان بختي [56]، وعاد مزدلي دون أن يستولي على عاصمته، وبعد ثلاث سنوات قاد يوسف بنفسه، حملة كبيرة نحو الشرق، فهاجم مغراوة ثانية في تلمسان، وقتل أميرها العباس بن بختي واستولى على المدينة، وواصل طريقه، ففتح وهران وتنس والونشريس والجزائر وعاد إلى مراكش سنة 475هـ [57] / 1078 ـ 1079م، وترك محمد بن تينعمر المسوفي قائد الجيوش بتلمسان، فبنى بها محلة (أي معسكراً) سماها تاكرارت [58]، أصبحت ثغرا من ثغور المرابطين في المغرب الأوسط [59] يشنون منه الغارات على أراضي الدولة الحمادية [60]، وبقيت تابعة لهم إلى أن استولت عليها قوات الموحدين بقيادة عبد المؤمن [61] (524 ـ 558هـ / 1130 ـ 1163م) واستمرت تحت سلطتهم إلى ما بعد انهزامهم في موقعة العقاب بالأندلس سنة 609هـ [62] / 1212م وعندئذ بدأ التفكك يسري في جسم دولتهم وزاد في ضعفها سوء العلاقة بين الأمراء وشيوخ القبائل ونتج عن ذلك استقلال الحفصيين، بإفريقية ثمّ استقلال بني عبد الواد بتلمسان.

فدينة تلمسان تقع بين الصحراء والتل، وتشرف على البحر الأبيض المتوسط، وهي وسط بين المغرب الأدنى والمغرب الأقصى، وقد استقر الإنسان بها منذ عصور قديمة، ثم نزلها الرومان، فأنشأوا بومارية، وهي مركز لجيش الفرسان يحمي خطوط الليمس.

وفي العهد الإسلامي حلّت محلها أجادير، وكان لها دور بارز في الأحداث التي جرت في المنطقة، ولما قدم إليها إدريس الأول، بنى بها مسجداً، وأصبحت تابعة لفاس، عاصمة الأدارسة، واستقل بها بنو عمومتهم السليمانيون، ثم أصبحت محل صراع بين الفاطميين بإفريقية وأنصار الأمويين بالأندلس، وعندما زحف المرابطون على المغرب الأوسط، أمر يوسف بن تاشفين أميرهم ببناء تاجرارت قرب أجادير، فأصبحت تابعة لمراكش، وتطوّر بها العمران والعلوم والتجارة.

وكانت تلمسان من المدن التي استفادت من الزحف الهلالي على المغرب الأدنى، وذلك باستقطابها طرق التجارة بين الشمال والجنوب والشرق والغرب. ثم فتحها الموحدون وأقطعوا بني عبد الواد المناطق المجاورة لها، بين البطحاء وملوية، مقابل الولاء لهم. وعندما ضعفت سلطة الموحدين استقل بنو عبد الواد واختاروا تلمسان عاصمة لهم.

الهوامش:

(1) الشريف الإدريسي، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية (من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) نشره هنري بيريس، الجزائر، 1957، ص 54؛ ويلاحظ هنا أن عبد الرحمن بن خلدون ينفي أزلية تلمسان، فهو يربطها بأسطورة شعبية، انتشرت آنذاك في المدينة، وملخصها أن السكان يجعلون جدارا قديما في ناحية من أجادير (الحي القديم) هو نفسه الجدار الذي ورد ذكره في القرآن، والذي التقى عنده الخضر وموسى عليهما السلام (العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، طبعة مكتبة المدرسة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1959 و 1968، مجلد 7، ص 156 ـ 157؛ ويورد أبو زكرياء يحي ابن خلدون هذه القصة وقصصا أخرى تشبهها (عنها، أنظر: بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، تحقيق عبد الحميد حاجيات، الجزائر، 1980، جـ 1، ص 90 ـ 91)

(2) أبو عبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (جزء من كتاب المسالك والممالك)، الجزائر، 1857م ص 76.

(3) Léon l'Africain: Description de l'Afrique Nouvelle, Ed. traduite de l'Italien par A. Epaulard, PAris VI, 1956, P. 323.

(4) Bel (Alfred): Tlemcen et ses environs, Toulouse, P. 4.
Marçais (Georges): Encyclopédie de l'Islam, Art. Tlemcen, P. 844.

(5) عن هذه الآثار أنظر: Piesse L. et Canal J., Tlemcen (Extrait de la revue de l'Afrique française), Paris, 1889, P. 6Sq.; Bel (A.), op.cit, P.8; Marçais (G.): Tlemcen, Paris, 1950, P.9; Thery, Tlemcen, évocation de son passé, Oran, 1945, P.22.

(6) أنظر: Piesse C. et Canal J., op.Cit; Bel (A): op.cit; Marçais (G): op.cit:

(7) أنظر: Piesse C. et Canal J., op.cit

(8) من عادة الرومان تقسيم طرق المواصلات إلى أجزاء متساوية يحددونها بنصب أميال، (أنظر: (Thery, op.cit,

(9) أنظر: Piesse et Canal, op.cit.

(10) op.cit.

(11) أنظر: Bel (A.): op.cit; Marçais (G.): op.cit

(12) أنظر: op.cit

(13) أنظر: Thery: op.cit, P.21; Marçais (G.): op.cit

(14) أنظر: Piesse et Canal: op.cit, P.8; Marçais: op.cit

(15) on.cit

(16) أنظر: دقلي (و.)، جدول التسميات الموضعية للإعانة على الدراسات والأبحاث الأثرية في المغرب العربي، مجلة تاريخ وحضارة المغرب، كلية الآداب، جامعة الجزائر، يناير، 1970، رقم 8، ص 46).

(17) أنظر Marçais (G.): op.cit دقلي (ع)، المقال السابق ص 58.

(18) مدينة بموريطانيا القيصرية تقع على البحر الأبيض المتوسط، كانت عاصمة Syphax ، ثم استعمرها الرومان وحلت محلها في العصر الإسلامي مدينة أرشقول، عنها أنظر: Dezobry et Bachelet

Dictionnaire de biographie et d'histoire, I. II, P. 2638

(19) أنظر: Marçais (G.): op.cit

(20) أنظر: Piessse et Canal : op.cit

(21) عنها أنظر: Op.cit

(22) عثر على شاهد قبر يحمل اسم امرأة ماتت في بومارية، كما دفن بها طفل لأحد الضباط (أنظر ما قبل ص 5

(23) أنظر: Piesse et Canal: op.cit

(24) فعلوا ذلك تلبية لنداء حاكم إفريقية الروماني بونيفاس Boniface فاحتلوا الموريطانيتين الطنجية والقيصرية وخربوهما سنة 429م ثم استولوا على عنابة Hippone رغم أنف Boniface 431م، وقد اضطر فالنتيان Valentien III إلى عقد معاهدة معهم سنة 435م تنازل لهم بموجبها عن الموريطانيتين ونوميديا لكنهم سرعان ما نقضوا تلك المعاهدة واستولوا على قرطاج 439م وكل افريقية الرومانية التي بقيت تحت سيطرتهم إلى أن تغلب عليهم Bélissaire قائد الإمبراطور Justinien سنة 533م

Dezobry et Bachelet: op.cit; T.II, PP. 2859-90

(25) أنظر: Marçais (G.) : op.cit, P. 10

(26) لقد ورد ذكر الإله أوليسفا في النصين النذريين، (أنظر: ماقبل ص 4).

(27) L'Abbe J. Barges, Tlemcen ancienne capitale du royaume de ce nom, Paris, 1859, P.111 Sq

(28) المغرب، ص 76.

(29) ابن خلدون أبو زكريا يحيى، بغية الرواد، جـ 1، ص 91، وأجادير عند البربر هو حصن بداخله بحرات تملكها مختلف عائلات القبيلة لخزن الحبوب، كما تلجأ إليها في حالة انعدام الأمن.

E.I., Art. Aghadir T. I, nouvelle édition, P. 252

(30) ابن خلدون عبد الرحمن، العبر، جـ 7، ص 156.

(31) نفسه.

(32) هو ميسرة المدغري رئيس الصفرية (ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تاريخ افريقية والمغرب من الفتح إلى القرن الرابع الهجري، تحقيق ومراجعة بن كولان وإليفي بروفنسال، بيروت، 1948، الجزء الأول، ص 59)؛ عن نشاطه (أنظر: لقبال موسى، المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القرن

حتى انتهاء ثورات الخوارج، سياسة ونظم، الجزائر، 1981، ص 157 فما بعدها، بن عميرة محمد، دور زناتة في الحركات المذهبية بالمغرب الإسلامي (122هـ ـ 440هـ / 739 ـ 1049م) ص 56 فما بعدها.

(33) هو عبيد الله بن الحبحاب بن الحارث، مولى بني سلول، كان كاتبا ثمّ أصبح عامل خراج مصر، وبعد ذلك عينه الخليفة هشام واليا على افريقية فقدم إليها في ربيع الآخر سنة 116هـ (البيان، 1، 51؛ لقبال موسى، المرجع السابق، ص 106.

(34) أبو خالد حبيب بن أبي عبيدة ويسميه ابن عذاري حبيب بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع الفهري (البيان، جـ 1، ص 51).

(35) طنجة هي: «كورة طنجة فهي مساكن صنهاجة وطريق الساحل من مدينة سبتة»، (المغرب، ص 104).

(36) معركة الأشراف: دارت قرب طنجة سنة 122هـ / 739م، بين خالد بن حميد الزناتي ـ زعيم الصفرية بعد ميسرة المدغري ـ وبين خالد بن حبيب بن أبي عبيدة قائد عرب القيروان الذي قتل مع عدد كبير من أعيان العرب وأشرافهم. فسميت لذلك معركة الأشراف، (ابن عذاري، المصدر السابق، ص 107؛ بن عميرة محمد، المرجع السابق، ص 72 فما بعدها.

(37) عنها أنظر: ابن عذاري، المصدر السابق، جـ 1، ص 55.

(38) الصفرية هم أتباع ابن الأصفر، وهم من الخوارج، يختلفون عن الإباضية في حكمهم على القعدة عن القتال فلا يكفرونهم (أنظر التفاصيل عند الشهرستاني (محمد بن عبد الكريم)؛ الملل والنحل، تحقيق كورتن، لندن 1842. جـ 1، ص 102؛ البغدادي، الفرق بين الفرق وبيان الفرق الناجية منهم، تحقيق محمد زاهد بن الحسين الكوثري، 1948، ص 61؛ الطبري، تاريخ الأمم والملوك، القاهرة 1939، حـ 4، ص 358؛ ابن خلدون، العبر، جـ 3، بيروت، ص 311).

(39) هو زعيم الصفرية ورئيس مغيلة وبني يفرن في المغرب الأوسط، بايعه الصفرية بالخلافة في نواحي تلمسان سنة 148هـ / 765 ـ 766م (العبر، 6، ص 225 ـ 226).

(40) حول نشاط أبي قرة (أنظر: لقبال موسى، المرجع السابق، ص 161؛ بن عميرة محمد، المرجع السابق، ص 68 فما بعدها)

(41) العبر، 7، 156.

(42) لكن ابن عذاري يقول بأنه عاد من الزاب ولم يصل إلى تلمسان لأن الجند السائر معه علم بفرار أبي قرة فقرر العودة (البيان، 1، 74؛ العبر، 7، 156؛ وإبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال الذي تولى المغرب للعباسيين من 184هـ إلى 196هـ / 800 ـ 812م، هو مؤسس الإمارة الأغلبية بإفريقية

E.I. Art. Ibrahim 1er b. AL Aghlab, T.III Nelle éd. P. 1006

(43) هو إدريس بن عبد الله بن حسن بن علي بن أبي طالب (المغرب، ص 118)، أو هو إدريس بن عبد الله ابن حسين بن الحسن بن علي (البيان، 1، ص 82)؛ الزركلي، الأعلام، 3، 188)، غادر المشرق إثر هزيمة الشيعة في معركة فخ أمام العباسيين في ذي الحجة 169هـ / جوان ـ جويلية 786م، ولحق بمصر مع مولاه راشد ومنها توجها إلى بلاد المغرب، فنزلا بوليلي ومن هناك بدأ إدريس يستميل القبائل حتى بايعوه يوم الجمعة 4 رمضان سنة 172هـ / فيفري ـ مارس 789م (البيان، 1، 83؛ العبر، 4، ص 13؛) أبو عبد الله التنسي، تاريخ دولة الأدارسة (من نظم الدر والعقيان) تحقيق وتقديم عبد الحميد حاجيات، الجزائر، 1984، ص 34 ـ 35.

(44) وقد يكون محمد بن خزر هذا هو الذي قضى على إمارة أبي قرة فتغلّب على تلمسان (العبر، 7، 157، جـ 2، 35 (ط. دوسلان).

(45) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تصحيح وطبع كامل يوحنا، أو بسالة، 1948، ص. 7 و8، ويعتقد Bargès أن هذا المسجد هو الأول الذي أنشيء في تلمسان (المرجع السابق ص. 169)

(46) ابن عذاري، البيان، 1، ص 83، ابن خلدون، العبر، 2، ص 34 (ط. دوسلام) ابن أبي زرع، القرطاس، ص.4.

(47) ابن الأبار، الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، 1963، جـ 1

(48) العبر، 4، ص 34 (ط. بيروت)؛ ويذكر في مكان آخر أن إدريس «سجل له (أي لسليمان) بولاية تلمسان»، العبر، 2، ص. 34 (ط. دو سلان) عن هذا الموضوع أنظر، بن عميرة، المرجع السابق، ص. 146 فما بعدها.

(49) يذكر التنسي أن محمد بن خزر خرج إلى إدريس «مبايعا ومطيعا فأمنه وأبقاه أميرا على تلمسان...»، (تاريخ دولة الأدارسة، ص 35).

(50) ترك إدريس الأول جاريته كنزة حاملا، فوضعت في ربيع سنة 175هـ / أوت ـ سبتمبر 791م، ولداً سمي بإسم أبيه، كفله راشد مولى والده، ثم خلفه أبو خالد يزيد بن الياس باسم أبيه إلى أن بويع إدريس الثاني يوم الجمعة 7 ربيع الأول سنة 187هـ / فبراير 803 م. وكان قد بلغ من العمر إحدى عشر سنة (المغرب، ص 22، الحلة السيراء، 1، ص 53؛ أعمال الأعلام، 3، 196 ـ 197؛ القرطاس، ص 11 ـ 12؛ التنسي، تاريخ دولة الأدارسة ص 38).

(51) يبقى تاريخ غزوة إدريس الثاني لتلمسان غير مضبوط، ربما كانت قبل غزوة المصامدة التي قام بها في المحرم من سنة 197هـ / سبتمبر ـ أكتوبر 812م (البيان، 1، 211)، أو تكون تمت بعدها (المغرب، 123، الحلة السيراء، 1، 53 ـ 54، العبر، 4، 26 (ط. بيروت)؛ أو في محرم سنة 199هـ (القرطاس، 29) ويتعرض لها التنسي لكنه لا يحدد تاريخها (المصدر السابق، ص 40).

(52) العبر، 4، 27 (ط. بيروت).

(53) نفسه، جـ 2، ص 35 (ط. بيروت)؛ لكنه في مكان آخر عند حديثه عن مدينة تلمسان يقول إن «إدريس عقد لبني محمد بن عمه سليمان» (العبر، 7، 157)

(54) المغرب، ص 77؛ ويذكر أيضا أن سليمان دخل المغرب ونزل تلمسان لكنه لا يحدد تاريخ ذلك، ص 122.

(55) المغرب، ص 23.

(56) هناك اختلاف في سبب موت إدريس الثاني، ربما يكون غص بحبه عنب فمات (المغرب)، ص 123، أعمال الأعلام، 3، 203)؛ أو لعل حبة العنب هذه كانت مسمومة ويكون لزيادة الله بن الأغلب يد في ذلك (الحلة السيراء، جـ 1، ص 53)؛ أو توفي مسموما بطريقة غير محددة (البيان، 1، 211)

(57) العبر، 4، ص 34 (ط. بيروت).

(58) أو هو محمد بن القاسم بن محمد بن سليمان (اليعقوبي، البلدان، ليدي 1861، ص 356)، أو هو محمد بن أحمد بن القاسم بن أحمد (العبر، 4، 35 دوسلام).

(59) هو عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان، وقد جاء في حديث ابن خلدون عن تلمسان أنها كانت في «سهمان، عيسى بن إدريس بن محمد بن سليمان وأعمالها لبني محمد أبيه...» (العبر 7، 157). ويتفق معه البكري حيث يقول: «وكان لأبي العيش ومن خلفه مدينة تلمسان أيضا وما والاها...» (المغرب، 112)؛ بينما يقول قبل هذا أن عيسى بن محمد بن سليمان نزل بأرشقول ووليها وتوفي فيها سنة خمس وتسعين وما يتين...» (ص 78)؛ ويورد ابن عذاري قولين الأول ويبدو أنه نقله عن البكري: «وكان لأبي العيش أيضا وبنيه مدينة تلمسان وما والاها...» (البيان، 1، 20)، وفي الثاني أن أبا العيش هو الذي أسس مدينة جراوة سنة 257هـ، ووليها بعده إبنه الحسن بن أبي العيش (ص 196).

(60) جراوة: مدينة سهلية، أسسها أبو العيش، وبنى الحسن ابن أبي العيش حصنا على بعد أربعة أميال من المدينة بجبل ممالو الذي يمتد قبليها، وهي تبعد عن تلمسان بمرحلتين (المغرب، 142 ـ 143، البيان، 1، 196)

(61) أرشقول: تقع على ساحل تلمسان، حكمها بعد أبي العيش إبنه إبراهيم الأرشقولي (المغرب، 77 ـ 78).

(62) العلويين: يذكر الإدريسي قرية العلويين على مرحلة من تلمسان في طريق فاس (وصف إفريقيا الشمالية ص 54)، ويذكرها البكري قرب وهران (المغرب، 71).

(63) مُطلاس: قرية كبيرة تمتد في مضارب مطاطة ويقربها مدينتان: الحسنة وفالوس (أنظر: لقبال موسى، دور كتامة، في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن الخامس الهجري (الحادي عشر ميلادي، الجزائر، 1979، ص 211).

(64) ترنانا: تقع على مرحلة من جراوة وهي قلعة عليها حصن (الادريسي، المصدر السابق، ص 54)، وهي مركز علوي تابع لبني محمد بن سليمان (البكري المغرب، ص 80).

(65) حمزة: تسمى حمزة أو سوق حمزة، وتقع بين أشير ومرسى الدجاج، وتنسب إلى حمزة بن الحس لأنه هو الذي أسسها (البكري المصدر السابق، ص 64 ـ 65).

(66) تنس: تتكون من حصن على البحروتسمى تنس القديمة، ومدينة حديثة تبعد عن الأولى بميلين (حوالي ثلاث كيلومترات)، أسسها بحارة من أهل الأندلس سنة 262هـ / 875 ـ 876م (عن وصفها أنظر: البكري، المصدر السابق، ص 61 فما بعدها).

(67) العبر، 7، 52 ـ 53.

(68) تتكون من مدينتين الأولى قديمة، والثانية «... أسسها عبد الرحمن بن رستم بن بهرام، وكان مولى لعثمان ابن عفان (رضه)، وكان خليفة لأبي الخطاب أيام تغلبه على إفريقية، ولما دخل ابن الأشعث القيروان، فرّ عبد الرحمن إلى الغرب... فاجتمعت إليه الإباضية وعزموا على بنيان مدينة تجمعهم، فنزلوا بموضع تيهرت وهي... بين ثلاثة أنهار... وذلك سنة 161هـ ...» (ابن عذاري، البيان، 1، ص 196؛ البكري، المغرب، 67 فما بعدها، الإدريسي، وصف...، ص 60).

(69) هو الحسين بن أحمد بن محمد بن زكرياء (القاضي النعمان، رسالة إفتتاح الدعوة، تحقيق ودار القاضي، بيروت، 1970، ص 59 فما بعدها)، وينسبه إبن عذاري إلى صنعاء فيسميه الصنعاني ـ (البيان 1، 124)؛ وجاء في معظم المصادر أن أبا عبد الله كان محتسبا في سوق الغزل بالبصرة، وكان يسمى المعلّم لأنه كان يعلم الناس مذهب الإمامية الباطنية أو لأنه كان يعلم الصبيان (العبر، 4، 32)؛ إبن حماد، تاريخ بني عبيد، ص

(70) وهو الذي قام بالدعوة الإسماعيلية في كتامة ببلاد المغرب وأسس الدولة الفاطمية بها، (رسالة إفتتاح الدعوة، ص 59 ـ 60؛ أنظر التفاصيل عند: لقبال موسى، كتامة، ص 231 فما بعدها).

(71) رقادة: تقع رقادة على بعد حوالي أربعة أميال من القيروان، أسسها إبراهيم بن أحمد الأغلبي سنة 263هـ، وانتقل إليها من القصر القديم وأصبحت دار ملك بني الأغلب حتى دخلها أبو عبيد الله الشيعي، وسكنها عبيد الله ثم انتقل منها إلى المهدية، فأصابها الخراب (المغرب، ص 27؛ وصف إفريقيا الشمالية، ص 78 ـ 179! الحلة السيراء، جـ 1، 172).

(72) كان يحكم الدولة الأغلبية أبو مضر زيادة الله بن عبد الله بن إبراهيم الأغلبي، انتقل إلى مدينة الأربس سنة 295هـ، أمام ضغط أبي عبد الله الشيعي، ومن هناك حاول استرجاع بعض المناطق، لكنه انهزم أمام الجيوش الشيعية، فدخل أبو عبد الله الأربس في جمادى الآخرة سنة 296هـ، وفرّ زيادة الله إلى المشرق، ثم تقدم الشيعي إلى رقادة فدخلها في رجب 296هـ، وهكذا انتهت الإمارة الأغلبية (العبر، 4، 72 فما بعدها، و439 فما بعدها).

(73) ابن عذاري، البيان، 1، 153؛ لقبال موسى، كتامة، ص 340 فما بعدها.

(74) البيان، 1، 153؛ العبر، 4، 72 فما بعدها.

(75) هو «عبيد الله بن محمد بن الحسين بن محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن أبي طالب» (ابن حماد، تاريخ ملوك بني عبيد، ص6) وهو عبيد الله المهدي بن محمد الحبيب بن جعفر الصادق بن محمد المكتوم ابن جعفر الصادق بن إسماعيل الإمام (العبر، 4، ص 64 و70)، طلبه العباسيون فخرج من سلمية بالشام إلى العراق ثم لحق بمصر ومعه إبنه أبو القاسم وخرج من الإسكندرية في زي التجار إلى طرابلس، ثم إلى سجلماسة فحبسه عاملها إلى أن أخرجه أبو عبد الله من سجنه وأدخله رقادة (العبر، 4، 75)؛ وسلم عليه بالإمامة في ربيع الآخر سنة 297هـ وملك إفريقية كلها والمغرب بأسره وطرابلس وجربة وصقلية، (تاريخ ملوك بني عبيد ص 9 و 11).

(76) أنظر، لقبال، كتامة، ص 345.

(77) البيان، 1، 154؛ أو هو إبراهيم بن غالب المزاسي (الأعلام، 3، 77).

(78) هو عبد الرحمن الثالث بن محمد بن عبد الله أول خلفاء الأندلس (300 ـ 350هـ / 912 ـ 961م)
Levi Provençal (E): E.I., T.1, art. Abd. Al Rahmane III, nouvelle édition, PP. 85-86

(79) البيان، 1، 194؛ العبر، 2، 34 (ط. دو سلان)

(80) بغية الرواد، 1، 169؛ البيان، 1، 1945.

(81) عن هذا الصراع، أنظر: ابن خلدون، العبر، 6، 275 ـ 276 وهنا وهناك؛ لقبال موسى، كتامة، ص 357 فما بعدها من عدة صفحات، بن عميرة محمد، دور زناتة، ص 159 فما بعدها من عدة صفحات.

(82) العبر، 6، 275 (ط، بيروت).

(83) ابن خلدون، العبر، 2، ص 41 ـ 42 وهنا وهناك؛ بن عميرة محمد، المرجع السابق ص 258 ـ 259؛ عن المنصور بن أبي عامر، أنظر: ابن حيان القرطبي، المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، بيروت 1965، ص 169 ـ 170؛ الحلة السيراء، 1، 268؛ بن عميرة، المرجع السابق، ص 249، هامش 7.

(84) هو هشام الثاني ـ المؤيد بالله بن الحكم الثاني، تولى الخلافة بعد أبيه في صفر سنة 366هـ /أكتوبر 976م، وهو في العاشرة من عمره، مات في ظروف غامضة بعد قيام الفتنة بالأندلس سنة 403هـ / 1013م أو سنة 451هـ /1059م
Dunlop (D.M.): E.I., T.III, Art. Hicham II) Nelle éd., PP. 512-513

(85) عن النفوذ الأندلسي بالمغرب، منذ تمرد زيري بن عطية على المنصور بن أبي عامر إلى قيام الفتنة بالأندلس (أنظر: بن عميرة محمد، المرجع السابق، ص 259 فما بعدها من عدة صفحات).

(86) العبر، 7، ص 73 ـ 93 (بيروت)، أنظر: بن عميرة محمد، المرجع السابق، ص 277 فما بعدها عن قيام دولة المرابطين، أنظر: ابن أبي دينار (القيرواني)، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تحقيق وتعليق محمد شمام، تونس 1387هـ / 1967م، ص 105 فما بعدها؛ ابن أبي زرع (الفاسي)، القرطاس، ص 84 ـ 85؛ إبن خلدون العبر، 6، ص 377 (بيروت):

(87) عنه أنظر: ابن خلدون، العبر، جـ 6، ص 377؛ عنان (عبد الله)، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الأول، عصر المرابطين، القاهرة 1964، ص 36 فما بعدها.

(88) العبر، 6، ص 380 ـ 381 (ط. بيروت).

(89) نفسه، ص 381: يتحدث ابن عذاري عن حملة واحدة قادها مزدلي سنة 368هـ / 978 ـ 979م، ودخل تلمسان سلما. لأنه حمل من يوسف بن تاشفين كتابا عرض فيه الأمان للعباس أمير تلمسان مقابل تسليمها للمرابطين. فاستجاب العباس، وتوجه إلى مراكش وولى عليها مزدلي إبنه يحي (البيان، 4، ص69).

(90) هي تلمسان القديمة أو اخي القديم بتلمسان (العبر، 7، 95)؛ ويكتبها يحي بن خلدون تاجرارت، بناها ملك لمتونة يوسف بن تاشفين في حدود اثنين وستين وأربعمائة هجرية (1132 ـ 1133م)، بمكان محلته، ولذلك سميت تاجرارت فهو إسم المحلة بلسان زناتة (بغية الرواد، جـ 1، ص 91)

(91) ابن خلدون، العبر، 6، ص 380 (بيروت).

(92) عنها أنظر: العبر، 6، 324؛ بورويبة (رشيد)، الدولة الحمادية، تاريخها وحضارتها: الجزائر، 1977، ص 9؛
Idriss (H.R.): E.I , T.III, Art. Hammadides P.139

(93) هو أبو محمد عبد المؤمن بن علي الكومي، خليفة المهدي بن تومرت في رئاسة حركة التوحيد الإصلاحية المعروفة باسم الحركة الموحدية، وهو مؤسس الأسرة المنسوبة إليه
Levi Provençal (E.): E.I., T.1, Art. Abd. Al-Mumin b. Ali Nelle éd. PP. 80 Sq

(94) وقعت هذه المعركة بين جيش الموحدين بقيادة الخليفة الناصر وجيش النصارى بقيادة كل من ألفونسو الثاني ـ ملك قشتالة وسانشو ملك نافار وبيدرو الثالث ملك أراغونه، ويعرف إسمها عند النصارى بموقعة هضاب أو عقاب تولوشا أو موقعة أبدة وعند المسلمين بموقعة العقاب لوقوعها بين الربى والتلال. وقد وقعت عند سفح جبل الشارات الجنوبي شمال غرب مدينة أبدة (عنان، المرجع السابق، ص 310 فما بعدها).

(95) نسبة إلى جدهم الشيخ أبي حفص عمر بن يحي الهنتاتي، رفيق المهدي بن تومرت، استقلوا عن الدولة الموحدية وأسسوا إمارة بالمغرب الأدنى استمرت من 627 إلى 982هـ / 1229 إلى 1574م
Idriss (H.R.): E?I?, T.III, Art. Hafsides Nelle éd. PP. 86 Sq

ثالثا:

التاريخ الحديث والمعاصر

معركة نافرين 1827

د. ناصر الدين سعيدوني

من المعارك البحرية المهمة بالبحر المتوسط والتي كان فيها للجزائر مساهمة مباشرة واشتراك فعلي، ولو بعدد قليل من السفن والجنود، معركة نافرين (1827) ذات النتائج البالغة الخطورة على تطور الأحداث بمنطقة البحر المتوسط عامة والأقطار العثمانية ومنها الجزائر خاصة.

وهذا ما يتضح لنا من خلال استعراض الظروف الدولية التي تسببت فيها والأحداث الحربية التي تميزت بها، والنتائج العسكرية التي أسفرت عنها لمنع محاولة إظهار دور الجزائر في هذه المعركة وما أنجر عنه من تأثير على القوة البحرية الجزائرية في الربع الأول من القرن التاسع عشر.

أ ـ الظروف الدولية: تندرج الأحداث التي أدت إلى معركة نافرين ضمن حلقة الصراع بين الدولة العثمانية التي كانت تتحكم في البلقان وتسيطر على شرق المتوسط وتتعاون مع أيالات الشمال الافريقي من جهة وبين الدول الأوروبية وفي مقدمتها الدول الرئيسية آنذاك وهي بريطانيا وفرنسا وروسيا والنمسا من جهة أخرى.

وقد زادت حدة هذا الصراع بين عالمي الإسلام (العثماني) والمسيحية (الأوروبي) مع ضعف الدولة العثمانية وتقهقرها العسكري وانكماشها الإقتصادي وجمودها الإجتماعي وركودها الثقافي، وفي وقت تعاظمت فيه قوة الدول الأوروبية المندفعة بطموح سياسي وروح عسكرية وذلك بفعل التطور الإقتصادي والحيوية الإجتماعية والرقي الثقافي الذي أحرزت عليه في نهضتها المعاصرة.

هذا وبازدياد الضغط الروسي والنمساوي بالبلقان على الممتلكات العثمانية وتحول

الإمتيازات الفرنسية والإنكليزية مع ضعف الدولة العثمانية إلى حقوق تاريخية مكتسبة في الممتلكات العثمانية أصبح مصير الباب العالي أو الدولة العالية يندرج ضمن مشاريع تصفية التركة العثمانية بالبلقان وحوض البحر المتوسط التي عرفت على الصعيد السياسي بالمسألة الشرقية والتي كانت معركة نافرين إحدى حلقاتها الرئيسية أو فصولها المأساوية، فروسيا القيصرية كانت منذ عهد بطرس الأكبر (1682 ـ 1725) وكاترين الثانية (1762 ـ 1796) مدفوعة بأطماع توسعية وحوافز تاريخية ودوافع حضارية نحو المضايق «البسفور والدردانيل» واستانبول «بيزنطة القديمة»، وقد بدأت تثير بالفعل المتاعب للسلاطين العثمانيين بين رعاياهم من المسيحيين بالبلقان ومع الوقت بدأت تحقق مكاسب ترابية على حساب الدولة العثمانية وذلك منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي.

هذا وقد نتج عن هذه السياسة التوسعية الروسية إزاء الدولة العثمانية أثناء القرن الثامن عشر والربع الأول من القرن التاسع عشر إندلاع ثلاثة حروب متلاحقة انتهت جميعها بإلحاق الهزيمة بالجيوش العثمانية التي لم تلبث أن تراجعت أمام الزحف الروسي المتواصل نحو المياه الدافئة والمعزز بتقنيات وأسلحة وأساليب حربية مقتبسة من الدول الأوروبية الغربية.

فالحرب الأولى (1768 ـ 1774) انتهت بتوقيع معاهدة كوتشوك قناجي (Kutchuk kaïnardji) في 22 جويلية 1774 والتي أسفرت عن توسيع النفوذ الروسي على سواحل البحر الأسود وباقليم القوقاز، ممّا مكن كاترين الثانية من ضم اجزاء من إقليم القرم ومقاطعة كوبان شرق البحر الأسود، ولقرار حق ابحار سفنها الحربية عبر المضايق، وتأكيد حمايتها للارثذكس في الولايات العثمانية.

والحرب الثانية (1788 ـ 1792) أدّت إلى فرض صلح ياسي (Jassy) الذي سمح لكاترين الثانية بتوسيع ممتلكاتها على سواحل البحر الأسود، وبذلك فقدت الدولة العثمانية حقوقها التاريخية في شبه جزيرة القرم.

أمّا الحرب الثالثة (1827 ـ 1829) التي تندرج ضمن أحداثها معركة نافرين، موضوع هذا البحث، فإنها أدّت بدورها إلى توقيع معاهدة أدرنة الشهيرة

(Andrinople) في 14 سبتمبر 1829 وكرست نهائيا انحسار نفوذ الدولة العثمانية بالقوقاز ومصبات نهر الداتوب وبلاد اليونان، وضمنت لروسيا حركة الملاحة لسفنها التجارية عبر مضيقي البسفور والدردانيل.

وقد كان الدافع إلى كل هذه الحروب سعي روسيا لتحقيق أطماعها التوسعية على حساب الدولة العثمانية تحت ستار التضامن الأخوي المسيحي ضد العدو التركي ومناصرة الشعوب البلقانية التي تشترك مع روسيا في الجامعة السلافية، ولتحقيق ذلك حرصت روسيا على عدم التقيد في المؤتمرات الدولية (مثل مؤتمر فيينا 1815) بأي سياسة محددة لا سيما فيما يتعلق بمصير المضائق وذلك حتى يمكن لها تحقيق أهدافها في معزل عن التنافس الدولي الذي قد يعرقل تحقيق مشارعها للوصول إلى مياه المتوسط الدافئة، وقد أدّى ذلك فيما بعد إلى اشتراك انجلترا وفرنسا بجانب الدولة العثمانية في حرب القرم (1853 ـ 1856) التي وضعت مؤقتاً حداً للأطماع الروسية فيما تبقى من أملاك الدولة العثمانية.

أمّا فرنسا التي كانت تعصف بها ذكريات تاريخية تعود إلى فترة الحروب الصليبية وتدفعها امتيازات اقتصادية وثقافية في الشرق اكتسبتها منذ عهد فرانسوا الأول وسليمان القانوني (1535)، فقد خص العثمانيون آنذاك فرانسوا الأول دون غيره من الملوك الأوربيين بلقب الباديشاه أو الإمبراطور الأعظم وأعطوا لممثله (القنصل الفرنسي) حق حماية الكاثوليك بالشرق وخولوا له امتيازات تجارية وقضائية، ممّا اضطر الدول الأوروبية الأخرى في تلك الفترة إلى رفع العلم الفرنسي فوق سفنها في المياه العثمانية.

كما أن مكانة فرنسا لم تلبث أن تعززت بفعل أطماع نابليون التي لفتت أنظار الدول إلى أهمية المضائق في التاريخ الحديث، والسياسة الاستقلالية التي انتهجها محمد علي إزاء الدولة العثمانية والتي اعتمد في تنفيذها على التعاون مع الفرنسيين.

كما كان لتعاطف الأقليات الكاثوليكية الموجودة في أقاليم الأمبراطورية العثمانية مع الدولة الفرنسية دور في جلب اهتمام الرأي العام الفرنسي بقضايا الدولة العثمانية وخاصة أوضاع المسيحيين ومصير الثوار اليونان.

وقد كان لموقف بعض الشخصيات الفرنسية مثل الشاعر فكتور هيجو والأدريب شاتوبريان والرسام دولاكروا والجنرال فبي، تأثير مباشر في دفع الحكومة

الفرنسية إلى تقديم معوناتها للثوار اليونان واتخاذ موقف عدائي إزاء الدولة العثمانية، انتهى في الأخير إلى إلحاق الهزيمة بأسطول العثمانيين بنافرين.

ومما يلاحظ أن نابليون كان قد حقق في فترة سابقة تقاربا فرنسياً عثمانيا بفضل مساعي السفير الفرنسي سيبستياني ونتيجة لتحفظه وامتناعه تلبية المطالب القيصرية في المضائق أثناء توقيعه معاهـــــــدة تلسيت 1807 (Tilsit) التي اقتسمت النفوذ بين فرنسا وروسيا وهذا ما أدى فيا بعد إلى حدوث نوع من الجفاء والعداء من طرف القيصر الروسي الاسكندر الأول لسياسة نابليون الأوربية. أما انكلترا فقد تحكمت في سياستها إزاء الدولة العثمانية مصالحها التجارية إذ عملت جاهدة ودون هوادة على أبعاد أية قوة بحرية قد تعترضها في طريق الهند، فعارضت المطالب الروسية في المضائق وسواحل المتوسط الشرقي وعزّزت وجودها في مالطة ببسط سلطتها على الجزر الايونية منذ عام 1814.

كما حاولت أيضا وضع حد لتطلعات نابليون نحو المضائق فلم تتوان في إرسال حملة بحرية في إتجاه استانبول عبر المضائق فلم تتوان في إرسال حملة بحرية في إتجاه استانبول عبر المضائق في شهر مارس 1807 بقيادة الأميرال دكورث (Duckworth) على أن المقـــــــاومة الشديدة من الحصون وبطاريات المدافع المركزة على المرتفعات المشرفة على المضائق والتي ساهم في إنشائها وتجهيزها الفرنسيون، اضطرتها إلى التراجع بعد أن ألحقت بها أضرارا جسيمة.

بعد ذلك لم تلبث السياسة البريطانية التي ظلّت لفترة طويلة تدعو إلى المحافظة على الدولة العثمانية حماية لمصالحها وأبعادا للدول الأوربية الأخرى عن الحوض الشرقي للمتوسط، أن تبلورت وتحددت اتجاهاتها إزاء المسألة الشرقية بصفة عامة وقضية اليونان بصفة خاصة عندما تولى وزارة الخارجية البريطانية السير كانينغ (Canning) خلفـاً لـلكـاسـتلريغ (Castlereagh) الـذي نـادى بحل المشكلة اليونانية في إطار دولة يونانية مستقلة إستقلالاً ذاتيا تحت سيادة السلطان تشمل شبه جزيرة الموه وجزء من الأراضي القارية لليونان، وبالتالي إتخذ موقفا وسطا بين السياسة الروسية الرامية التي تصفيه نهائية للدولة العثمانية وطردها من أقاليم البلقان وبين الموقف البريطاني التقليدي المحافظ على هيكل الدولة العثمانية في وجه الأطماع الأوربية خشية حدوث اختلال في التوازن. أما النمسا فبحكم كونها

إمبراطورية قارية لا تتمتع بميزة الإنفتاح على الحوض الشرقي للمتوسط، فإن اهتمامها بالدولة العثمانية المجاورة ظل يقتصر على ضمان مصالحها الاقتصادية والاستراتيجية، وهذا ما دفعها إلى العمل على إبقاء التحركات الروسية بالبلقان بعيدة عن منطقتين حيويتين بالنسبة لها، وهما مصبات نهر الدانوب على البحر الأسود حيث تنتهي خطوط الملاحة النهرية عبر الدانوب وميناء سالونيك على بحر ايجة منفذ التصدير الرئيسي لمتوجاتها، بعد أن حال الحصار الإقتصادي الذي فرضته كل من انكلترا وفرنسا ضد بعضها البعض أثناء حروب نابليون دون إمكانية استعمال موانئ الأدرياتيك والمتوسط الأخرى بحرية ودون مخاطر.

هذا وقد كانت سياسة آل هبسبورغ إزاء الدولة العثمانية تتلخص في محاولة الإبقاء على الأوضاع كما هي بعد أن ضمنت لهم معاهدة بساروفيتز (Passarowitz) (1718) التوسع بإقليم فلاشيا ومنطقة الحرب على حساب الأملاك العثمانية.

وقـد خـطـط لهذه الـسـيـاسـة الـوزيـر النمساوي الماهر ميترنيخ (Mehernich) واستطاع تطبيقها في مؤتمري فيينا وايكس لاشابيل تحت شعار المحافظة على الشرعية الدولية التي أصبحت القاعدة الذهبية لسياسة الابقاء على التوازن الدولي بأوربا إثر سقوط نابليون بونابرت وإعادة الملكية إلى فرنسا (1814).

ب ـ الأحداث التي أدت إلى معركة نافرين: لقد كانت القضية اليونانية التي تقرر مصيرها بمعركة نافرين محكا لسياسة الدول الأوربية الرئيسية التي أشرنا إليها سابقا (روسيا وفرنسا وانكلترا والنمسا) إزاء الدولة العثمانية نتيجة لتيقظ الشعور الوطني اليوناني الذي كان في حد ذاته نتيجة للتطور الإجتماعي والاحياء الثقافي والنمو الإقتصادي، وقد ساعدت على جعل المسألة اليونانية محور الأحداث بالبلقان في هذه الفترة بالذات، السياسة الروسيـــة التي رفعت شعار الجامعة السلافية وكذلك التعاطف الفرنسي الأنكليزي مع المطالب اليونانية في التحرر من الحكم العثماني. كل ذلك قد أدّى إلى تأليف العديد من التنظيمات السرية التي كانت تعمل للاستقلال والتحرر من الهيمنة التركية مثل جمعية هيتيريا

(La société des Phitomuses Hetaïrie) التي تكونت عام 1812 بأثينا واتحاد أصدقاء اليونان (Hetaïrion) بأوديسا 1814 الذي تزعمه أحد أعوان القيصر الروسي الأسكندر الأول، وهو يابسيلانتي (Ypsilanti) (الذي بادر باعلان الثورة بالبلقان عام 1820 بدون أن يستطيع تحقيق مكاسب حقيقية لتخلي القيصر عنه، هذا ولعل أهم خاصية لهذه الجهود التي قامت بها الطبقة اليونانية البرجوازية أنها كانت متشبعة بالأفكار الليبرالية ذات الميول الوطنية وكانت في الوقت نفسه مؤمنة بضرورة اللجوء إلى العمل السري والإعتماد الكلي على القوات الخارجية وفي مقدمتها القيصرية الروسية.

على أن القضية اليونانية بعد فشل تلك المحاولات ذات الطابع الرومنطيقي أصبحت أكثر فأكثر تعتمد على جهود يوناني شبه جزيرة اليونان والجزر الإيجية، وأغلبهم كان من البحارة الماهرين الذين يحسنون الملاحة، والفلاحين الجبليين الذين يتقنون حرب العصابات، وقد وجدوا في تعليمات الكنيسة الأرثذكسية وتحريض القديسين على خلع طاعة السلطان والتشبث بتقاليدهم خير حافز على التمرد على السلطة العثمانية، وقد اغتنموا فرصة تمرد علي باشا حاكم جنينة (Ali Pacha de Janina) (1820) على السلطان، فأعلن القديس باتراس (Patras) رفض سلطة الباب العالي في 25 مارس 1821، واستطاع الثائرون تحقيق انتصارات كبيرة على القوة الانكشارية والاستيلاء على شبه جزيرة البلوبونيز «المورة» وقد ساعدهم ذلك على إعلان الإستقلال من طرف أول جمعية وطنية اغريقية بالغابة المقدسة عند الإغريق بالقرب من المدرج العتيق لابيدور (Epidaure) في شهر جانفي 1822.

بعدها توسع نطاق الثورة إلى الجهات القريبة من الأرض اليونانية وإلى جزر بحرإيجة وأثناء ذلك الحق الثائرون في ظرف ثلاث سنوات خسائر جسيمة بالبحرية العثمانية اضطرها إلى ابقاء سفنها داخل الموانئ خوفا من تدميرها، كما سارع السلطان بطلب المعونة من الايالات العثمانية، مصر، الجزائر، تونس، وليبيا، وقد بادر محمد علي حاكم مصر الذي كان يترقب الفرصة لإظهار قوته وبسط نفوذه على المقاطعات العثمانية بجنوب البلقان إلى تلبية الطلب.

فنزلت القوات المصرية بقيادة إبراهيم باشا جزيرة كريت واتخذتها قاعدة أمداد

لها قبل أن تتوجه إلى السواحل الجنوبية القريبة لشبه جزيرة المورة وتستولي على مدن: مدون وكورون ونافرين، فبدأت بذلك قوات الثوار في التراجع عندما استولى إبراهيم باشا على قاعدة المورة وهي مدينة تريبولتزا في 23 جويلية 1825، بعدها تحولت القوات المصرية إلى المناطق الوسطى من أرض اليونان القارية وفرضت حصارا محكما على المركز الرئيسي للثائرين ونقطة إتصالهم بالخارج وهو حصن ميسولونغي (Missolonghi) وتمكنت من الإستيلاء عليه في 22 أفريل 1826 باستخدام قوة حربية قوامها عشرة آلاف جندي وعندها كادت الثورة اليونانية أن تخمد بعد استسلام قلعة أثينا «الاكروبول» في 5 جويلية 1827 لولا تدخل الدول الأوربية وماانتج عنه من صدام مسلح بميناء نافرين.

جـ ـ المساهمة الجزائرية: إن المساهمة الجزائرية في هذا الجهد الحربي لم تقتصر على المشاركة الفعلية في معركة نافرين بعدة سفن كما نوضح ذلك فيما بعد، وإنما بدأت في وقت سابق عندما بدأ اليونانيون يشكلون خطورة على الملاحة البحرية الإسلامية في شرق المتوسط، في عهد الداي مصطفى باشا تمكنت حراقة الحاج يعقوب وقاربا أحمد رايس ومصطفى رايس في خريف سنة 1213هـ / 1798 من احتجاز سفينة يونانية محملة بالقمح والصابون والكاغط قدرت قيمة بضائعها بمبلغ 60، 755، 277ف.

وفي عهد الداي الحاج علي باشا (1224 ـ 1230هـ / 1809 ـ 1814) توجهت سفن بحرية جزائرية للمساهمة في الحد من الخسائر التي ألحقها الثائرون اليونانيون بأسطول الدولة العثمانية وقد ذكر ذلك الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر في مذكراته مشيرا إلى الأسلوب الذي كان يتبعه الثوار في تدمير السفن العثمانية بقوله: «ثم أن الكرابك عمروا سفنا عديدة بآلة الحرب بحيث لا يقدر أحد من المسلمين أن يلقاهم وصارت مراكب العدو هذه تقصد المراكب الجهادية ليلا في المراسي فتلتصق بجانبها وتوقد فيها النار فتحترق مرة واحدة مثل البرق وعندئذ تكون زوارقهم بازاء مركبهم فينزلون إليها ويهربون.»

وقد استطاعت السفن الجزائرية بقيادة القبطان حميدو التي أرسلت للمساهمة في محاربة البحارة اليونانيون الذين يمارسون أعمالا حربية ضد السفن الإسلامية، أن تستولي على أكثر من عشرين مركبا محملة بالحبوب والبضائع أخذت إلى الجزائر حيث

وزعت حمولتها على البحارة الجزائريين وذلك سنة 1228هـ ـ 1813م.

ومما يلاحظ أن الباب العالي رغم الأعمال العدائية لليونانيين حاول أن يطلق اسراهم وأن يسترجع ما أخذه الجزائريون منهم رغبة منه في تهدئة الأوضاع ومحاولة منه إرضاء اليونانيين والحد من عدائهم، فرفض الجزائريون ذلك الطلب واعتبروه تصرفا غير لائق، إذ حسب قول الشريف الزهار فإن الداي علي باشا أجاب موظفي الباب العالي في هذا الشأن «بجواب قبيح» حتى أنه قال لهم «أن بقيتم على هذه الحالة فإن الكرائك يأخذون نساءكم»، وبالفعل حسب قول الشريف الزهار مالبثوا «أن تذكروا كلام الداي علي باشا وصاروا يترحمون عليه» بعد أن اندلعت الثورة على نطاق واسع بعد عدّة سنوات قليلة من ذلك، وتسببت في القضاء على عدّة آلاف من المسلمين قدروا بـ 12000 قتيل في مدينة تريبولتزا وحدها (Tripolitza) (1821) هـذا ولعل أهم عملية حربية للسفن الجزائرية في الفترة التي سبقت معركة نافرين هي التي قامت بها ست سفن جزائرية في صائفة عام 1227 / 1822 بقيادة الرياس: حميدو، علي طاطار، أحمد الحداد وقارة إبراهيم واستولت فيها على أربعة سفن للثائرين اليونان كانت مشحونة بالقمح والخمور والزيت وماء الزئبق قدرت قيمتها بما لا يقل عن 20، و742990ف.

على أن هذا الجهد الحربي الذي بذله الداي عمر باشا لم يلبث أن توقف في الفترة الأخيرة من حكمه (1230 / 1814) لاشتغال السفن الجزائرية بمهاجمة السفن السويدية والدانماركية، واستعدادها للتصدي للسفن الإسبانية البرتغالية ودخول الجزائر في مصادمات مع القوة البحرية الأمريكية الناشئة في الوقت الذي توترت فيه العلاقات الجزائرية مع بعض الدول نتيجة نشوب الحرب مع تونس ووقوع خلاف مع مملكة نابلي وكذلك مع إسبانيا بسبب هروب أحد الأسرى الإسبان من الجزائر، وقد زاد الطين بلة موقف الدول الأوربية من الجزائر في مؤتمر فيينا وتعرضها بعد ذلك إلى هجوم اللورد إكسموث الذي ألحق اضراراً فادحة بالسفن الجزائرية وأرغم الداي على توقيع صلح مهين. (1816) لكن الجهد الحربي الذي بذلته الجزائر لاستعادة قوتها البحرية وبناء أسطولها في السنوات القليلة التي أعقبت هجوم اللورد أكسموث مكّن الداي حسين باشا أن يمتلك قوة بحرية قادرة على

مواصلة الجهاد البحري والإشتراك بجانب الدولة العثمانية في جهودها لاخماد ثورة اليونان، لا سيما وأن قوة الأسطول البحري الجزائري قـدّرت سنة 1820 بأربعة عشر سفينة مجهزة بـ 320 مدفعا منها 3 فرقاطات (Frégates) وكرفطتان Corvettes و 5 بـريك (Bricks) و 2 غليوطتـان (Galiotes) وشباك واحد وبولاكر (Polacre) واحد.

أضيف لها في العـام التـالي (1821) كـرفـاطـة (Corvette) واحدة، وأعيـد تسليح بعض السفن الأخرى بحيث ارتفع عدد المدافع إلى 368 مدفعا من مختلف الأصناف.

كما تدعم الأسطول الجزائري بسفينة حربية أخرى عام 1827 وبذلك أصبح عدد السفن العاملة 16 سفينة مسلحة بـ 398 مدفعا.

وبذلك تمكن الداي حسين باشا من الاستجابة لطلب السلطان العثماني محمود فأرسل عدّة مراكب للمساهمة في الجهد الحربي للدولة العثمانية لاخماد الثورة اليونانية بتاريخ صفر 1236 / 1820م. فالتحقت ست سفن جزائرية بقيادة الحاج علي غرناووط صاري عسكر، بعد ستة عشر يوما من الابحار بالسفن التركية الراسية بعرفاً كمنسية إحدى مرافئ ساحل الأرناووط (ألبانيا) بعد أن عرفت أماكن تواجد هذه السفن من بعض السفن التجارية الأوربية.

وقد وضعت السفن الجزائرية تحت تصرف قائد الأسطول العثماني القابودان باشا واشتركت في بعض المهمات الحربية الموكلة لها. فاشتبكت مع سفن الثائرين اليونانيين بالمياه اليونانية اثنتي عشرة مرة تمكنت أثناءها من اسر ستة عشر مركبا يونانيا أخذتها غنيمة إلى ميناء بالي بدرة، وقد أرسل منها قائد السفن الجزائرية الحاج علي غرناووط مركبا إلى الجزائر يقوده الحاج أحمد الحداد. ليطلع الداي بنفسه على ما قام به الجزائريون من أعمال حربية لفائدة الدولة العثمانية، وقد خسر الجزائريون طيلة السنتين وثلاثة أشهر التي مكثوها بالمياه اليونانية سفينتين تمكن الثائرون اليونانيون من إحراقها على حين غفلة، وقد هلك من بهما من البحارة والجنود.

هذا وقد عادت السفن الجزائرية مع بحارتها إلى مدينة الجزائر للتزود بالمؤن والذخيرة ولقضاء فصل الشتاء لعام 1823 بطلب من الداي حسين باشا، فحسب رواية الشريف الزهار، أن الأمير حسين باشا بعث إليهم (أي البحارة الجزائريين)

بمركب فيه كسوة للعسكر والطائفة وبعث قاطات بالذهب لرؤساء المراكب وصاري عسكر وهدية أيضا إلى قبطان باشا مع طلب أن يسرحهم من أجل الراحة زمن الشتاء.

بعدها بادر الداي حسين باشا مجددا بإرسال ست سفن مسلحة تحت قيادة القبطان مصطفى رايس وصاري عسكر الحاج عبد الله شاوش صهر مصطفى باشا سنة (1240هـ / 1825م)، وقد جاء في رسالة لقائد السفن الجزائرية بعث بها إلى الداي حسين باشا في شهر شوال 1240 ـ جوان 1825 : «أن السفن قد انطلقت من الجزائر في 4 رمضان ووصلت سالمة إلى مياه اليونان بعد 18 يوما والتحقت بالقطع العثمانية التي كان يتولى قيادتها القبطان مختار باي وساهمت في حصار قلعة نافرين التي كانت آنذاك تحت سيطرة الثوار اليونانيين كما شاركت هذه السفن مع السفن المصرية الأخرى في نقل الجنود والعتاد من الإسكندرية إلى سواحل اليونان، وأثناء ذلك تحطم منها مركبان بادر محمد علي حاكم مصر بتعويضهما».

هذا وقد استمرت مهمة هذه السفن بالمياه اليونانية سنتين وشهرين (1240 ـ 1825 / 1241 ـ 1827) خاضت خلالها معارك بحرية عديدة ضد سفن الثوار اليونان، قبل أن تعود إدراجها إلى الجزائر بدون إذن قبطان باشا قائد الأسطول العثماني، الذي أغضبه هذا التصرف واعتبره سلوكا منافيا لروح الإنضباط العسكري رغم حاجة السفن الجزائرية إلى العودة إلى الجزائر للتزود بالمؤن والعتاد.

بعدها بادر الداي إلى إرسال ست سفن جزائرية إلى مياه اليونان منها غليوطتان مسلحتان بـ 28 مدفعا وكرفاطة مجهزة بـ 32 مدفعا وقطعتين من نوع البريك مزودتين بـ 38 مدفعا، وقد كان لهذه السفن شرف المشاركة في الجهاد الإسلامي تحت راية الدولة العثمانية. وانتهى أمرها إلى التدمير في معركة نافرين، فلم تنج منها سوى سفينتان توجهتا إلى الإسكندرية بعد أن تعذر رجوعهما إلى الجزائر بسبب فرض الحصار البحري الفرنسي على السواحل الجزائرية منذ 16 جوان 1827، وبقيتا هناك إلى سنة 1245 / 1830. ولم يعد يعرف عنهما أي شيئ بعد هذا التاريخ.

هذا وقد كانت المساهمة الجزائرية في حرب اليونان بجانب الدولة العثمانية موضوع عدّة رسائل وردت على حكام الجزائر من كبار الموظفين في الدولة العثمانية ومن محمد علي حاكم مصر ومن وكلاء الجزائر بأزمير وقادة السفن الجزائرية العاملة

بالمياه اليونانية، أظهروا فيها مدى الحاجة إلى العون والمساعدة من الجزائر ويشرحون فيها أحوال المسلمين بالبلاد اليونانية وما كانوا عليه من بؤس وضائقة وما لحقهم على أيدي النصارى اليونان من تنكيل وتشريد وقتل، ومن هذه الرسائل نذكر رسالة الحاج خليل الازمرلي إلى حسين باشا (3 شوال 1226 /4جويلية1821) ورسالة الحاج أحمد وكيل الجزائر بالشرق(17 رجب 1238ـ30مارس 1823)ورسالة من صاري عسكر سفن الجزائر الحاج علي قبطان (27 رجب 1238 / 9 أفريل 1823) ورسالة حسن (مير ميران) المتصرف في قلعتين محاصرتين من طرف الثائرين هما مودون وكرون بالمورة (13 رمضان 1238 / 25 ماي 1822) ورسالة الحاج حفيظ اسماعيل وكيل الجزائر بأزمير (15 صفر 1240 / 08 أكتوبر 1824) ورسالة أخرى من الحاج خليل الأزميرلي (25 صفر 1240 / 18 أكتوبر 1824) ورسالة ثانية من صاري عسكر سفن الجزائر الحاج علي قبطان (27 شوال 1240 / 13 جوان 1825)...

فضلا عن رسائل كان يبعثها دايات الجزائر مباشرة إلى الباب العالي أو يرسل بها حاكم مصر محمد علي إلى الجزائر رأسا مثل الرسالة المؤرخة في 18 رجب 1238 / 26 مارس 1823 والتي طلب فيها محمد علي من الداي حسين باشا حماية الفرقاطة المصرية بقيادة الرايس كوالي محمد قبطان التي وصلت إلى الجزائر من لندن، وقد استجاب داي الجزائر لطلبه فأرسلها إلى مصر محروسة بفرقاطتين وغليوطة واحدة بقيادة القبطان الحاج علي طاطار لتظل في حراستها حتى جزيرة كريت، لكن القبطان الجزائري خشي من مهاجمة السفن اليونانية لها فاضطر إلى مصاحبتها إلى مياه الإسكندرية وهذا ما تسبب له في غضب الداي واضطره إلى البقاء مدّة في الشرق.

كل هذه الجهود الجزائرية سوف يوضع لها حد في معركة نافرين البحرية التي أسفرت عن تدمير القسم الأكبر من السفن العثمانية (تركية، مصرية، جزائرية، تونسية وطرابلسية).

فقد تجمعت السفن العثمانية بميناء نافرين لتحصيناته العسكرية وأهميته الاستراتيجية التي تنعكس في الأحداث التي عرفها، إذ كان دوما محط أنظار القادة العسكريين حتى أن الجيش الروسي في الحرب العثمانية الروسية الأولى، بادر بالإستيلاء عليه يوم 10 أفريل 1770 وإتخاذه مركزا لعملياته الحربية في المورة قبل أن

يضطر إلى التخلي عنه وتهديم تحصيناته في 1 جوان 1770، وقد اتخذ الجيش العثماني نافرين أيضا قاعدة حربية أصبحت فيما بعد هدفا للثوار الذين استولوا عليها في 7 أوت 1821. وأبادوا جميع المسلمين بها ثم استرجعها مجددا إبراهيم باشا في ربيع سنة 1825 بعد مقاومة عنيفة من طرف اليونانيين. كل هذه الأحداث تفسر لنا أهمية هذه القاعدة البحرية وتؤكد أهمية موقعها الإستراتيجي المتحكم في السواحل الجنوبية الغربية لبلاد اليونان والمتصل مباشرة بالسواحل الأوربية مع كونه يتميز بحماية طبيعية مما جعل ميناء نافرين أكثر المراسي ملائمة للملاحة بسواحل اليونان وذلك لكونه محميا بجزر سفاكليري (Sphacléries) التي تنتصب في مدخله وترد عليه الرياح الغربية التي تتسبب غالباً في هيجان البحر.

ونفس العوامل الاستراتيجية هي التي أملت على سفن الدول الأوربية المتعاطفة مع الثورة اليونانية (روسيا وفرنسا وانكلترا) أن تحشد سفنها أمام ميناء نافرين تنفيذا لإتفاق لندن الموقع في 6 جويلية 1827 والذي أسفر عن تشكيل ما يعرف بالحلف الثلاثي بين الدول الثلاث التي أصبحت أطرافا معيّنة بالقضية اليونانية بعد أن تعهدت بالعمل على أرغام السلطان العثماني على وقف الحرب وتحقيق الاستقلال الذاتي لبلاد اليونان كما نص على ذلك بروتوكول 7 أكتوبر 1827 الذي توصلت إليه هذه الدول أثناء مشاوراتها في شأن القضية اليونانية بلندن، وقد أعطيت القيادة في هذه العملية المشتركة للقائد الأميرال الإنكليزي كورد انغتون (Cordrington).

في هذا الجون الحصين وأمام دفاعات قاعدة نافرين العسكرية تجمعت السفن الإسلامية واتخذت أماكنها على شكل خط دفاعي اصطفت فيه على هيئة حدوة حصان أيام 8 و9 و10 أكتوبر 1827 وأكملت تنظيماتها النهائية يومي 14 و15 من نفس الشهر حسب ما ورد في مذكرات الضابط الفرنسي بومبار (Bombard) الذي أوكل له قيادة إحدى الفرقاطات المصرية المشاركة في هذه التظاهرة الحربية، وقد بلغ عدد هذه السفن 62 سفينة مسلحة بـ 2102 مدافع وتحمل ما بين 500 17 و960 21 جنديا وبحارا بالإضافة إلى بطاريات المدافع المنتصبة فوق حصون ميناء نافرين والتي كانت موجهة للسفن الأوربية. هذا وتتوزع السفن الإسلامية من حيث أنواعها وتجهيزاتها حسب تقدير أحد الضباط الأوربيين

المشاركين في المعركة كالتالي:

- 26 من نوع كورفات Corvettes مجهزة بـ 598 مدفعاً
- 15 من نوع فرقاطات Frégates مجهزة بـ 735 مدفعا.
- 11 من نوع بريك Bricks مجهزة بـ 209 مدفعا.
- 05 من نوع بارجة Vaisseaux de ligne مجهزة بـ 564 مدفعا.
- 05 حراقات Brûlots

المجموع:

- 62 سفينة مجهزة بـ 2102 قطعة مدفعية.

ومما يلاحظ أن هذا العدد الكبير من السفن الإسلامية، كان أغلبه من مصر بينما شاركت الجزائر بعدة سفن بلغ عددها حسب المصادر المتوفرة بستة سفن كما سبقت الإشارة في بيان المساهمة الجزائرية في معركة نافرين.

وفي المقابل كانت القطع الحربية الروسية والفرنسية والإنجليزية تأخذ مواقعها غير بعيدة من السفن العثمانية تحت قيادة الأميرال الإنكليزي كوردرانغتون Cordrington وكانت تتشكل من ثماني سفن روسية تحت قيادة القبطان لازاريف Lazareff مزودة بـ 490 مدفعا واثنى عشر سفينة انكليزية بقيادة القبطان كورسون Curson مسلحة بـ 456 مدفعا وسبع سفن فرنسية تحت قيادة القبطان روني روبير R. Ribert مجهزة بـ 352 مدفعا بحيث يصبح عددها الإجمالي حسب هذا الاحصاء التقريبي سبعا وثلاثين سفينة مجهزة بـ 1298 مدفعا.

كل هذا الحشد من السفن الإسلامية والأوربية اجتمع عشية 20 أكتوبر 1827 بمياه نافرين. فالقطع البحرية الأوربية ظهرت عند مدخل ميناء نافرين وتجاوزت مرمى بطاريات المدافع، في الساعة الواحدة بعد الظهر يوم 20 أكتوبر 1827 وتقدمت في صفين متراصين أحدهما مكوّن من السفن الانجليزية والفرنسية والآخر يتشكل من السفن الروسية وفي الوقت الذي دخلت فيه السفن الانجليزية والفرنسية ميناء نافرين كانت السفن الحربية الروسية تقترب من مدخل الميناء وعندها أطلقت النيران من طرف إحدى السفن الإسلامية فأصيب الملازم الأول الإنجليزي

فيزروي Fitz-Roy بعيار ناري قاتل ثم تلتها طلقة أخرى من سفينة مصرية أصابت إحدى الفرقاطات الفرنسية حسبما أوردته شهادة الجنرال الروسي بوجيا نوفيتش E. Bogianovitch بعـــــدها بدأ تبادل إطلاق النار من الجانبين واحتدمت المعركة ثلاث ساعات أو أربع. دمر أثناءها أغلب السفن الإسلامية إذ لم ينج من السفن الإسلامية البالغ عددها حوالي ستين سفينة من مختلف الأحجام حسب إحدى الدراسات الغربية سوى فرقاطة واحدة وحوالي خمسة عشرة سفينة صغيرة تضرر بعضها بفعل طلقات المدفعية، بينما قدر عدد القتلى بحوالي ألف من الأوربيين وبأكثر من ستة آلاف من المسلمين.

وقد مكثت السفن الأوربية بميناء نافرين حوالي أسبوع بعد إنتهاء المعركة لتنسحب يوم 26 أكتوبر 1827 بعدها عقد إبراهيم باشا هدنة مع الأميرال الإنكليزي كوردرانغتون Cordrington مكنتـــــــه من سحب قواته من نافرين في ربيع عام 1828، وتسليم تحصينات الميناء إلى الجنرال الفرنسي ميزون Maison الـــذي أوكل له حكم قاعدة نافرين مؤقتا فلم يتوان في تقديم الدعم والمساعدة للثوار اليونان. ممّا مكّنهم من تحرير كامل المورة في ظرف شهرين قبل أن يتم الفرنسيون إنسحابهم من المنطقة في شهر أوت من سنة 1829.

أمّا أسباب هذا الإنكسار فتعود في الأساس إلى نقص عتاد وتجهيزات السفن الإسلامية، وافتقار المهارة والتدريب للجنود المشاركين في المعركة وذلك بالنسبة لتجهيزات السفن الأوربية ونوعية التدريب الذي كانوا يتوفرون عليه. كما يعود سبب الهزيمة إلى المكان غير الملائم الذي جرت فيه المعركة، فوجود السفن الإسلامية متراصة بميناء نافرين وعدم تمكنها من المناورة أو الحركة سهّل على القطع الأوربية تدمير أكبر عدد منها في وقت قصير، وممّا زاد في خسائر المسلمين وجود تعليمات واضحة لقادة السفن الأوربية بالدخول مباشرة في المعركة دون تردد في حالة إطلاق النار عليهم بينما السفن الاسلامية لم تعط لها أية تعليمات في هذا الشأن من طرف قادتها (ظاهر باشا وقبطان باي ومختار باي) رغم تحمس بعض جنودها في المبادرة بتوجيه طلقات إنفرادية للسفن الأوربية، تلك الطلقات التي كانت بمثابة الحجة لقادة السفن الأوربية لتنفيذ خطتهم في القضاء على القوة الإسلامية البحرية المتواجدة أمامهم، كما أن وجود ضباط فرنسيين متعاونين على متن السفن المصرية زاد

الحالة سوءاً لترددهم في الدخول في إشتباك مع سفن بلادهم المواجهة لهم لا سيما بعد أن وجه قائد السفن الفرنسية الأميرال دوريني De Rigny إلى هؤلاء المتعاونين من الفرنسيين في سفن محمد علي رسالة جاء فيها «إلى سيادة Letellier ووبومبار Bombaru والضباط الفرنسيون العاملين بالأسطول التركي... إن الوضعية التي هي عليها الآن القوات البحرية العثمانية المحاصرة في ميناء نافرين وعدم إحترام إبراهيم باشا لتعهده بالكف مؤقتا عن الأعمال الحربية كل هذا يظهر لكم بأنكم في وضعية تجعلكم في مجابهة علمكم الوطني، وأنتم تعرفون مدى المجازفة في مثل هذه الحالة، ولهذا ندعوكم أن تتركوا الخدمة عند الأتراك في حالة ما إذا أقدم الأسطول العثماني على أعمال حربية معادية، وهذا ما يحتم علي أن أحذركم وأوجه لكم إنذارا يتوجب عليكم أخذه بعين الإعتبار إذا ما ظللتم فرنسيين، مع تحيات القائد دوريني».

هذا وقــــد أسفرت معركة نافرين باعتبارها إحدى حلقات التقهقر العثماني في البلقان، على نتائج بالغة الأهمية لتطور الأحداث في الربع الأول من القرن التاسع عشر الميلادي، منها:

1) ـ كانت معركة نافرين فرصة سانحة لروسيا القيصرية لتحقيق مشروعها التوسعي على حساب الدولة العثمانية، إذ بادر القيصر نيقولا الأول إلى نقض معاهدة أكرمان Ackermann بحجــــة مهاجمة السفن العثمانية للقطع الروسية في معركة نافرين، وقد أحرز انتصارات سريعة بالقوقاز، وأرمينية والروميلي مكنته من احتلال مدينة أدرنة والتقدم منها إلى مشارف القسطنطينية، وهذا ما اضطر السلطان إلى تحويل اهتمامه خارج بلاد اليونان، والقبول بمعاهدة أدرنة في 14 سبتمبر 1829 التي اعترف فيها رسميا باستقلال اليونان وتعهد بفتح المضائق والمرافئ العثمانية الأخرى أمام التجارة الروسية ووعد بتحقيق استقلال ذاتي لأقاليم الصرب ومولدا فياوفلاشيا.

ولم يخفف من هذه الشروط القاسية التي فرضتها روسيا على الباب العالي في هذه المعاهدة المجحفة سوى توصل الدول الأوربية الغربية إلى عقد معاهدة لندن في 3 فيفري 1832، والتي أقرها السلطان في شهر ماي من نفس السنة، فقد حدث من أطماع روسيا وأكدت مقررات بروتوكول لندن المعلن عنه في 22 مارس 1829

القاضية باستقلال بلاد اليونان وتحديد حدودها بالخط الواصل بين خليجي آرطا وفولوس Volos-Arta وبذلك أسست المملكة اليونانية التي اعتلى عرشها الأمير الشاب أوتو ابن الملك لويس البافاري (Othon de Bavière)

2) ـ ساعدت معركة نافرين على استفحال المد القومي بالبلقان، فرغم تمكن الدولة العثمانية في فترة سابقة من الحد من آثاره والوقوف في وجهه بعد أن قضت على ثورة الصرب بقيادة قاره جورج (1804 ـ 1815) وأوقعت العقاب الشديد بالثائرين في بلغراد (1812) وكادت جيوش محمد علي أن تخمد أنفاس الثورة اليونانية (1825 ـ 1827)، فكانت بذلك معركة نافرين بمثابة أحباط لكل هذه الجهود، ودعوة ملحة لكل الشعوب البلقانية أن تعلن الثورة وتطالب بالاستقلال عن الدولة العثمانية.

ونتيجة لذلك فقد بدأت تعقيدات المسألة الشرقية تنعكس على الأوضاع بالبلقان وأصبح الإتجاه السائد هو العمل على التمايز العرقي واقرار الحدود بين القوميات الناشئة التي كونت فيا بعد نواة الدول الحديثة جنوب الدانوب، وقد سارع الباب العالي في هذه الظروف المتوترة إلى طرد الرعايا الأرمن من استانبول في وقت بدأت فيه جموع المسلمين تغادر مواطنها الأصلية بالروميلي «الأقاليم البلقانية» لتلتحق باستانبول ولتستقر بجهات الاناضول أو ببعض الأقطار العثمانية الأخرى ولم يعد الأغريق كما كانوا يشكلون في مركز السلطة استانبول تلك الطائفة التي تحظى بمعاملة خاصة بفضل مكانة البطريق الأرثذكسي Patriarche Orthodoxe التي ينتمي إليها ونفوذ الترجمان Drogman الذي يختار منها وبحكم أن أغلب الوظائف ذات الدخل الوفير كانت من نصيب أفرادها.

وبذلك تكون الحركة الوطنية اليونانية التي أدت إلى معركة نافرين إحدى الأسباب الرئيسية التي دفعت السلاطين العثمانيين إلى الحد من نفوذ الجالية اليونانية باستانبول والمعروفة بالفناريين والتي كانت في الواقع تشكل دولة داخل دولة. وهكذا تمهد الطريق للقيام بعملية إخلاء بلاد اليونان من المجموعات الإسلامية وتهجير التجمعات اليونانية من سواحل الأناضول الغربية وقد عرفت هذه العملية فصولها المأساوية الأخيرة بترحيل جماعي للسكان إثر الحرب التركية ـ اليونانية

(1920 ـ 1922).

ـ أكدت معركة نافرين دور محمد علي في شؤون الدولة العثمانية وأظهرت مصر الحديثة بزعامته وكأنها الدولة القوية القادرة على التأثير في مجريات الأمور في الحوض الشرقي للمتوسط. وقد بدأت ملامح هذا الدول ترتسم في مجال العلاقات الدولية عندما أوكل الباب العالي لحاكم مصر محمد علي إدارة كل من قبرص وكريت (1822) وقد اتخذ شكلا محسوسا عندما بادر حاكم مصر بالإستجابة لطلب السلطان محمود الثاني (1824) فأرسل قوة حربية مؤلفة من حوالي سبعة عشر ألف جندي على متن تسعين سفينة منها ثلاث وستون قطعة حربية. احتلت كريت واتخذتها قاعدة امداد قبل أن تنزل بشبه جزيرة الموره وتضيق الخناق على الثائرين اليونان كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

ورغم انهزام البحرية المصرية مع باقي القطع الإسلامية بنافرين إلا أن محمد علي لم يتوان عن تحقيق مشروعه بتأسيس امبراطورية بالشرق على انقاض الخلافة العثمانية، فاستولى على الشام وانتصر على الجيوش العثمانية بقونية (1832) وتقدم في الأناضول، وأصبح يهدد القسطنطينية والمضائق مما أرغم السلطان محمود الثاني على الاستعانة بروسيا وعقد معاهدة حربية دفاعية معها (هنكار اسكلسي: 8 جويلية 1833) تحولت بموجبها الدولة العثمانية إلى مجرد تابع للامبراطورية القيصرية، وهذا ما دفع الدول الأوربية إلى التدخل لإبعاد روسيا عن المضائق، بعد أن ثبت للجميع ضعف الدولة العثمانية أمام قوة محمد علي في معركة زنيب 1839 فعقدت في هذا المسعى عدة اتفاقيات ابتداء من إتفاقية لندن 1841 التي كان الهدف منها الحد من تطلعات روسيا وإرجاع محمد علي إلى حدود ولاية مصر وحرمانه من التوسع بالشام وإيجاد وضع دولي قار بالمنطقة يحفظ مصالح الدول الغربية في المضائق ويزيد من نفوذها في الأقطار العثمانية.

3 ـ أدت معركة نافرين إلى تفكك الحلف المقدس Sainte Alliance بين الدول الأوربية الذي أقر في مؤتمر فيينا 1815 وأصبح أساس السياسة الأوربية، والذي كان يهدف إلى تجسيد روح الأخوة المسيحية وتحقيق التآلف الدولي القائم على توازن القوى واحترام الشرعية

الدولية وعدم المساس بها دون اعتبار للأماني القومية والطموحات الوطنية للشعوب والأمم، حتى ولو كان الأمر يتعلق بالأمبراطورية العثمانية باعتبار أن السلطان هو العاهل الشرعي بالمناطق الخاضعة لنفوذه، على أن هذا الإتجاه السائد آنذاك والذي مهد له وعمل على الإلتزام به الوزير النمساوي المحافظ ميترنيخ Metternich منذ مؤتمر فيينا 1815، لم يلبث أن اصطدم بالواقع ولم يصمد أمام الأطماع التوسعية للقيصر نقولا الأول Nicolas 1er الذي خلف أخاه الأسكندر الأول على عرش روسيا سنة 1825، فرغم ميول هذا القيصر المحافظة وأفكاره المطلقة المعادية لأماني وتطلعات الشعوب إلاّ أنه لم يتردد قط في أن يضحي بمبادئ الحلف المقدس في سبيل تحقيق سياسته التوسعية على حساب الدولة العثمانية ولو عن طريق تشجيع الحركات الإستقلالية لشعوب البلقان، وبذلك خالف السياسة التقليدية لسلفه القيصر الأسكندر الأول (1801 ـ 1825) وضرب بآراء ميترنيخ عرض الحائط رغم تحذيره من طرف هذا الأخير من مغبة الوقوف ضد السلطان العثماني العاهل الشرعي بالبلقان، وعكس كل ذلك سارع إلى تأييد الثوار اليونانيين في مطالبهم القومية على حساب الحقوق الشرعية للباب العالي فكان عمله هذا بمثابة التنكر لمبادئ الحلف المقدس وهذا ما ساعد فيما بعد على تغيير الأوضاع السياسية وفتح عهداً جديداً أمام الأمم الأوربية تميز بتعاظم الميول الليبرالية وانتعاش الحركة الوطنية القومية التي تتنافى والمصالح الحيوية للامبراطوريات المركزية الكبرى بأوربا وهي الأمبراطوريات الروسية والنمساوية والعثمانية.

4 ـ إن معركة نافرين كان لها تأثير سلبي على الجزائر وذلك أن الجزائر آنذاك كانت معرضة للخطر الأوربي وفي أشد الحاجة إلى كل قواتها البحرية لتتصدى للاعتداءات وتقف في وجه التحرشات في الوقت الذي كان فيه حوالي ربع قوتها البحرية بالمياه اليونانية بجانب الأسطول العثماني والمصري كما أن تحطم أغلب السفن العثمانية في المعركة حال دون حصول الجزائر فيما بعد على أي معونة من الدولة العثمانية في تصديها للحصار البحري ومواجهتها للغزو الفرنسي، فالدولة العثمانية في تصديها للجيوش الروسية ومواجهتها لتهديد محمد علي الذي كان على إتصال وتفاهم مع

الفرنسيين كانت في وضعية يستحيل معها إرتقاب أي عون منها للجزائر للتصدي للفرنسيين الذين كانوا يسعون جاهدين لوضع حد نهائي للوجود البحري الجزائري بالمتوسط بتحطيم أي سفينة جزائرية تقع في طريقهم. فحتى السفينتان الوحيدتان اللتان سلمتا من كارثة نافرين والتجأتا إلى ميناء الإسكندرية حاولوا تدميرها، وهذا ما تثبته إحدى الرسائل التي بعثها وكيل الجزائر بتونس محمد أمين السكة إلى الداي حسين باشا بتاريخ 14 ذي الحجة 1242 ـ 8 جويلية 1827 إذ ورد في هذه الرسالة «أنه وصلت إلى حق الوادي بتونس سفينة فرنسية كبيرة وفرقاطة اتت لمراقبة السفن الجزائرية الموجودة في الإسكندرية» ولهذا الغرض كذلك وحسب هذه الرسالة «أن فرنسا قد أرسلت ثلاث فرقاطات إلى مياه الاسكندرية لنفس المهمة وأنه (أي الوكيل) حاول بدون طائل الإتصال بميناء الاسكندرية في هذا الشأن ليظل الجزائريون هناك وحتى لا يتعرض لهم السفن الفرنسية وهذا ما دفعه إلى مكاتبة الداي بذلك».

ومع ذلك فإننا مع نهاية هذا البحث لا يسعنا إلاّ أن نثبت أن المساهمة الجزائرية في معركة نافرين وما سبقها من أعمال حربية، هي تأكيد للحضور الجزائري، هذا الحضور الذي له أكثر من دلالة، فهو تأكيد لدور الجزائر في الأحداث بالمتوسط واقرار لمكانة الجزائر الدولية واثبات لمدى الروابط الروحية والالتزامات الأدبية التي كانت تشد الأقطار الإسلامية إلى بعضها ضمن رابطة الخلافة العثمانية، فالجزائر تحت حكم الداي حسين باشا بمشاركتها في هذه المواجهة البحرية (نافرين) بخيرة بحارتها وأفضل سفنها ـ رغم حاجتها الملحة إليها ـ تكون قد برهنت على مدى إيمانها بالمصير الواحد والعمل المشترك بين الأقطار الإسلامية التي كانت تتربص بها القوى الأوربية لتحطيم قوتها والتحكم في مقدراتها ومصادر ثروتها وقد كان الغزو الفرنسي للجزائر 1830 بداية لهذا المخطط الإستعماري الذي كانت نافرين إحدى مراحله الأولى.

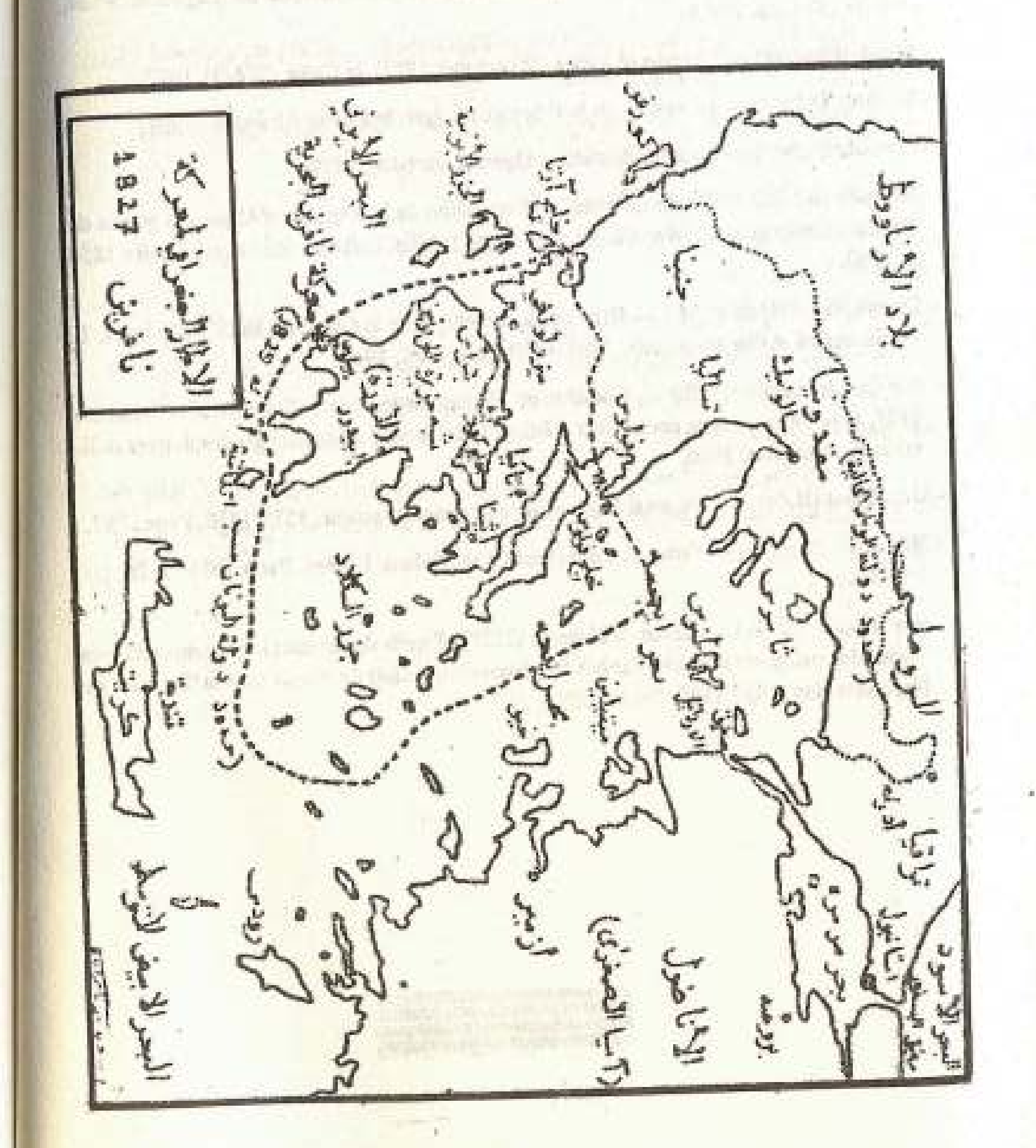
- بيبليوغرافية البحث -

1) - المراجع العربية:

- أحمد الشريف الزهار نقيب اشراف الجزائر، مذكرات (1754 ـ 1830) نشر وتعليق أحمد توفيق المدني، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر 1974.
- محمد بيرم، صفوة الاعتبار بمستودع الامصار والأقطار، القاهرة المطبعة الإعلامية 1884.
- محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية بيروت دار الجيل 1977.
- مصطفى كامل باشا، المسألة الشرقية، القاهرة 1909.
- محمد رفعت، تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية، القاهرة مكتبة العلوم السياسية، دار المعارف 1959.
- عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، الجزء الثالث، بيروت دار الثقافة 1980.
- لوتسكي بوريسوفيتش، تاريخ الأقطار العربية الحديث، معهد الاستشراق موسكودار التقدم 1971.
- كوران ارجمند، السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر 1827 ـ 1847، نقله عن التركية، عبد الجليل التميمي تونس 1974.
- سعيدوني ناصر الدين، الحصار البحري الفرنسي على السواحل الجزائرية بين 1827 ـ 1830 المجلة التاريخية المغربية تونس عدد 5 ـ 1976 ص. ص 35 ـ 43 وكذلك دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر (العهد العثماني) الجزائر 1984.

2) - المراجع الأجنبية:

- Andersson (M.S.) — The Eastern question, 1774-1923, Londres 1966.
- Andersson (R.C.) — Litt (D.) — Naval wars in the Levant, 1559-1853, Liverpool, at University Press, 1952.
- Conrad (Philippe) — Le vent de la liberté soulève la Grèce, in Histoire magazine, N° 24, février 1982, pp. 79-84.
- Douin (Georges) — Navarin (6 juillet - 20 octobre 1827), le Caire, (IFAO), 1927.
- Devoulx (Albert) — La marine de la Régence d'Alger, in Revue Africaine, 1869.
- Devoulx (Albert) — Le Raïs Hamidou, Alger, A. Jourdan, 1859.
- Devoulx (Albert) — Recherches sur la coopération de la Régence d'Alger à la guerre de l'indépendance grècque, d'après des documents inédits, in Revue Africaine, années 1856 et 1857.
- Driault (E.), l'Héritier (M.) — Histoire diplomatique de la Grèce de 1821 à nos jours, T. l'insurrection et l'indépendance, 1821-1830, Paris, Puf., 1925.
- Fleuriot de Langle (V.P.) — L'affaire de Navarin autour de la journée du 20 octobre 1827, avec de nombreux documents inédits, Paris, société d'éditions géographiques militaires et coloniales, 1930.
- Grammont (H.de) — Histoire d'Alger sous la domination turque, 1515-1830, Paris 1887.
- Nikos (A. Bees) — Navarin, in Encyclopédie de l'Islam, Leiden, Paris 1936, T. III, pp. 943-944.
- Nuy (Napoléon) — La bataille de Navarin (1827), d'après documents inédits des archives impériales russes du Général Eugène Bogianovitch, traduit du Russe sous la direction de Napoléon Nuy, 1827-1887, Paris, 1887.



لمحة عن الجغرافي الأميرال العثماني "پيري ريس" وكتابه:(*) "كتاب بحرية"

أ. زهرة زكية

يعتبر پيري ريس احد كبار أميرالات الدولة العثمانية، مثل، بوراق وكمال وخير الدين، ودرغوت وعلج علي.. إلخ الذين قادوا الاسطول العثماني من انتصار إلى انتصار ما بين القرنين 15-16م، وساهموا في توسيع الهيمنة العثمانية على البحار والمحيطات[1].

(1) مولد پيري ريس ونشأته :

وپيري ريس المعروف كذلك بمحي الدين پيري ريس، هو أحمد بن الحاج محمد[2] من عائلة قرامانية[3] ولد بغاليبولي «Gallipoli»[4] في 1465 أو 1468[5] بدأ پيري ريس حياته العملية مع خاله[6] كمال ريس[7] في سن مبكر (حوالي 12 أو 15 سنة)[8] وعاش لمدة 14 سنة متتالية إلى جانبه[9] شارك خلالها في كل العمليات البحرية التي خاضها كمال ريس.

وهو في سن مبكرة، جال تقريبا في كل سواحل البحر الابيض المتوسط، واثناء هذه الجولات التي اتاحت له فرصة التوقف في كثير من الاحيان في الموانئ الاسبانية والتونسية، والجزائرية[10] والفرنسية ومرافئ الادرياتيك، كان يسجل اخبار وملاحظات جد مهمة حول طبيعة، وجغرافية وظروف الملاحة[11] وطوبوغرافية هذه المناطق، والتي دونها فيما بعد في كتاب قيم اسماه «كتاب البحرية» واثبتها في خريطة مفصلة وضعها لكتابه.

(*) وضعت هذا التعريب نزولا عند طلب الاستاذ الفاضل د. ناصر الدين سعيدوني، ولكون پيري ريس مع أهميته ظل بالنسبة للقارئ الجزائري شخصية مجهولة.

(2) نشاط پيري ريس :

شارك پيري ريس مع كمال ريس، وهو شاب صغير، صحبه البحارة الاتراك لنجده مسلمي الاندلس (1487)، بطلب من السلطان بايزيد الثاني (1447-1512م) أن توجهوا باسطولهم إلى "ملقا" Malaga التي استولى عليها الاسبان وقنبلوها[12] وعادوا مرة ثانية (1505) إلى سواحل الجزائر والاندلس وقاموا بترحيل بعض المسلمين إلى مدن سواحل شمال افريقيا وإلى استانبول أين استقروا[13] برعاية من السلطان.

في 1495 دخل كمال ريس رسميا في خدمة الدولة العثمانية فتبعه پيري ريس في مهمته الجديدة[14] إذ في هذه الاثناء دخلت الدولة العثمانية في حرب مع البندقية[15] فأوكلت لكمال ريس مسؤولية كبيرة في البحرية العثمانية، أما بالنسبة لپيري ريس، فلقد فتحت امامه هذه الحرب المشاركة فيما بعد في كل العمليات البحرية التي خاضتها الدولة العثمانية[16].

(3) أعمال پيري ريس :

أما عن أول معركة شارك فيها پيري ريس بعيدا عن خاله، هي المعركة التي واجهت البحرية العثمانية مع البحرية البندقية في خلجان "نافرين" Navarin و"ليپانت" Lepante وقد تمكن پيري ريس، الذي كان يقود عمارة "Escadre" من الفوز على اعداءه، ففتح قلعة ليپانت ثم تلى هذا الانتصار، انتصاره على "مودون" Modon، وهكذا ضمن پيري ريس للدولة العثمانية، أهم القواعد الاستراتيجية في الادرياتيك وبحار الاغريق[17]، فإلى جانب نافرين، ليپانت، مودون نذكر "كورون" Coron و"دورازو" Durazzo[18] و"دراج" Drag فيما بعد[19].

بعد هذا الانتصار الذي اضطر البندقية إلى تغيير سياستها[20] عاد

پيري ريس من جديد للعمل مع خاله كمال ريس، غير أن هذا الاخير لقي حتفه في معركة دارت بين الاسطول العثماني واسطول فرسان القديس يوحنا، إذ تحطمت سفينته وقتل بسبب ذلك (1511 أو 1512)[21].

وهكذا حرم پيري ريس من خاله ومعلمه في آن واحد، لكن التجارب والدروس التي تلقاها في مدرسته، اثناء ممارسة حياته البحرية، لم تذهب سدى، بل ضمنت له وضعية خاصة لدى الباب العالي[22].

توجه پيري ريس بعد وفاة كمال ريس إلى الجزائر من جديد، أين عمل لصالح خير الدين[23] فأصبحت له مكانة خاصة لدى خير الدين، إذ كان يعتبره صديقا له وعالما في آن واحد، ويسميه "بيولداشم Yolda-sim" - بمعنى جنديي - وقد بعث معه الهدايا إلى السلطان سليم الأول (1467-1520م)[24].

بعد قضاء مدة في الجزائر، عاد پيري ريس إلى مسقط رأسه غاليبولي اين اهتم بتدوين معلوماته وبرسم خريطته (خريطة العالم).

غير أن بقاءه بغاليبولي لم يدم طويلا، فقد قام السلطان سليم الأول، بحملته على مصر (1516-1517) فسلمه القيادة، فاستولى على الاسكندرية القاعدة البحرية المصرية، فكان هذا الانتصار فرصة لتعرفه على السلطان، فقام بتقديم له الخريطة التي كان قد رسمها. بعدها عاد إلى غاليبولي حيث انتهى من كتابه "كتاب البحرية"[25].

كانت معرفة پيري رايس لخبايا البحار قد جعلت سلاطين آل عثمان كلما خرجوا إلى البحر يستدعونه، إذ استدعاه مرة أخرى السلطان سليم للمشاركة في حملة على مصر لكن كمرشد هذه المرة، واثناء هذه الحملة تمكن پيري ريس من إطلاع الوزير الأعظم داماد ابراهيم باشا على كتابه، فاهتم به كثيرا وطلب منه اعداد نسخ أخرى، وفي سنة 1526 قدم پيري ريس كتابه إلى السلطان سليمان القانوني (1499-1566) الذي اعجب به كثيرا، فقام پيري ريس على إثر هذا التشجيع برسم خريطة

أخرى وأهداها للسلطان[26].

(4) نهاية پيري ريس :

كانت آخر مشاركة لپيري ريس على رأس الاسطول العثماني، هي الحرب مع البرتغال، في مياه البحر الأحمر 1541[27] وبعد سنتين بدأوا بالهجوم على قلعة عدن (1543). فأبرم أحد شيوخ عدن اتفاقية مع البرتغال، فاستغلت من قبل البحارة البرتغاليين الذين جلبوا اسطولهم من الهند.

ولما كانت عدن منطقة استراتيجية تتحكم في مضيق "باب المندب" وتعتبر بوابة اليمن، إذ منها يمكن ضمان حماية اليمن والبحر الاحمر، فإن الباب العالي سلم لپيري ريس لقب "قبطان الهند" وكلفه باسترجاع عدن (1547)[28]. فاسترجعها في 1548.02.26[29].

بعد توجه پيري ريس إلى مسقط مع 31 سفينة - 24 منها سفينة حربية - وكان البرتغاليون قد احتلوها أيضا (1552)[30] فتمكن پيري ريس من استرجاع مدينة مسقط[31] التي تعتبر اقرب مكان من هرمز، وتعد هي الاخرى منطقة استراتيجية، بحيث تتحكم في مراقبة المواصلات التجارية والحربية في خليج البصرة (الخليج الفارسي)[32] غير أنه، اثناء معركة بحرية دارت رحاها بين اسطول پيري ريس والاسطول البرتغالي، بالقرب من جزيرة هرمز، تلقى الأسطول العثماني ضربات قاضية نظرا لتفوق الاسطول البرتغالي، ومع ذلك لم ينسحب پيري ريس ولم يستسلم إلا بعد سماعه بوصول تعزيزات الأسطول البرتغالي المتواجد بالهند، فتوجه إلى البصرة وأودع ما تبقى من سفن للإصلاح هناك[33] غير أن حاكم البصرة أرغم پيري ريس بمغادرة المدينة، فأخذ معه 3 سفن مجهزة تحطمت واحدة منها في البحر، ووصل بالسفينتين المتبقيتين إلى السويس بمصر (1553)[34]، أين كانت نهايته، إذ أتهم پيري ريس بالتواطؤ مع البرتغال وابلغ هذا الامر إلى الباب

العالي فأصدر السلطان سليمان القانوني حكما يقضي بإعدامه، وبالفعل أحضر پيري ريس من السويس إلى القاهرة أين نفذ فيه قرار الاعدام[35] (1553 أو 1554) عن عمر يناهز 86 أو 89 سنة، وبذلك انتهت حياة هذا البحار الذي ارتقى من عقيد بحوي وربان سفينة، إلى قبطان وقائد اسطول الهند ومستشار حاكم مصر، وخاض غمار معارك بحرية كبيرة وحاول وقف التوسع الاسباني بغرب المتوسط والبرتغالي بالبحر الأحمر والخليج العربي.

وكانت نهايته الموت بفعل الوشاية وتحول الحكام عنه، شأن الكثير من رجالات الدولة العثمانية.

(5) كتابه "كتاب البحرية" :

– وضع پيري ريس هذا الكتاب الذي اشتهر به لأول مرة سنة 1521، ونقحه وأضاف له سنة 1525[36] وقدمه للسلطان سليمان القانوني سنة 1526.

– اهتم الغرب منذ القرن 18 بكتاب البحرية، إذ قام بتحقيقه "كاردون Cardonne" وهو مترجم وسكرتير وزارة الخارجية الفرنسية، ولمكتبة الملك (1756)، وعنونه بـ "Le flambeau de la Méditerranée" أي "مشعل البحر المتوسط".

– وهو مازال موجود على شكل مخطوط في المكتبة الوطنية بباريس ويحمل رقم FF.22279[37].

– كما قام الالماني "كهل Kahle" في سنة 1926 بترجمة جزء منه إلى الالمانية[38].

– وقد ترجم الجزء الخاص بالجزائر وتونس من قبل "مونتران R. Mantran" وإسين E. Esin[39].

– طبع الكتاب باللغة التركية الحديثة، في جزئين تحت عنوان "كتاب البحرية Denizailik kitabi" أي "كتاب فن الملاحة البحرية"[40] (1973).

و"كتاب البحرية" موجود حاليا في نسخ متعددة في مكتبة قصر "طوب قبي Top Kapi" باستنبول ويحمل أحدهم رقم R.1163.

ينقسم الكتاب إلى قسمين، مع مدخل وخاتمة منظومة شعرا.

فالقسم الأول يحتوي على معلومات حول صعوبات الملاحة، مد البحر وجزره، الرياح، العواصف البحرية، وأماكن الرسو.

أما القسم الثاني ففيه وصف دقيق للسواحل، مصحوب بمعلومات عن الموانئ، المراسي، كيفية دخولها، مؤكدا بالخصوص على الارصفة الصخرية (أو الصخور الطافية)، الرؤوس، أعلى الاعماق، الجزر.. إلخ وقد ارفق هذا الوصف لخرائط كثيرة، التي أضاحت القصة أو المضمون[41] ويوجد وصف الجزائر ضمن هذا القسم الثاني "المرسى الكبير وهران، مستغانم، برشك، شرشال، الجزائر، دلس، تنس، بجاية جيجل[42] عنابة ومرسى الخرز".

تعود أهمية كتاب البحرية لبيري ريس لدقة وصفه ولكونه استعان ببعض الكتاب وصياغة معلوماته البحرية[43] فضلا عن إستغلاله للمصورات الجغرافية التي عرفت في عهده، وهذا ما جعل بيري ريس أول الجغرافيين العثمانيين الذين اهتموا بالملاحة وبوصف الموانئ البحرية، من حيث طبوغرافيتها وسكانها وما كانت تتميز به من نشاط اقتصادي واجتماعي، وهذا ما جعل من كتاب البحرية مصدرا أساسيا ومرجعا ضروريا للتعرف على أوضاع الملاحة بالمتوسط عامة وبلاد المغرب ومنها الجزائر خاصة في فترة بداية العصور الحديثة (نهاية القرن 15 وبداية 16م) التي عرف فيها العالم تحولا وتغيرا" من حيث القوى السياسية والامكانيات الاقتصادية.

الهوامش

(1) Afetinan, A. Piri Reis in hayate ne eserleri, Amerikan en eski haritasi, 3 baski, Ankara, Turk Tarik Kurumu Basimeri, 1987, p.56

(2) Uzungarsili Ismail Hakki, Osmanh Tarihi, Icilt, 5 Baski Ankara, Turk Tarih Kurumu Basimeri, 1988, nt1, p.492.

– Esin Kamel, "la description des cotes algériennes de Piri Reis" in studies on Turkish-Arab Relations, 1986, p.48,

– Mantran Robert, "la description des cotes de l'Algérie dans le Kitab Bahriya de Piri Reis" in, Revue de l'Occident Musulmsn et de la Mediterranée, 1973, p.159.

(3) Mantran R. o.p.c.i.t, p.159

– Bayrak okhan, Osmale tarihi yazarlari (Biyografi ne bibliografi)? Osmali yayinevi, 1982, p.181.

يلماز اوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة، عدنان محمود سلمان ومحمود الانصاري، المجلد الاول، تركيا، استانبول، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، 1988، ص 333 .

(4) لعبت شبه جزيرة غاليبولي دورا كبيرا في التوسعات العثمانية، بحيث اصبحت قاعدة لزحفهم نحو جنوب شرقي أوروبا (روميلي Rumeli) أنظر عمر عبد العزيز عمر، دراسات في تاريخ العرب الحديث، الشرق العربي من الفتح العثماني حتى نهاية القرن الثامن عشر، بيروت، دار النهضة العربية، 1980، ص 37 .

(5) لا يعرف بالضبط سنة ولادته.

(6) هناك من يذكر بأنه عمه، لكن معظم المصادر تذكر بأنه خاله من ضمنهم: كاتب چلبي حاجي خليفة، تحفة الكبار في اسفار البحار، مطبعة بحرية ده طبع أو لمشدر، مارس 1329، ص، أنظر الاصل ص 2 Yilmaz Oztuna, Barbaros hayreddin pasa'nin hatira-lari Istambul.

(7) هو احمد بن علي المعروف بكمال ريس، من أشهر بحارة وأميرالات الدولة العثمانية ولد في غاليبولي يعتبر مؤسس المدرسة البحرية العثمانية، قام بتعزيز الاسطول العثماني وتقويته ببناء سفن حربية، وهو الذي ادخل إلى البحرية العثمانية المدفع ذو القذف البعيد. زار تقريبا كل سواحل البحر المتوسط، قاد الاسطول العثماني في عدة حروب، منها الحرب مع البندقية ومع فرسان القديس يوحنة. وقام بدور فعال في نجدة مسلمي الاندلس وترحيلهم إلى سواحل شمال افريقيا واستانبول. توفي كمال ريس في البحر في 1511 أو 1512، أنظر: Esin, E. o.p.c.i.t p.49

Goyug Nejat, "Kemal Reis" in Encyclopédie de l'Islam nouvelle édition, TIII, p. 914, 915.

يلماز، ص 196 .

(8) Afetinan A. o.p.c.i.t, p. 56

– Mantran R. o.p.c.i.t, p. 159

(9) Afetinan A. o.p.c.i.t, p. 56

(10) وقد تكون أول رحلة قام بها مع خاله نحو سواحل المغرب في سنة 1487، أنظر Mantran R. o.p.c.i.t p.159

(11) Afetinan A. op.cit, p. 56

(12) يلماز أ. ص 196 .

Esin E. op.cit,

p.49,

Hammer J.D., Histoire de l'Empire Ottoman depuis son origine jusqu'a nos jours, T. IV, Paris 1836, p.21.

(13) Esin E. op.cit, p.49

(14) Afetinan A. o.p.c.i.t p. 56

(15) كانت أول حرب بحرية دارت بين الدولة العثمانية والبندقية في سنة 1416 . أنظر: Ozun-garsili T.H., op.cit, p.353-355

(16) Afetinan A. op.cit, p. 57

(17) بعد تحطيم البندقية في الشرق، اصبحت الدولة العثمانية سيدة على كل الاغريق وزاد من نفوذها في ألبانيا، كما أصبحت قوة بحرية يحسب لها ألف حساب. أنظر: Vatin Nicolas "L'ascension des Ottomans (1451-1512)" in histoire de l'Empire Ottoman, sous la direction de Mantran Robert, Fayard, 1989, p.113.

(18) Afetinan A. op.cit, p. 57

(19) تم فتح دراج Drag التي تعتبر أخر قاعدة للبندقية في ألبانيا في 1502.08.13 أنظر يلماز، ص 200

(20) Brummett Palmyora, "The transformation of venetran diplomatic policy prior to the conquest of Cairo (1503-1517)" in studies on Ottoman diplomatic history, 1987, p.11-26

(21) – Afetinan A. op.cit, p. 57

– Esin E. op.cit, p.49

– Goyug N. op.cit, p.915

(22) Afetinan A. op.cit, p. 57

(23) Esin E. op.cit, p.49

Mantran R. "Description..." o.p.c.i.t p.160

Yilmaz O. op.cit, pp.30-31

(24) كاتب چلبي، ص 27.

(25) Afetinan A. op.cit, p. 57

(26) Ibid, p.58

(27) Ibidem,

(28) Ibidem,

(29) يلماز، ص 333

(30) نفسه، ص 333

(31) غير أن البرتغاليين قد عادوا واحتلوها واحزجوا منها نهائيا في سنة 1650

(32) Afetinan A. op.cit, p. 58

(33) Afetinan A. op.cit, pp. 58-59

(34) Adnan Adivar Abdulhake, Osmale Turklerinde ilim, Istambul, Remzi kitaburi, 1982, 9.84.

Afetinan A. op.cit, p. 59

(35) كاتب چلبي، ص ص 61-62، يلماز، ص 334 .

Mantran R. "Description..." op.cit, p.159

Afetinan A. op.cit, p. 59

Esin E. op.cit, p.50

Adnan Adivar A. op.cit, p.84

(36) Mantran R. "Description..." op.cit, p.160

Adnan Adivar A. op.cit, p.78.

Adnan Adivar A. La science chez les Turcs Ottomans, Paris, Maison Neuve 1939 p.63

(37) Mantran R. "Description..." op.cit, p.159

Adnan Adivar A. op.cit, p.67.

(38) Adnan Adivar A. op.cit, p.63.

(39) أنظر الترجمة الخاصة بتونس : Esin E. "La géographie tunienne de Piri Reis" in cahiers de Tunisie, 1981, t 29.

(40) Senemoglu Yavuz, Kitabi Bahriyye "Denizilik kitabi" Piri Reis, 1973.

(41) Mantran R. "Description..." op.cit, p.160.

(42) قضى شتائين ببجاية وجيجل صحبة خاله كمال ريس.

(43) استعان بمرادي أحد كتاب غزوات خير الدين عندما وضع كتابه وهذا ما جعل اسلوبه يتميز بالوضوح والدقة.

نظرة في الفكر السياسي
عند ميكافيلي

د. محمد لحسن زغيدي

كانت دراسات ميكافيلي للتاريخ محل استنباطه في معالجة الكثير من القضايا، واستخلص منه الكثير من العبر والحكم، فقد كان لا يعطي رأياً دون أن يسنده بشاهد تاريخي أو أكثر.

يدل هذا على أن ميكافيلي محلل وناقد للأحداث التاريخية فعرف كيف يستفيد منها في الحياة اليومية.

وفي هذا الصدد يقدم نصيحة بأن: «العالم القديم يقترح لنا كنموذج ليس فقط من أجل تحديد فن العمارة وفن الرسم بل كذلك في المضمار السياسي، يجب العودة إلى الفضيلة الرومانية». فقد كانت الأمثلة التاريخية التي يستند إليها معظمها مستمدة من تاريخ الأمبراطورية الرومانية في عهودها القديمة، حينما كانت أكبر إمبراطورية عالمية، يراها كنموذج يجب الاقتداء به، لا من الناحية الفنية فقط، بل من الناحية السياسية، خاصة في عهده حينما كانت إيطاليا ضعيفة مجزءة.

كما حقق انفصال التفكير السياسي عن الأخلاق انفصالاً بينا، واكتشف اتساق السياسة في قوانين ثابتة لا تتغير، معتمداً في ذلك المنهج الموضوعي، مستمداً مادته من تحليل ومراجعة التاريخ الروماني، ومن ملاحظاته لسياسات الدول المعاصرة له.

ويتضح لقارئ آثار ميكافيلي أن يجد مثلاً على تلك التحديات والانتقادات التي قدمها للأفكار الوسيطية، ففي حين كان قادة الكنيسة يرون أن سادة العالم

الزماني، يجب أن يخضعوا لسلطة المراتب الروحية، كان ميكافيلي على عكس ذلك، حيث يقدم الفكرة القائلة: بأنه ليس لدى سادة السياسة ما يقدمون عنه حساباً للسلطة الروحية.

كما كان يحلم بتوحيد إيطاليا، مقتنعاً بأن التاريخ يتجه إلى تكوين مجموعات سياسية أكبر، ولذلك كان يتهم الكنيسة بأنها تثبت الانقسامات وترعاها.

وهاجم الكنيسة كذلك بعنف، متخذاً كنقطة انطلاق «الفضيلة»، إنه يسبق نوعاً ما حملة نيتشة ضد أخلاق العبيد، ويغضب ميكافيلي ضد الفضيلة المسيحية، بل وضد فكرة الرعايا المسيحية ما دام لا يرى أثر لرعاية إلهية في العالم: العالم يحكمه «قدر أعمى» «دولاب الحظ» – العالم يضيع في الفوضى – ويضع ميكافيلي مقابل القدر الأعمى «الفضيلة» التي هي وحدها تستطيع أن تسحب منه أفضل كسب، «الله يفعل بالضبط ما يفعله الأمير، إنه يضع يده في عجلة المصير المسننة إنه الرعاية «Providence» ».

وفي هذا الصدد يقول كذلك في كتابه الأمير: «ليس لدى البشر إلا القليل من الفضيلة يعرض الحظ قوته بما أنه يتغير، فالدول الجمهورية تتغير كثيراً. وسوف تستمر في التغير إلى أن ينهض أخيراً رجل يحب العصر القديم لدرجة سيصحح معها سير الحظ».

كل هذا يشير إلى مدى تعلق ميكافيلي وتأثره بالتاريخ القديم، حيث لا يصلح المجتمع إلا على أيدي رجال يمجدون الماضي، ويطلعون على مناقبه بدراستهم للتاريخ وحبهم له، حيث يأخذون منه العبر، حتى يتفادون الأخطاء التي وقع فيها أسلافهم، وينتفعون بتجربتهم في حياتهم اليومية، وتطلعاتهم المستقبلية.

ويلاحظ على ميكافيلي إعراضه عن الدين وطقوسه إيثاراً منه للجوانب العلمية، ولفكرة أن اللذة غاية الحياة، وكان هذا طابع عصر النهضة، كما أنه سمة العقلية الغربيــة الحديثة، ويعتبر ميكافيلي مبتدع النظرية السياسية الحديثة لأسباب منها:

أولاً: كان ميكافيلي أول من أقدم على قطع كل صلة بفكر كاثوليكية العصور الوسطى.

ثانياً: الدولة عنده هي ذاتية طبيعية توجد وتبقى من خلال تفاعل قوى طبيعية، وعلى الحاكم أن يتفهم كنه هذه العوامل وينتفع بها، إن أراد لنفسه ولدولته العيش في سلام في خضم المنافسة القاتلة.

ثالثاً: أشار إلى فكرة السيادة وإلى الدولة القومية الإقليمية وجاء ذكر ذلك وقتما أعرض تماماً عن الفكرة الاقطاعية القائمة على وجود درجات مركبة من الذاتيات السياسية مستقلة بنفسها وتغني عن وجود سلطة مركزية.

رابعاً: كان ميكافيلي أول من نادى بأن المنفعة أساس العلاقات الدولية، وليس ثمة مكان للسنن الخلقية.

إن الغضب الذي كان يحمله ميكافيلي على الدين ورجاله يعود إلى أسلوب الكنيسة ورجالها، ومعاملتها للآخرين، فشوهت المفهوم الحقيقي للدين، بسبب تنافس رجالها على السلطة والجاه والمال، دون اعتبار للفضيلة والمعنى الحقيقي للدين، في ظل ذلك التشويه الديني نشأ ميكافيلي، وكمثقف عرف حقيقة الأمر فحقد على الكنيسة ورجالها، لكنه لو تسنى وعرف الإسلام كما عرف المسيحية لكان رجلاً آخر في فهمه للفضيلة، ورؤيته للأمور، ولكان من السباقين في اعتناقه، لما يحتويه من ذم للشعوذة، وأكل أموال الناس بالباطل، وحثه على الوحدة وتمجيده إياها، وهي الضالة التي كان يبحث عنها ميكافيلي.

فقد كان من دعاة السلطة المطلقة في إيطاليا سنة 1513، حيث نادى بنظريته في الأمير المستبد الذي يحكم بالقوة حتى يحقق وحدة الدولة، ويكفل لها الرخاء ورسوخ السلطان، وشايعه في ذلك بودان سنة 1576 في فرنسا فدافع عن سيادة الدولة ومجد سلطانها، فهي تسمو على الأفراد وتعلو على القانون.

ولا ريب أن ميكافيلي يعالج الظروف حسب ما تقدم، على حسب ما هو موجود في عصره، من أوضاع سياسية منحلة، فهو يرى في وجوب القائد القادر على السيطرة وجعل مصلحة الدولة وحريتها فوق اعتبار انساني كان أم خلقي.

فيقول في هذا الصدد: «وحيث يتعلق الأمر بسلامة البلاد يجب على السياسي ألا يلقي أي اعتبار للعدل أو الظلم، وللشفقة أو القسوة، وللمجد أو العار: عليه أن ينحي هذه الاعتبارات التجريدية عن تفكيره تماماً، وأن تسيطر عليه مسألة واحدة تتركز في الحفاظ على كيان الدولة وحريتها».

ويرى كذلك أن ما هو شر من وجهة نظر الدين والخلق الكريم، قد يكون خيراً من وجهة نظر رجل الدولة، إن حقق هدفه في إحرازه للسلطة، وصونها، وتنميتها.

ومن رأيه في أن عوامل النجاح أو الأخفاق، تكمن في طريقة اتفاق السلوك مع تطورات العصر.

وبهذا يجعل ميكافيلي الحاكم الناجح هو الذي يسير وفقاً لتطورات ومقتضيات العصر والحاجة، لأنه في عصره كانت القوة هي سيدة الموقف ولذلك جاءت توصياته ونصائحه تشير إلى أن يكون الحاكم قوياً مستبداً لتقوية دولته في كل المجالات، حتى لا تكون مطمعاً للأعداء سهلة المنال، من هنا جاءت تأكيداته على القوة العسكرية بصفة خاصة وكعامل أساسي في تقوية الدولة والحاكم.

لقد تأثر بميكافيلي أصحاب السلطة والفكر وأهل النفوذ، وغذوا أنفسهم بأفكاره وكتاباته خاصة كتابه «الأمير»، ومن بينهم على سبيل المثال:

ـ الأمبراطور الإسباني شارل الأول (1508ـ1558)، الذي شجع توزيع «الأمير» في إسبانيا.

ـ وكانت الملكة الفرنسية ـ الإيطالية الأصل: كاترين مديتشي (1519 ـ 1589)، تعتبر «الأمير» كتابها المقدس، حيث كانت معجبة بميكافيلي، فعملت على نشر كتاب «الأمير»، كما أن مذبحتها للبروتوستانت في احتفالهم بعيد ديني عام سنة 1572 حمل الكاثوليكيين بالهجوم على ميكافيلي، حيث اعتبروه المسؤول عن ذلك ـ كما اعتبروه المسؤول الأول عن مساوئ ملوك فرنسا: هنري الثاني، وشارل التاسع، وهنري الثالث.

إن هذه المذبحة التي تحمل ميكافيلي مسؤوليتها ومساوئ ملوك فرنسا، ترجع إلى كره الكاثوليكيين له، وكانت على رأس كارهيه الكنيسة التي هاجم أعمال رجالها التخريبية.

وقد عثر على كتاب «الأمير» عند كل من هنري الثالث، وهنري الرابع ملكي فرنسا عند قتلها.

كما أعجب به ريشليو (1585 ـ 1642) ـ الذي حكم فرنسا بوصفه وصياً على العرش، كبير الوزراء، في عهد لويس الثالث عشر ـ إعجاباً شديداً.

فحكم لويس الرابع عشر الملقب بالعاهل الأعظم، زمناً لا نظير له في الطول، حيث حكم اثنان وسبعون سنة من 1643 ـ 1715)، وكان يقوده بالرأي وزيره «الميكافيلي» الكاردينال مازارين، وبعد وفاته أصبح هو نفسه وإلى جانبه كتاب «الأمير».

وقد عرف نابليون الأول «بونابرت» (1769 ـ 1821) كتاب «الأمير» كما عرف كتاب «المطارحات» وجعلها في مقدمة أجود ألف كتاب انتقاها لتؤلف له مكتبة متنقلة.

واتبع الأمبراطور نابليون الثالث (1808 ـ 1873) في سياسته نفس القواعد التي وضعها ميكافيلي.

كما كان ميكافيلي هو المسيطر على ألمانيا، عن طريق تقاليد فريدريك الأكبر (1712 ـ 1786)، حيث كان يحترق شوقاً إلى القوة، وكانت ألمانيا البروسية خيرة الدول في زمانها وأشدها شراً، وكان لها جيش قوي، حسن التدريب، وكان ملكها ممن أعطوا ميكافيلي حظاً كبيراً من التفاتهم وعنايتهم، رغم أنه كتب كتابه «ضد ميكافيلي».

وفي إيطاليا نجد ماتسيني «Mazzini» يبشر بالوحدة وبإيطاليا جمهورية غير مجزأة.

ـ وداتسجليو «Dazefeo» يحض على إحياء الوطن.

ـ وجيستي «Guisti» يجيب على من يصور إيطاليا ميتة بقوله: «يا حبذا مقبرة كريمة تجعل الأحياء يغتبطون بها».

ـ وكافور «Cavour» يقول: «ما أنذلنا إذا فعلنا من أجل أنفسنا ما لم نفعله من أجل الوطن».

فإن كافور وكل زعماء إيطاليا يؤمنون بأن ميكافيلي رسول الوحدة الإيطالية، ويحنون أيام كانت فيها روما سيدة العالم، وقد اعتبروا ميكافيلي عظيم لم يفهم، عانى العذاب من أجل حرية الوطن.

كما أن إيطاليا جعلت منه بطلاً في ذكراه الأربعمائة، وذلك عام 1866، واحتفلت به، احتفالاً رائعاً، ووضعت فلورنسا على قبره لوحة كتبوا فيها: «لا مديح يسمو إلى قدر هذا الرجل العظيم».

ولم يقتصر تأثير ميكافيلي على حكام الغرب فقط، بل أثر في بعض حكام المشرق كذلك.

فمحمد علي الكبير حاكم مصر، عرف أهمية كتاب «الأمير» فكلف الأب روفائيل انطوان زاخور بترجمة الكتاب إلى العربية في حوالي عام (1824 ـ 1825)، كما ذكر هو بنفسه بأنه «جد مشوق لمعرفة ما يتضمنه هذا الكتاب»، كما ذكر محمد علي لدبلوماسي إيطالي: «أعترف بأنني وجدته أقل بكثير مما كنت أتوقع... وأن أعلن إليك أيضاً إن هناك مؤلفاً آخر عربياً أثار دهشتي ونال إعجابي.. هو مقدمة ابن خلدون».

إن رأي محمد علي حول كتاب الأمير، لا يعتبر تحقيراً أو تقليلاً من قيمة الكاتب أو الكتاب، وإنما يرجع إلى عدم صحة الترجمة إلى العربية التي كانت ضعيفة جداً، مما شوه حقائق الكتاب بعد ترجمته إلى محمد علي.

كذلك أن عدداً من القادة والسياسيين كانت أسلحتهم وأساليب نجاحهم مما عينه ميكافيلي وعنى به، أمثال: كلمنصو، وموسوليني، وستالين، ولينين، وهتلر، ومصطفى كمال أتاتورك.

يتضح مما سبق أن ميكافيلي وأفكاره أكبر الأثر في تاريخ كبار القادة من القرن السادس عشر إلى القرن العشرين، فقد سلك معظمهم آثاره، وتعلقوا بأفكاره، وكان خير مستشار لهم في شؤونهم السياسية والعسكرية.

كما يتضح أن أكثر القادة تعلقاً بميكافيلي وأفكاره، الحكام الفرنسيون، وهذا ربما يرجع إلى وضع فرنسا، التي كان حكامها في حاجة إلى دليل سياسي يوجههم، ويثبت حكمهم، فوجدوا مبتغاهم، في أفكار ميكافيلي، فاعتنقوا مذهبه، وساروا على هديه.

فميكافيلي لم يتعلق به أصحاب السياسة فقط، بل حتى المؤرخين والأدباء والمفكرين تعلقوا به، فجاءت أفكارهم وكتاباتهم حوله تعبر عن ذلك.

المراجع المعتمدة:

- ميكافيلي (نيقولا) مطارحات ميكافيلي، تعريب خيري حماد ط 3 بيروت 1979.
- البان ويدجيري، المذاهب الكبرى في التاريخ ترجمة ذوقان قرقوط ط 1 بيروت 1972.
- أنست بلواخ فلسفة عصر النهضة، ترجمة إلياس مرقص ط 1 بيروت 1980.
- فاروق سعد، الأمير نيقولا ميكافيلي، تراث الفكر الإنساني قبل الأمير وبعده ط 10 بيروت 1979.
- محمد فؤاد الشبل، الفكر السياسي دراسة مقارنة للمذاهب السياسية والاجتماعية ج 1 القاهرة 1974.
- منير حميد البياتي، الدولة العثمانية والنظام السياسي الإسلامي، بغداد، 1977.
- ولز هـ. ج. معالم تاريخ الإنسانية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاوية، المجلد الرابع (التاريخ الحديث 1600 ـ 1965) ط 3، القاهرة 1965.
- إبراهيم درويش، النظام السياسي ج 1 ط 2 القاهرة 1969.
- جورج هـ سباين، تطور الفكر السياسي، ترجمة راشد البراوي، الكتاب الثالث القاهرة 1971.

«مواقف الدول من الإحتلال الفرنسي للجزائر»

د. أرزقي شويتام

لقد اتخذت عدّة دول مواقف متباينة من احتلال فرنسا للجزائر عام 1830م. ويهمنا في هذه الدراسة معرفة موقف الدولة العثانية ودول المغرب العربي وبعض الدول الأوربية.

أولاً: موقف الدولة العثانية:

نستهل عرض هذه المواقف بموقف الدولة العثانية باعتبارها صاحبة السيادة على الجزائر منذ عام 1518م والمعنية الأولى قبل أية دولة أخرى. يرجع تاريخ تدخل الدولة العثانية في مشكلة الجزائر إلى أيام الحصار الفرنسي للسواحل الجزائرية. وكان الباب العالي آنذاك يتتبع بكل اهتمام تطورات الأزمة الفرنسية الجزائرية. ولما رأى أن الخلاف بين البلدين زاد حدّة وتوترا، أوفد خليل أفندي مبعوثا إلى الجزائر في شهر نوفمبر عام 1829 (1). وقد كلّف هذا الأخير بتسوية الخلاف القائم بين فرنسا والجزائر، كما طلب منه أن يخبر الداي حسين، حاكم الجزائر، (1818 ـ 1830)، بأن لا يتدخل في النزاع الناشب بين النمسا ومراكش(2).

عندما وصل خليل أفندي إلى الجزائر، قام بعدّة مباحثات مع الطرفين المتنازعين، إلا أنه لم يتمكن من الوصول إلى حل يرضيهما. وعلى أثر فشل مساعيه، عاد إلى استانبول (3). وقد يرجع سبب فشل خليل أفندي في مهمته إلى شروط فرنسا المجحفة التي تصر على إعادة حق صيد المرجان وإقامة منشآت مسلحة ونحو ذلك في الجزائر(4).

وفي نفس الوقت، كان السفير الفرنسي في استانبول السيد «قييومينو» يقوم بعدّة إتصالات مع الباب العالي قصد

الحصول على فرمان سلطاني، يوافق فيه السلطان على حملة محمد علي، باشا مصر، على الأقطار المغربية (طرابلس وتونس والجزائر). وحول هذا الموضوع، قدم السيد «قيوميتو» مذكرة إلى رئيس الكتاب العثماني، جاء فيها «أن فرنسا ستبدأ الحركة ضد الجزائر من البحر والبر إذا رفض الباب العالي هذه الخطة» [٥]. إلا أن جواب الباب العالي كان صارما، إذ قال على لسان رئيس كتابه «أنّه لا يجوز إرسال عساكر إلى أرض مطيعة للدولة العثمانية» [٥].

بعد أن فشل خليل أفندي وقيوميتو في مهمتهما، إقترح الباب العالي على السفير الفرنسي حلا لتسوية الخلاف القائم بين فرنسا والجزائر. وقد تمثل هذا الحل في اختيار مبعوثين أحدهما عثماني والآخر فرنسي لإرسالها إلى الجزائر لإيجاد حل للأزمة الفرنسية الجزائرية. وتنفيذا لهذا الإقتراح كلّف الباب العالي في شهر مارس عام 1830، طاهر باشا بالسفر إلى الجزائر. بينما اعتذر السفير الفرنسي عن عدم تمكنه إرسال مبعوث فرنسي. وكل ما فعله هو تسليم رسالة إلى المبعوث العثماني، موضحا فيها مهمة هذا الأخير، كما طلب من قائد الحصار عدم منع طاهر باشا من دخول مدينة الجزائر. وكان تسليم هذه الرسالة بطلب من رئيس الكتاب العثماني حميد باي[٦].

وبعد هذه الترتيبات التي قام بها الباب العالي، سافر المبعوث العثماني إلى الجزائر، بعد أن زوده السلطان بخطاب موجه إلى محمد علي يطلب فيه استفسارات عن المشروع الذي اقترحه عليه الفرنسيون، والمتعلق بغزو الجزائر. كما أعطى السلطان طاهر باشا فرمانا مطولا [٥] بيّن له فيه الأهداف المرجوة تحقيقها من وراء مهمته في الجزائر. كما زوّده بتعليمات محددة ودقيقة توضح له كيف يؤدي مهمته، وهي مؤلفة من خمس نقاط أساسية هي:

1 ـ عندما يصل الباشا إلى المياه الإقليمية الجزائرية يحاول التباحث مع قائد الحصار الفرنسي لتسوية الخلاف.

2 ـ فإن رفض القائد، فعليه أن يطلب من الحكومة الفرنسية تعيين موظف له صلاحية التباحث مع طاهر باشا، ويدخل مدينة الجزائر.

3 ـ يبين طاهر باشا لعلماء وأعيان الجزائر الأخطار التي ستترتب عن الحرب بين الداي وفرنسا. كما يذكر بإرادة ورغبة السلطان في حل النزاع بطرق سلمية.

4 ـ إذا كان الجزائريون يرون أن شروط فرنسا مجحفة على طاهر باشا أن يتباحث مع

الموظف الذي سترسله الحكومة الفرنسية لهذا الشأن.

5 ـ وإذا لم يتوصل الطرفان إلى تفاهم، فإن على طاهر باشا أن يخبر الباب العالي عن الوضعية بتوجيه رسالة إلى السلطان، ولكن عليه قبل كل شيئ أن يعمل ما بوسعه لانجاح مهمته [٥].

وقد قيل أن هناك تعليمات سرّية سلمها السلطان إلى طاهر باشا. كان مفادها هو الإستيلاء على الحكم وإعدام الداي حسين إذا اقتضى الأمر ذلك [١٥]. لكن لحد الآن ليست هناك وثائق تؤكد صحة أو بطلان هذه التعليمات.

وعلى أية حال، فإن القائد الفرنسي الذي كان يشرف على حصار السواحل الجزائرية «دوكليرفال De clairval» قد منع طاهر باشا من الدخول مدينة الجزائر [١١]. ولم تشفع له تلك الرسالة التي سلمها إياه السفير الفرنسي في استانبول، ولا تعليمات السلطان. ورغم ذلك العائق الذي اعترض سبيل طاهر باشا، فإنه حاول الإلتحاق بالجزائر براً عن طريق تونس، إلا أن حاكم تونس، باي حسين، منعه هو الآخر من النزول بتونس، لأن الفرنسيين كانوا قد أخبروه بأن الأتراك إذا قاموا بربط الإدارة الجزائرية مباشرة إلى الدولة العثمانية، فإنهم سوف يطبقون نفس النظام في تونس أيضاً، ويلغون نظام باي البايات المطبق منذ زمن قديم [١٢].

وعلى اثر فشل طاهر باشا في مهمته، إتجه إلى مدينة «طولون الفرنسية». وفي طريقه إلتقى بالأسطول الفرنسي المتوجه إلى الجزائر. وقد قيل أن طاهر باشا عبّر عن أسفه لقائدي الحملة الفرنسية «دوبورمون ودوبيري»، لعدم تمكنه من دخول مدينة الجزائر. وقد قال لهما أن حضوره كان كافيا لحل النزاع بطرق سليمة[١٣].

وعندما وصل طاهر باشا إلى طولون، قام بعدّة اتصالات مع السلطات الفرنسية، إلا أنه لم يجد أذنا صاغية، خاصة في تلك الظروف التي بدأ فيها الأسطول الفرنسي تحركه صوب مدينة الجزائر.

حاول المبعوث العثماني طوال المدة التي مكثها في طولون أن يتصل بملك فرنسا «شارل العاشر»، ليعرض عليه محتوى تعليمات السلطان العثماني، لكن السلطات الفرنسية رفضت الإعتراف به كمبعوث رسمي للباب العالي، بل فضلت أن تحتجزه في مدينة طولون، وهذا ما تؤكده رسالة وزير الخارجية الفرنسية إلى طاهر باشا في

أول يوليو عام 1830، حيث جاء فيها «أنكم لم تردوا على السؤال الأول والأساسي الذي تشرفت بطرحه عليكم حتى أعرف إذا كنتم تتمتعون بكل الصلاحيات التي تؤهلكم للتباحث مع فرنسا في المسائل المتعلقة بحرب الجزائر؟»[14].

وبعد أن فشل طاهر باشا في مهمته ومساعيه، لم يبق له إلا أن يخبر الباب العالي بنتائج مهمته.

لقد حاولت الإدارة الفرنسية عرقلة طاهر باشا في مهمته منذ أن قرّر الباب العالي إيفاده إلى الجزائر «لأن الفرنسيين كانوا يخافون من دخول طاهر باشا مدينة الجزائر لأنه لو دخلها وتمكن من إقناع الجزائريين بقبول الشروط الفرنسية تكون المشكلة قد انتهت، ولم يبق مبرر لا للحصار ولا للحركات العسكرية التي لجأت إليها فرنسا لإرغام الجزائر على قبول شروطها»[15].

وأول من حاول عرقلة طاهر باشا في مهمته، هو السفير الفرنسي في استانبول، إذ تماطل في تسليم الرسالة التي وعده بها في الوقت المناسب حتى تأكد أن بلاده مستعدة لغزو الجزائر، وأن طاهر باشا لن ترافقه في رحلته سوى باخرة حربية واحدة، وعدد قليل من الرجال والعتاد. لاشك أن هذه المماطلة كانت من وحي الإدارة الفرنسية بباريس. وقد رأينا أن القائد الفرنسي الذي كان يشرف على عملية الحصار للسواحل الجزائرية منع طاهر باشا من الدخول إلى مدينة الجزائر. وكان ذلك بأمر من وزير البحرية الفرنسية «البارون دهوسي D'Haussez» الذي اعترف في مذكراته بهذه الحقيقة حيث قال «عندما علمت بسفر طاهر باشا، أصدرت الأمر لقائد الحصار بمنع هذا الأمير من الدخول إلى الجزائر. وأن التنفيذ المنتظم لهذا الإجراء قد أزاح إحدى الصعوبات الكبرى التي كانت من الممكن أن تواجهها الحملة»[16].

نلاحظ مما تقدم، أن تحركات الإدارة الفرنسية لإفشال مهمة طاهر باشا كانت منسقة ومدروسة، ويتجلى ذلك في التفاهم والتنسيق الذي وقع بين «قيومينو» في استانبول، وقائد الحصار في الجزائر والإدارة الفرنسية في طولون. فلما تأكد «قيومينو» أن بلاده احتلت الجزائر، أخبر الباب العالي بذلك في شهر أوت عام 1830[17]. وعلى إثر ذلك الخبر، دخل الباب العالي في المباحثات مع السفير الفرنسي قصد استرجاع الجزائر. لكن لم يتوصل الطرفان إلى أية نتيجة تذكر بسبب

الشروط القاسية التي كانت تطالب فرنسا الباب العالي بها مقابل تخليها عن الجزائر[18].

وعلى أية حال، ورغم الظروف الخطيرة التي كانت تمر بها الدولة العثمانية، فإنها واصلت مباحثاتها مع عدة جهات. فأرسلت رشيد باشا إلى باريس كسفير، وطلبت منه الإتصال بالحكومة الفرنسية وبكل من يعنيه الأمر، أمثال حمدان بن عثمان خوجه الذي كان موجودا في فرنسا آنذاك. كما أوفدت نامق باشا إلى لندن لطرح القضية الجزائرية على الحكومة الإنجليزية. إلا أن كل المساعي التي قام بها المبعوثان باءت بالفشل[19]. وقد حاول الباب العالي من جهته في استانبول، التباحث مع السفير الإنجليزي، إذ طلب منه أن يحث حكومته على التدخل لتسوية الخلاف[20]. إلا أن موقف انجلترا كان سلبيا. كما كان يتسم بالمرونة والغموض. وسنتعرض إليه عندما تحين الفرصة. وتجدر الإشارة إلى أن أطماع فرنسا لم تكن مقصورة على احتلال الجزائر، بل كانت تخطط لمد نفوذها إلى طرابلس الغرب وتونس. فلما علم الباب العالي بذلك، أرسل حملة عسكرية إلى طرابلس الغرب، وتمكن من إلحاقها مباشرة به. وكان ذلك في عام 1835. وقد ساعده ذلك على حماية تونس والإقتراب من الجزائر، إذ أصبح بإمكانه مساعدة أحمد باي الذي كان يخوض غمار المقاومة ضد الجيش الفرنسي في إقليم قسنطينة. فقد طلب هذا الأخير من السلطان العثماني المساعدة. وقد استجاب السلطان لمطلبه. ويتضح ذلك من خلال الرسالة التي وجهها إلى أحمد باي حيث جاء فيها «لقد علمنا من رسالتكم التي نقلها إلينا سي الطاهر باشا، طرابلس، بكل ما حدث في بلادكم. وإننا نهنئكم على الشجاعة التي أبديتموها في مثل هذه الظروف، ونحمد الله على النصر الذي حققه لكم. إننا ندرك جيداً أن الكفار سيهاجمونكم من جديد، ونخبركم بأننا لن نبخل عليكم بمعونتنا وسنرسل إليكم عددا كافيا من الجنود والمدافع ومن المختصين في المدفعية»[21].

أرسل السلطان إلى أحمد باي أربع سفن معبأة بالجنود وعلى متنها 12 مدفعا ومائة وخمسين من رماة المدافع. إلا أن هذه المؤونة لم تصل الجزائر، إذ استولى عليها باي تونس. أما الجنود فلم يسمح لهم بالنزول في ميناء تونس، بحجة أنه كان يخشى رد فعل الحكومة الفرنسية. يبدو أن باي تونس كان يخشى امتداد لهيب المقاومة الجزائرية

إلى ولايته.

ومهما يكن من أمر، فإن رد فعل فرنسا إزاء محاولات الدولة العثمانية في استعادة نفوذها في المنطقة كان عنيفا، إذ اخبرت الباب العالي أنه في حالة موافقته على مطالب الباي أحمد، فإن فرنسا تعتبر نفسها في حالة حرب مع الدولة العثمانية[22].

ورغم هذه التهديدات، فإن الأسطول العثماني توجه إلى تونس لضمها إلى حظيرة الباب العالي عام 1837. إلا أن الأسطول الفرنسي المتواجد في المنطقة منع العثمانيين من تحقيق غرضهم، وكانت حجة فرنسا في تدخلها هذا، هو حماية امتيازاتها التجارية والسياسية في تونس بصفة خاصة وفي البحر المتوسط بصفة عامة.

هكذا انتهت كل المحاولات التي قامت بها الدولة العثمانية لاسترجاع الجزائر، خاصة بعد أن سقطت مدينة قسنطينة في أيدي الفرنسيين عام 1837. وفي النهاية تأكد عجز الدولة العثمانية لاسترجاع الجزائر. والواقع أن فشل مباحثات ومساعي الدولة العثمانية، كان متوقعا منذ البداية، نظرا للضعف الذي أصابها والظروف الحرجة التي كانت تمر بها. كما أن الحملة الفرنسية ضد الجزائر جاءت في الوقت الذي كانت فيه الدولة العثمانية منشغلة بمشاكلها الداخلية والخارجية. المتمثلة في تفشي الفوضى الداخلية، الشيئ الذي دفع السلطان محمود الثاني إلى القضاء على فرقة الانكشارية عام 1826. وكذلك انتشار روح القومية وحركات التمرد والعصيان في الولايات التابعة للدولة العثمانية. وكان ذلك بتشجيع وتأييد من الدول الأوربية العظمى. ونشوب ثورة اليونان وتحالف الدول الأوربية في معركة نافارين البحرية عام 1827 التي ألحقت بالدولة العثمانية خسائر مادية وبشرية فادحة. وكذلك حربها مع روسيا القيصرية التي انتهت بابرام معاهدة مجحفة في ادرنة عام 1829. والضربة القاضية التي تلقتها من محمد علي، حاكم مصر الذي فتح باب المشرق على مصراعية أمام الدول الأوربية التي أصبحت تتدخل في شؤون الدولة العثمانية بصفة مباشرة. وأخيرا تخلف الدولة العثمانية عن مسايرة الركب الحضاري الأوربي لاحتفاظها بنظمها الاقتصادية والعسكرية والاجتماعية التقليدية[23].

وهكذا، فإن المعطيات الداخلية منها والخارجية حالت في رأي الكثير من المؤرخين دون تمكن الدولة العثمانية من استرجاع الجزائر، وحتى توفير الحماية اللازمة

لبقية الأقطار المغربية المجاورة. وليت الأمر توقف عند هذا الحد، بل عجزت أيضا عن صد الخطر الأوربي الذي داهمها في منتصف رمقها الأخير.

ثانيا: مواقف الدول المغربية:

بعدما تتبعنا موقف الدولة العثمانية من البداية حتى النهاية، ننتقل الآن إلى عرض مواقف الدول المغربية المجاورة، ونستهل مواقف هذه الدول بموقف تونس.

1 ـ موقف تونس: لقد ساندت الحكومة التونسية غزو فرنسا للجزائر، ويتساءل المرء عن السبب الذي جعل الحكومة التونسية تتخذ مثل هذا الموقف السلبي، رغم أن تونس تعتبر ولاية عثمانية، شأنها شأن الجزائر لفهم موقف الحكومة التونسية يجب الرجوع قليلا إلى الوراء لاستعراض العلاقات التي كانت تربطها بالجزائر.

إذا تتبعنا تطور العلاقات الجزائرية التونسية عبر التاريخ، فإن أقل ما يقال عنها، أنها كانت علاقات حرب وصراع. ولم يتوصل البلدان إلى وضع حد لهذه الحالة، إلا بعد أن توسط الباب العالي في عام 1821. وقد قال الزهار عن نهاية هذا الصراع «ولما وصلت الفرمانات والرسل لأميري البلدين عندئذ تمّ الصلح وفرح جميع المسلمين واستبشروا بإطفاء هذه الفتنة» [24]. إلا أن نهاية الحروب لم تزل الأحقاد والكراهية بين البلدين. لذا وجدنا الحكومة التونسية في أول فرصة أتيحت لها، في مقدمة الدول التي رحبت بمشروع فرنسا المتعلق بغزو الجزائر. ولما أقبلت فرنسا على تنفيذ حملتها لم تبق الحكومة التونسية على الحياد، بل أظهرت استعدادها لفتح أراضيها لعبور الجيش الفرنسي لمهاجمة الجزائر برا من الناحية الشرقية. وبعد إتمام عملية الإحتلال، سارع باي تونس بإرسال وفد إلى القيادة العسكرية الفرنسية لتقديم تهانيه الخالصة بهذا النصر الذي حققه الجيش الفرنسي على أعداء الباي السابقين [25]. إضافة إلى ما سبق ذكره، فإن الاغراءات التي قدمها القائد الفرنسي «كلوزيل Clauzel » إلى هذا الأخير كانت وراء هذا الموقف السلبي. فقد وعده بإنشاء إمارتين تحت الحماية في كل من وهران وقسنطينة تحت إدارة أمراء مسلمين من بيت الملك في تونس[26]. وتنفيذا لتلك الوعود، أبرم «كلوزيل» إتفاقية مع باي تونس في 18 ديسمبر عام 1830 عين بموجبها سيدي مصطفى شقيق باي تونس، بايا على قسنطينة. كما أبرمت إتفاقية ثانية بينهما يوم 6 فبراير من السنة المذكورة، عين

بموجبها أحد أقارب باي تونس، بايا على وهران. وقد كلّف البايان بجمع الضرائب في المناطق الخاضعة لها، مقابل دفع ضريبة سنوية لفرنسا قدرها مليون فرنك (27).
وحول هذه الإتفاقية التي أبرمت بين الطرفين، أرسل «كلوزيل» خطابا إلى قنصل فرنسا في تونس السيد «دوليسيبس Delesseps » جاء فيه «أن الأمير الذي عينه باي تونس، سيتولى أمر بايليك وهران، شأنه شأن الباي الذي عينته على قسنطينة، وذلك مقابل دفع ضريبة سنوية بضمان من باي تونس، والتي حددتها بـ 12 ألف فرنك. إلا أنني أترك لكم حرية تحويلها إلى مليون فرنك. كما أننا نترك الباب مفتوحا للزيادة (28). ولكن لسوء حظ الحكومة التونسية، سرعان ما علمت الحكومة الفرنسية بالاتفاقيات التي أبرمها «كلوزيل» مع الباي حسين، فعملت على إلغائها. وهكذا تبخرت كل أطماع الحكومة التونسية. ولم تنفعها تلك الخدمات التي قدمتها لفرنسا سواء قبل الغزو أو بعده. والجدير بالذكر أن الحكومة التونسية قد وقفت إلى جانب فرنسا في عدّة مناسبات. وقد رأينا أن طاهر باشا، مبعوث الدولة العثمانية، عندما حاول الإلتحاق بالجزائر عن طريق تونس منعته من النزول على أراضيها (29).

ولم تكتف الحكومة التونسية بما كانت تفعله، بل استولت حتى على تلك المساعدات التي أرسلها السلطان محمود الثاني لأحمد باي (30)، الذي كان يحارب الجيش الفرنسي في قسنطينة. لاشك لو تمكن أحمد باي من تلقي تلك المساعدات لكان قد غير مجرى الأحداث.

2 ـ موقف المغرب الأقصى: أما موقف المغرب الأقصى من الاحتلال الفرنسي للجزائر، فإنه يكاد لا يختلف في بداية الأمر عن موقف تونس، إذ لما علم الداي حسين، حاكم الجزائر بنوايا فرنسا الاستعمارية، طلب من سلطان المغرب مولاي عبد الرحمان أن يساعده على طرد الفرنسيين، لكن السلطان لم يستجب لطلب الداي، وفضل أن يبقى على الحياد (31)، وينتظر ما ستسفر عنه الحملة الفرنسية. وعندما تأكدت فرنسا أن الحصار الذي فرضته على السواحل الجزائرية (1827 ـ 1830)، لم يأت بالنتائج المرجوة، وأن المفاوضات لحل الأزمة باءت بالفشل، قرّرت غزو الجزائر. وقبل أن تنفذ مشروعها، أرادت أن تطلع على موقف سلطان المغرب. لذا طلبت من قنصلها في طنجة « دو لا بورت » أن يخبر سلطان المغرب بمشاريع فرنسا في الجزائر. وتنفيذا لطلب فرنسا، اتصل «دولابورت»

بالسلطات المغربية وعرض عليها الأهداف التي تنتظرها بلاده من الحملة، والتي تتمثل في معاقبة الداي حسين الذي أهان شرف فرنسا، وتحرير أهالي الجزائر من اضطهاد الأتراك. وقد انتهز القنصل الفرنسي هذه المناسبة ليطلب من المغاربة مساعدة الأسطول الفرنسي والمواطنين الفرنسيين الذين سيلجأون إلى المغرب. وكانت إجابة السلطان إيجابية، إذ وافق على عدم تدخل بلاده في قضية الجزائر. كما عبّر للقنصل عن رغبته في الإحتفاظ بالسلام الذي نصت عليه الاتفاقيات التي أبرمها مع فرنسا. ولم يضمن السلطان الاستقبال الطيب للمواطنين الفرنسيين المجبرين على اللجوء إلى الأراضي المغربية فحسب، بل طلب من إدارة جمارك بلاده أن تسمح للأسطول الفرنسي بالتموين الضروري من موانيء المغرب، بشرط أن تسدد الرسوم الجمركية المقررة (32).

ومهما يكن من أمر، فإن موقف المغرب قد تغير حينما أقدم الفرنسيون بعد الحملة على مد نفوذهم نحو المغرب الجزائري، إذ استقبل سلطان المغرب وفدا من أهالي تلمسان يطلبون منه وضعهم تحت حكمه ومد حمايته إلى إقليمهم (33). وقد استجاب السلطان لطلب الجزائريين، وعين أحد أقاربه خليفة له على تلمسان (13.
وقد قال «كلوزيل» في إحدى رسائله التي وجهها إلى حكومته عن تدخل المغرب «لي أدلة تجعلني أعتقد بأن سلطان المغرب كان يشجع مشروع مولاي علي، وذلك أما بسبب الإشاعات التي روجها بعض وكلاء الأجانب حول احتمال أن القوات الفرنسية ستغادر الجزائر، أو الإعتقاد بأن الحكومة الفرنسية لا تولي إهتماما لانتهاك أراضي الجزائر. ولكي يبرر السلطان تدخله هذا، قال أنه وضع مخططا لتدمير قوات الداي. إلا أن القوات الفرنسية سبقته إلى ذلك (34). وقد أضاف «كلوزيل» قائلاً أن مبعوثي السلطان المنتشرين في إقليم بايليك الغرب يدعون أن السلطان العثماني قد كلّف سلطان المغرب بطرد المسيحيين من الجزائر ليتولى هو الحكم بعد ذلك» (35).
وعندما تأكدت الحكومة الفرنسية من نوايا المغرب التوسعية، وجه «كلوزيل» رسالة إلى السلطان المغربي طلب منه فيها سحب قواته من الأراضي الجزائرية، وإذا رفض الإمتثال لهذا الأمر، فإن الجيش الفرنسي يضطر عندئذ إلى محاصرة المدن المغربية (36).

موقف طرابلس: اما بأي طرابلس، فإنه اعتذر للحكومة الجزائرية عن عدم قدرته على مساعدة الجزائريين في حربهم ضد فرنسا. وقد برر موقفه هذا بأن بلاده

ليست لها الإمكانيات المادية والبشرية التي تسمح لها لإغاثة الجزائريين (٣٧).

بعد أن تتبعنا موقف الدولة العثمانية والدول المغربية من احتلال فرنسا للجزائر، يهمنا في هذا السياق معرفة مواقف بعض الدول الأوربية، خاصة موقف انجلترا التي كان لها وزن كبير على الساحة الأوربية بوجه خاص، وعلى الساحة الدولية بوجه عام.

ثالثا: موقف إنجلترا ودول أخرى:

إذا كانت السياسة الفرنسية تقوم منذ القدم على مبدأ التوسع، فإن سياسة الإنجليز كانت مبنية على مبدأ الحفاظ على التوازن الدولي. وبما أن الاحتلال الفرنسي للجزائر يندرج ضمن سياسة فرنسا التوسعية، فإنه من المتوقع أن تتدخل إنجلترا في قضية الجزائر للحفاظ على التوازن الدولي. وتنفيذا لهذا المبدأ، إتخذت انجلترا موقفا واضحا منذ أن تم الإتفاق بين فرنسا ومحمد علي، باشا مصر، لغزو الأقطار المغربية (تونس وليبيا والجزائر). فأسرع السفير الإنجليزي في استانبول السيد «غوردون Gordon » إلى أخبار الباب العالي بنوايا فرنسا ومحمد علي. وقد جاء في إحدى المذكرات التي سلّمها السفير الانجليزي إلى الباب العالي ما يلي «على الدولة العثمانية أن ترسل طاهر باشا إلى الجزائر لتسوية النزاع الناشب بين فرنسا والجزائر، وأن تحذر محمد علي من تنفيذ المعاهدة التي أبرمها مع فرنسا» (٣٨) وقد رأينا فيما سبق ذكره، أن الباب العالي قد استجاب لمطلب انجلترا. إلا أن السؤال المطروح هنا، هو ما هو السبب الذي جعل الحكومة الانجليزية تتدخل في قضية الجزائر بسرعة فائقة؟

كانت انجلترا تعلم جيدا أن الوحدة بين محمد علي وفرنسا تؤدي حتما إلى إتساع نفوذ فرنسا في البحر المتوسط، ويعني ذلك القضاء على مصالحها التجارية والسياسية والاستراتيجية في المنطقة، وبالتالي تتعرض مناطق نفوذها وارتكازها (جبل طارق، وكورفو ومالطة) للخطر (٣٩). لاشك أن في حالة ما إذافقدت انجلترا مناطق تمركزها في البحر المتوسط سيؤثر ذلك تأثيرا كبيرا على طريقها المؤدي إلى الهند. كما ستترتب عنه انعكاسات سلبية على تجارتها الخارجية. ولهذه الإعتبارات كلها، أسرعت انجلترا إلى إرسال سفينتين حربيتين إلى السواحل الجزائرية لمراقبة التحركات الفرنسية في المنطقة.

أما فرنسا، فقد استعملت عدّة حيل لكسب الرأي العام الأوربي لصالحها،

إذ كانت تدعي أنها ستأخذ رأي أوربا في نوع النظام الذي سيقام في الجزائر عند تدميرها (٤٠). ورغم كل الحجج التي تذرعت بها فرنسا، فإن انجلترا بقيت متمسكة بموقفها المعارض لخططها التي كانت تهدد مواقعها في البحر المتوسط. وقد تأكدت انجلترا في نهاية الأمر أن نشاطها وتحركها الديبلوماسي المكثف الذي كانت تقوم به لم يأت بنتيجة. لذا أرسل وزير خارجيتها «اللورد ابيردن Aberdeen » تعليمات لسفير بلاده بباريس، طالبا منه أن يحاول الحصول على ضمانات خطية من الحكومة الفرنسية بشأن مصير مدينة الجزائر. إلا أن فرنسا تمكنت من تجاوز ضغوط وتهديدات إنجلترا، ولم تعط الضمانات التي كانت تطالبها بها انجلترا (٤١). وقد اتضح لإنجلترا أن فرنسا عقدت العزم للحفاظ على الجزائر مهما كان الثمن. هذا ما نستنتجه من القول الذي صرح به مترجم السفارة الانجليزية في استانبول، وذلك بعد أن تقابل مع كل من رئيس الكتاب العثماني والسفير الفرنسي، إذ قال أنه لا يتوقع أن تترك فرنسا الجزائر (٤٢).

أما الباب العالي، فقد قام من جهته بعدّة إتصالات مع السفير الإنجليزي «غوردون»، وطلب منه أن يحث حكومته على التدخل في النزاع الجزائري الفرنسي. إلا أن رده كان غامضا حيث برّر موقفه هذا بحجة أنه من الصعب عليه تحقيق هذا المطلب، نظرا للتغييرات التي عرفتها الحكومة الانجليزية في المدة الأخيرة «وقد أرجع «غوردون» سبب احتلال فرنسا للجزائر إلى تماطل طاهر باشا في سفره إلى الجزائر، وعندما قيل له أن السفير الفرنسي هو الذي أخره عن السفر، عندئذ بين «غوردون» سوء نية السفير الفرنسي. وكل ما فعله «غوردون» أنه كتب مذكرة إلى حكومته طلب منها أن تقف إلى جانب الدولة العثمانية في قضية الجزائر. وقد تم ذلك بطلب من الباب العالي. رغم ما فعله السفير الإنجليزي، فإنه لم يخف نوايا حكومته، إذ صرّح أن انجلترا لن تدخل في حرب مع فرنسا لتحرير الجزائر (٤٣). وقد اقترح السيد «غوردون» على الباب العالي بأن يوجه رسالة إلى السفير الفرنسي يوضح فيها حقوق الدولة العثمانية بالجزائر، أو يعد فيها بضمان سلامة التجارة الأوربية يمنعها القرصنة بعد تسلمها لتلك البلاد (٤٤).

نستخلص مما سبق ذكره، أن موقف انجلترا ازاء احتلال فرنسا للجزائر كان مقصورا على النشاط الديبلوماسي الذي ساده الغموض طوال المحادثات التي أجراها

الباب العالي مع ممثلي انجلترا الرسميين. إلا أن موقف انجلترا من القضية الجزائرية قد اتضح جليا بعد ثورة يوليو التي أطاحت بشارل العاشر ملك فرنسا (1824 – 1830). فإذا أدى الأمر ببعض الدول الأوروبية أمثال النمسا وروسيا وبروسيا إلى عقد معاهدة دفاعية لمواجهة خطر الانقلابات والتغيرات التي طرأت على الساحة الأوروبية، فإن انجلترا اقتربت من فرنسا، واعترفت بحكم لويس فيليب، خاصة بعد أن استولى حزب الأحرار على السلطة في شهر نوفمبر عام 1830 [٤٥]. ولم يبق لإنجلترا إلا أن تساند فرنسا في احتلالها للجزائر. وتجدر الإشارة إلى أن الموقف الذي اتخذه السفير الإنجليزي في الجـــــزائر السيد «سان جون»، لم يختلف عن موقف حكومته، إذ كلما سأله الداي حسين عن مخاطر الحملة الفرنسية، كان يرد عليه بقوله «أصمدوا، فإن فرنسا ستنسحب في النهاية، وأن انجلترا ستؤيدكم» [٤٦]. إلا أن في نهاية المطاف، اتضح أن فرنسا لم تنسحب وأن إنجلترا لم تساند الجزائر، ووعود السفير الإنجليزي في الجزائر كانت مجرد مراوغة ديبلوماسية لا أكثر ولا أقل. وإذا رجعنا قليلا إلى الوراء نجد أن هذا الموقف السلبي قد سبق أن حدث في عام 1812، وذلك عندما وجه ولي عهد انجلترا رسالة إلى الداي الحاج علي حيث أكّد فيها للداي أنه طالما استمرت الصداقة بين البلدين، فإن انجلترا ستحمي عاصمته بأساطيلها من الأخطار الخارجية [٤٧]. لكن عندما تعرضت الجزائر للهجوم الأمريكي عام 1815، لم تتحرك انجلترا إطلاقا، بل انتهزت الظروف الدولية آنذاك، لكي تشن حملة عسكرية ضد الجزائر عام 1816.

وقد يتساءل المرء عن السبب الذي جعل موقف انجلترا غير مستقر منذ بداية الخلافات بين فرنسا والجزائر؟ كانت انجلترا تعلم جيدا أن في حالة تأييدها للدولة العثمانية ستدخل في حرب مع فرنسا، وإذا ساندت فرنسا في سياستها التوسعية، ستفقد صداقة الدولة العثمانية من جهة، وتتيح الفرصة لفرنسا لكي تقوي نفوذها في البحر المتوسط من جهة أخرى. لهذا السبب بقيت إنجلترا حائرة بين الأمرين، واكتنف الغموض موقفها. إلا أنها في الأخير فضلت أن تقف إلى جانب بني جلدتها وقد شجعها على ذلك ضعف الدولة العثمانية.

ونختم المواقف التي ذكرناها بمواقف الدول الأوروبية الأخرى مثل النمسا وبروسيا وإسبانيا.

لقد عارضت هذه الدول سياسة فرنسا التوسعية، خاصة عندما كان الأمر يتعلق بتعاونها مع محمد علي، حاكم مصر. وقد اتضح ذلك من خلال المذكرات التي أرسلتها روسيا والنمسا إلى الباب العالي، إذ كشفتا فيها عن الإتفاق السري الذي تم بين فرنسا ومحمد علي. إلا أنه عندما قرّرت فرنسا تنفيذ عملية الغزو بمفردها، سرعان ما غيّرت الدول المذكورة مواقفها، ولم تكتف بمباركة الحملة ومساندتها معنويا، بل دعمت صفوفها بضباطها وخبرائها وأسلحتها [٤٨]. قد نتساءل عن الدافع الذي جعل هذه الدول تؤيد فرنسا في سياستها التوسعية؟ إذا حللنا الأحداث التي عرفتها القارة الأوروبية في تلك الفترة، نجد أن الدافع كان مشتركا بين هذه الدول. فقد كان هدف النمسا مثلا هو تحويل اهتمام فرنسا إلى التوسع في مناطق أخرى غير أوروبية، لأنه من مصلحتها أن تبقى أوضاع أوربا على حالها. وقد يندرج هذا الهدف ضمن السياسة الاستراتيجية التي رسمها رئيس وزراء النمسا «ميترنيخ». إلا أن أثناء قيام ثورة يوليو الفرنسية التي أطاحت بملك شارل العاشر، طرأ تغيير في موقف النمسا، إذ أسرعت إلى عقد معاهدة دفاعية مع روسيا وبروسيا لمواجهة الأخطار التي ستنجم عن الانقلابات، فطلبت من الباب العالي أن لا يستعجل في مطالبته باسترجاع الجزائر. وكان هدف النمسا من هذه النصيحة، هو تمكين الحكومة الفرنسية من ربح الوقت حتى تصر على الاحتفاظ بالجزائر [٤٩].

أما موقف بروسيا، فلا يختلف هو الآخر عن موقف النمسا، إذ أيدت الحملة وعرضت خدمات ضباطها على فرنسا. وكان غرضها من وراء ذلك هو تحويل أنظار فرنسا من منطقة الراين إلى مناطق أخرى بعيدة [٥٠]. خاصة إذا علمنا أن منطقة الراين هذه كانت سبب الحروب العديدة التي جمعت بين فرنسا وبروسيا.

أما روسيا فلم تسر مانعا في احتلال فرنسا للجزائر، إذ كان اهتمامها منصبا على منطقة البلقان، لذا أيدت هي الأخرى الحملة ودعمتها بضباطها المختصين في الهندسة العسكرية [٥١]. كانت روسيا تعلم أن توسع فرنسا في إفريقية، يؤدي ذلك إلى خلو منطقة الشرق الأوربي من أخطار هذه الأخيرة، وبالتالي تتخلص من منافس عنيد.

ولا تختلف مواقف الدول الأوربية الأخرى عن هذه المواقف التي ذكرناها، إذ ساندت كل من اسبانيا وسردينيا الحملة الفرنسية ماديا وبشريا. فإذا كانت إسبانيا تطمع في استرجاع ممتلكاتها في الغرب الجزائر، فإن سردينيا كانت تطمع في كسب

بعض الموانئ على سواحل مدينة عنابة (52).

نستخلص مما ذكرناه أن الحملة الفرنسية ضد الجزائر كانت بمثابة حملة صليبية قامت بها جميع الدول الأوروبية على العالم الإسلامي بهدف الحصول على امتيازات اقتصادية.

الهوامش :

(1) A.N.P. M.R.E : Mémoires et documents, Algérie 1830, T.6 "Mémoire sur la situation actuelle de la France avec l'Empire Othman, et sur le parti le plus avantageux à retirer de l'occupation d'Alger, par l'Ancien consul de France en Turquie.

(2) ارجمند كوران، السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر (1827 _ 1847)، ترجمة وتعليق عبد الجليل التميمي، ص. 27.

(3) نفس المرجع والصفحة.

(4) أبو القاسم سعد الله، محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث وبداية الاحتلال، ص. 31.

(5) Douin, G.: Mohamed Ali et l'expédition d'Alger 1829-1830, pp.49-52.

(6) ارجمند كوران، المرجع السابق، ص. 28.

(7) نفس المرجع، ص.34.

(8) أحمد توفيق المدني، «من الوثائق العثمانية عن تاريخ الجزائر»، نص الفرمات السلطاني، مجلة التاريخ عدد 12، سنة 1982، ص. 20 _ 26.

(9) ارجمند كوران، المرجع السابق، ص. 34 _ 35.

(10) Grammant, H D.: Histoire d'Alger sous la domination Turque, p.399.

(11) Ibid.

(12) أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص. 26.

(13) Barbier et Privost : sur la conquête d'Alger, Mémoire de d'hussez, p.48.

(14) A.N.P. M.R.E : M. et D. Algérie, T.6 "Lettre du ministre des aff. et R. Française à S.E. Mohamed Tahar Padra à Toulon, Paris 1 Juillet et 1830".

(15) أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص. 27.

(16) Barbier et Privost : op.cit; p.48.

(17) ارجمند كوران، المرجع السابق، ص. 38.

(18) نفس المرجع، ص. 39 _ 40.

(19) حميده عميراوي، «الغزو الفرنسي للجزائر 1830 وردود الفعل حوله»، مجلة سرتا، العدد 3 جامعة قسنطينة 1980، ص. 95.

(20) أرجمند كوران، المرجع السابق، ص. 44.

(21) محمد العربي الزبيري، مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة، ص. 60 _ 61.

(22) أرجمند كوران، المرجع السابق، ص. 71.

(23) Temimi, Ab.: Le Beylik de constantine et HAdj-Ahmed Bey 1830-1837, pp.38-40.

(24) أحمد الشريف الزهار، مذكرات نقيب الاشراف، تحقيق وتعليق أحمد توفيق المدني، ص. 148.

(25) جلال يحيى، المغرب العربي، ص. 355.

(26) نفس المرجع والصفحة.

(27) حمدان بن عثمان خوجه، المرآة، تحقيق وتعريب محمد العربي الزبيري، ص. 263 _ 268. أنظر أيضا
A.N.P. M.R.E.: M. et D. Algérie 1831, T.8, Copie jointe à un e dépèche de M. GL Berthezen du juillet 1831. Différences reconnues dans l'examen des deux textes Français et Arabe du traité de constantine.

(28) A.N.P. M.R.E.: M et D Algérie 1830, T.6 "Lettre du GL en chef de l'armée d'afrique à monsieur Delesseps consul à Tunis, Alger 22 Dec. 1830".

(29) Temimi, Ab.: op.cit, p.42.

(30) محمد العربي الزبيري، المصدر السابق، ص. 61.

(31) Gaffarel, P. : L'Algérie, Histoire, conquête et colonisation, p.66.

(32) Décossé Brissac, Ph: Les rapports de la France et du MAroc pendant la conquête d'Alger, 1830-1837, p.7.

(33) جلال يحيى، المرجع السابق، ص 357.

(34) Decossé Brissac, Ph: op.cit, p.10.

(35) A.N.P. M.R.E : M. et D. Algérie, T.6 "Lettre du GL Clauzel au Maréchal, Alger le 24 Déc. 1830".

(36) A.N.P. M.R.E : M. et D. Ibid.

(37) Gaffarel, P.: op.cit, p.66

(38) Ibid.

(39) ارجمند كوران، المرجع السابق، ص 30 _ 31.

(40) Azan, P. : L'expédition d'Alger 1830, p.42.

(41) ارجمند كوران، المرجع السابق، ص. 36.

(42) نفس المرجع والصفحة.
أنظر أيضا Gaffarel P.: op.cit, pp.58-59.

(43) ارجمند كوران، المرجع السابق، ص. 43.

(44) نفس المرجع، ص. 44.

(45) نفس المرجع والصفحة.

(46) ارجمند كوران، المرجع السابق، ص. 45.

(47) Nogueres H.: L'expédition d'Alger 1830, p.14.

(48) شالر، وليام، مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر 1816 ـ 1824، ترجمة اسماعيل العربي، ص. 140.

(49) Gaffarel P.: op.cit, p.63.

(50) حميدة عميراوي، المرجع السابق، ص. 99.

(51) نفس المرجع والصفحة.

(52) حميدة عميراوي، المرجع السابق، ص. 99.

(53) أنظر أيضا Azan P.: op.cit, pp.43-44. Gaffarel P.: op.cit, p.62.

ـ قائمة المصادر والمراجع ـ

1 ـ الوثائق

محفوظات وزارة العلاقات الخارجية بباريس **Archive : M.R.E.**

1) Mémoires et documents Algérie 1830 T.6

1 – Mémoire sur la situation actuelle de la France avec l'empire ottoman, et sur le parti le plus avantageux à retirer de l'occupation d'Alger, par l'ancien consul de France en Turquie, Paris 7 novembre 1830.

2 – Lettre du Ministre des Affaires Etr. Française à S.E. Mohamed Tahar Pacha à Toulon, Paris 1 Juillet 1830.

3 – Lettre du GL en chef de l'Armé d'Afrique à Mr Delesseps Consul à Tunis, Alger 22 décembre 1830.

4 – Lettre du GL Clauzel au Maréchal, Alger le 24 décembre 1830.

2) Mémoires et Documents, Algérie 1831, T.8

1 – Copie jointe à une dépèche de M. GL. Berthezène du juillet 1831. Différences reconnus dans l'examen des deux textes Français-Arabe du traité de Constantine.

2 ـ المصادر والمراجع العربية والمترجمة:

1 ـ أبو القاسم سعد الله: محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث، بداية الاحتلال الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط 3، الجزائر 1982.

2 ـ أرجمند كوران: السياسة العثمانية تجاه الاحتلال الفرنسي للجزائر 1827 ـ 1848، ترجمة عبد الجليل التميمي، تونس، 1974.

3 ـ أحمد الشريف الزهار: مذكرات نقيب الاشراف تحقيق ونشر أحمد توفيق المدني، ش، و، ن، ت، الجزائر 1980.

4 ـ حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، تعريب محمد العربي الزبيري، ش، و، ن، ت، الجزائر 1982.

5 ـ محمد العربي الزبيري: مذكرات حمدان خوجة أحمد باي وبضربة، ش، و، ن، ت، الجزائر 1981.

6 ـ وليام شالر: مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر 1816 ـ 1824، تعريب اسماعيل العربي، ش، و، ن، ت، الجزائر 1982.

7 ـ جلال يحيى: المغرب العربي الحديث والمعاصر الفجر واحتلال فرنسا للجزائر الهيئة المصرية العامة للكتاب، فرع الاسكندرية، 1983، 3 ج، ج 3.

3 ـ المصادر والمراجع باللغة الأجنبية:

1) Azan (P) : L'expédition d'Alger 1830, Lib. Plon, paris 1929.

2) Barbier et Privost : Sur la conquête de l'Algérie, le cerf Rouen 1930.

3) De Cosse Brissac (Ph): Les rapports de la France et du Maroc pendant la conquête d'Alger 1830-1837, la rose, paris 1931.

4) Douin (G): Mohamed Ali et l'éxpédition d'Alger 1829-1830, 1st Français d'Arch ort. le Caire 1830.

5) Gaffarel (P): L'Algérie, histoire, conquête de Colonisation, Lib. de Fizmin Didot et Cie, paris 1883.

6) Grammont (H. DE): Histoire d'Alger sous la domination Turque 1515-1830, E. le Roux, paris 1887.

7) Noguer (H.): L'éxpédition d'Alger 1830, R.J. paris 1962.

8) Temimi (A): Le Beylik de Constantine et HAdj Ahmed Bey 1830-1837 Pub. R?H?M., Tunisie 1978.

4 ـ المقالات العربية:

1 ـ أحمد توفيق المدني: «من الوثائق العثمانية عن تاريخ الجزائر، محمد علي طاهر باشا»، مجلة التاريخ تصدر عن المركز الوطني للدراسات التاريخية، العدد 12، الجزائر 1982.

2 ـ حميدة عميراوي: «الغزو الفرنسي للجزائر 1830 وردود الفعل حوله» مجلة سيرتا، العدد 3، جامعة قسنطينة 1980.

الأيالة التونسية قبيل فرض الحماية الفرنسية (1860 ـ 1881)

شاوش حباسي

فترة التداعي الإستعماري على العالم الإسلامي عموماً وعلى العالم العربي خصوصاً في القرن التاسع عشر هو في حقيقة أمره شوط جديد واستئناف أزلي لصراع بين حضارتين متناقضتين من أساسها. لذا فقد كان ـ ولا يزال ـ تربص بعضها بعض بحكم هذه الخلفية الحضارية والنفسية على الدوام. غير أن الاستعداد للتوسع والهيمنة ـ حتى لا نقول الانتقام الحضاري ـ في القرن 19 كان جاداً من جهة الغرب المسيحي وضعيفا من جهة الشرق الإسلامي وخاصة في إنتاج أدوات ومعدات الصراع المادية، والتي حسمت في النهاية هذا الصراع لصالح العالم الغربي.

ومن هذا المنطلق الثابت جاءت الثورة الصناعية لتوفر لأوربا الغربية إبتداء في القرن الثامن عشر ثم نوعياً في القرن التاسع عشر الأدوات المادية للهيمنة على مقدرات العالم الإسلامي، فالتفت المسؤولون الأوربيون إلى تسخيرها في حيز واسع في ميدان التطبيقات العسكرية. ولا جدال في أن الثورة الصناعية في أوربا كانت نتاج تقدم علمي ـ تطبيقي، ولكن يجب أن لا يغيب عن ذاكرتنا التاريخية تزامن هذه الثورة الصناعية مع هيمنة إسلامية تمثلت آنذاك في الدولة العثمانية: فلا يعقل بحال أن لا يؤثر هذا الوضع السياسي العام على وتيرة البحث العلمي ـ التطبيقي من جهة وتوجيه الصناعات للغرض الذي ذكرناه منذ حين.

وتصورنا هذا المستنتج من الحقائق التاريخية لا يتفق مع النظرية المادية على اختلاف مدارسها، والتي تجعل من الهيمنة الإستعمارية من أساسها هيمنة رأسمالية كنتيجة طبيعية وحتمية لتضخم رأس المال من جراء الثورة الصناعية في أوربا، أو بعبارة أخرى «قيادة» وسائل الإنتاج للصيرورة البشرية، كما فعل كرميل ساموت (Carmel Sammut) في دراسته التي سنذكرها لاحقا. وهذه

النظرية تضرب صفحاً عن المنطلقات الحضارية والنفسية لعملية الاستعمار، وإن كان من إحدى نتائجه، لا أساسه ومحوره، الاستغلال المادي والبشري للمستعمرات.

بعد هذا لابد من الاشارة إلى أن عملية إستعمار العالم العربي بتدبير الغرب الأوربي ـ وروسيا من هذا الغرب قبل تمكن التيار الشيوعي فيها أثناء الحرب العالمية الأولى ـ كان لزاماً أن تمر ابتداء بقطع الصلة بين العثمانيين والعرب من جهتين: أولها تمثل في القضاء العسكري على القوة العثمانية والذي تم على مراحل وبتحالف أوربي كاد يكون بالإجماع، والذي إنتهى كما هو معلوم إلى تحطيم الأسطول العثماني بنافرين باليونان سنة 1827، وبالتالي إقصاء الدولة العثمانيةمن المسرح العسكري وما إنجر عنه من تضييق أو إفشال تأثيرها على مجريات المستقبل السياسي للمنطقة العربية: فبالقضاء على القوة العسكرية العثمانية إنعدم ـ أوكاد ـ دون شك المدد المادي للعالم العربي في وقت لاحق قدّر بدقة من طرف الغرب المسيحي.

وثاني الوجهين تمثل في تحريك الأقليات في «الامبراطورية» العثمانية من جهة لغرض معلوم وتعميق الإتجاه الإنفصالي القومي في العالم العربي من جهة أخرى وإن كان لهذا الإتجاه الأخير ما يبرره ـ في حدود معينة ـ من سوء إدارة وحكم الأتراك العثمانيين في مرحلة حرجة ماديا وتهديد خارجي أوربي مباشر، فإن القوميين العرب ساروا في إتجاه المخطط الأوربي وبتشجيع منه دون أن يدركوا ـ أو أدركوا وانخدعوا ـ أن التفتيت والتفريق من الأدوات الخطيرة في السياسة الاستعمارية لأنها مهدت وهيأت في مرحلة ثانية الانفراد بكل بلد أو قطر على حدة واستعماره بأقل الخسائر الممكنة.

هذا إجمالاً ما ميّز الإطار العام المحيط والمؤثر مباشرة أو بالتعدّي على مقدّرات العالم الإسلامي عموماً والعربي خصوصاً، والذي كان دون شك في صالح الغرب الأوربي وعلى حساب العالم الإسلامي بالطبع.

أما فيما يخص منهج تناولنا للمرحلة التي نحن بصددها في تونس، فإننا تجنّبنا النظرة التي تحاكم الاستعمار أخلاقيا فحسب والتي روّجت ولا تزال تروّج وما هي في رأينا إلا تحصيل حاصل، والتفتنا إلتفاتة جادة إلى السبيل السليم في المعالجة والذي يقتضي مراجعة الذات وإبراز «القابلية للإستعمار» على حد تعبير الأستاذ مالك بن نبي ـ في العالم الإسلامي ومنه تونس وقبلها الجزائر.

ونعني بالقابلية للإستعمار الضعف السياسي والإقتصادي والعلمي والأخلاقي في العالم الإسلامي، وبكلمة موجزة ما يمكن تسميته ـ إذا صح التعبير ـ بالنومة الحضارية.

ولما كانت طبيعة العلاقات الدولية مبنية أساساً وعلى الدوام على مبدأ الهيمنة بحق أو بباطل، ولا هيمنة إلا بحضارة قوية بجميع مقوماتها المبدئية العليا والمادية، فلا يعقل أن نعفي العالم الإسلامي من مسؤوليته العريضة في تمكينه ـ بتخلفه ـ للغرب الأوربي وهو يعلم يقيناً بل، عاش ويعيش واقعياً هذه الحقيقة.

ولا نتفق مع الكاتب غازي التوبة في كتابه الفكر الإسلامي المعاصر والذي خصص فيه فصلا لدراسة فكر مالك بن نبي، والذي اعتبر نظرية هذا الأخير، أي «القابلية للاستعمار» ضرباً من القدرية التي تجعل العالم الإسلامي مستسلماً لأعدائه ومحكوماً عليه بسبب ضعفه وتخلفه بالتبعية المباشرة للعالم الغربي.

وهذا الفهم غير سليم من منظار منظّره الأستاذ مالك بن نبي والذي تبنيناه بدورنا، لأن هذا المفكر الفذ لم يقصد أبداً أن يخدّر العالم الإسلامي ويدفعه إلى الإستسلام قدرياً لأعدائه، وإنما ركّز على القابلية للإستعمار في العالم الإسلامي ليوقظه من غفلته ويدفعه دفعاً قوياً إلى التفكير في سبيل خلاصه من إنحطاطه وبالتالي من عدوّه المستعمر إمّا ردعاً بحكم أن القوي مهاب أو انتفاضة في حالة وجود المستعمر على أرض إسلامية ما، بعد تحقيق شروط النهضة التحرّرية أو بعبارة أخرى بعد التخلص من القابلية للإستعمار.

وانطلاقاً من هذا التصوّر الموضوعي والبارز من الإستقراء الأولي لتاريخ هذه المرحلة، إرتأينا تناولها في محورين أساسيين، تمثل الأول في تشخيص التكالب الاستعماري على تونس ثم اردفناه بتشخيص القابلية للإستعمار في هذا البلد لتكتمل الصورة ويتجه الفهم إتجاهاً إيجابيا من منظار ثوابت حضارية وموضوعية وبالتركيز على مفاصل بارزة.

1 ـ تداعي الدول الأوربية الكبرى على تونس:

إن فرض الحماية الفرنسية على تونس كان نتيجة متوقعة بعد احتلال الجزائر. وقد عمّق هذا التوقّع الموقف التونسي السلبي سنة 1830 في شخص الباي حسين بمباركته لاحتلال الجزائر من قبل الفرنسيين اعتقاداً منه أنه تخلّص بالتالي من خصم قديم [1].

وكانت فرنسا تعلّل اهتمامها بتونس بعد استقرارها في الجزائر بحجة الدفاع عن مصالحها الاقتصادية وحرصها الشديد على إقصاء كل دولة قوية تطمح إلى سبقها لفرض نفوذها على المملكة التونسية وتكون لها بالتالي مناوئاً خطيراً في شرق الجزائر.

وخلافاً لما حدث بالنسبة للجزائر، فإن الدول الكبرى آنذاك قد إلتفتت جدياً إلى تدخل فرنسا في تونس، فتكوّنت بينها «مسابقة ديبلوماسية» على حد تعبير علال الفاسي [د]. وتوقيع معاهدة الحماية من باي تونس سنة 1881 كان خاتمة صراع مرير بين تونس من جهة وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا بالخصوص من جهة أخرى. وقد دام هذا الصراع قرابة نصف قرن أو يزيد. ولم يكن الأستاذ محمد الصالح لاجري بعيداً عن الصواب عندما أكّد أن بداية الحركة الوطنية في تونس كانت مباشرة بعد إحتلال فرنسا للجزائر سنة 1830 [د].

ومعلوم أن مؤتمر برلين المنعقد سنة 1878 قد أعطى الحرية الكاملة للفرنسيين في العمل بتونس بعد تنازلات متبادلة وتصفية حسابات مادية واستراتيجية استعمارية بين انجلترا وفرنسا والامبراطورية الألمانية. أما إيطاليا التي لم تكن في منزلة الدول القوية الثلاثة المذكورة فإنها أبعدت في مرحلة ثانية من طرف فرنسا عن تونس. وحسبنا في هذا الصدد أن نذكر أن بريطانيا قد «تنازلت» لفرنسا عن تونس بخليفة الحفاظ على جزيرة قبرص وشراء أسهم قناة السويس. ثم لاعتقاد انجلترا أن تونس لا محالة ستقع فريسة إحدى البلدين فرنسا أو إيطاليا، فإنها فضلت أن تكون تونس من نصيب فرنسا باعتبار أن إيطاليا لو تمكنت من بسط نفوذها على تونس لَسَهُل عليها مراقبة ضفتي مضيق صقلية، وبالتالي محاصرة بريطانيا في البحر الأبيض المتوسط. أما بسمارك ـ مدير سياسة الإمبراطورية الألمانية ـ فقد أبدى موافقته لسياسة فرنسا في تونس ليبعد في أغلب الظن أنظار فرنسا عن المطالبة بمنطقتي الألزاس واللورين التي دخلت في حوزة ألمانيا بعد حرب بين البلدين (1870 ـ 1871) [ه].

2 ـ القابلية للاستعمار:

وبينما كانت الدول الأوروبية الكبرى تتنازع وتتصالح فيما بينها على تونس، كانت هذه الأخيرة بحكم ضعفها العام قُبيل الحماية مُذْكية لِنَهَم فرنسا بالخصوص وجالبةً للتواجد العسكري الفرنسي ليزيح آخر ما يعترض الهيمنة الفرنسية الكلية على تونس.

ففي الجانب السياسي: فإن تعاقب الحكم الوراثي في تونس منذ 1705م في العائلة الحسينية قد أقصى الخبرات المحلية أو حصرها في مستويات معينة في هرم السلطة. وقد صادف التكالب الاستعماري على تونس باياً وحاشية تترك وصفها للأستاذ علي المحجوبي: «في سنة 1881 كان باي تونس محمد الصادق (...) والبالغ آنذاك السابعة والستين من العمر هو الأمير الثاني عشر في الدولة الحسينية، وقد خلف أخاه محمدا قبل إنتصاب الحماية باثنين وعشرين سنة. ونظراً لما كان عليه هذا الباي من النقص في التكوين والضعف في الإدارة والخمول، فقد كان قليل الاكتراث بالشؤون العامة للبلاد تاركاً السلطة لحاشيته. وكان الوزير الأكبر مصطفى بن اسماعيل شديد التأثير على الباي (...) وقد استغل مصطفى ضعف الباي فأدار شؤون الايالة حسب مشيئته. وكان أمر هذا الشخص غريباً إذ إستطاع الارتقاء بسرعة مذهلة في سلم الوظيفة العمومية ليصبح في 24 أوت 1878 وزيراً أكبر وهو **في سن الخامسة والعشرين** بعد أن تقلّب في عدّة مناصب حيث كان على التوالي مكلفاً بجراية الباي فقائداً للوطن القبلي ثم وزيراً للداخلية، وكان عديم التكوين مثل سيّده محمد الصادق وغير مؤهل لتسيير شؤون الدولة(...)» [ه]. وإذا أضفنا إلى ما ذكره الأستاذ المحجوبي نفوذ القناصل الأوروبية المباشر على ساسة تونس، إسودّ أفق تونس أكثر، ومن ذلك أن باي تونس استقدم سنة 1860 قنصل فرنسا ليون روش (Léon Roches) لاستشارته بخصوص دستور البلاد الذي كان الباي ينوي إصداره آنذاك!. ثم إن أية ضريبة جديدة لم تكن توضع موضع التطبيق على الأجانب إلا بموافقة القناصل الأوربية، وقد حدث وأن استغل بعض المزارعين الأوربيين هذه التغطية القنصلية لِيُعفَوا من الضرائب من يشتغل عندهم من التونسيين! [ه].

وجدير بالملاحظة أن مصطفى بن اسماعيل قد خلف في منصب الوزير الأكبر وبالتالي الإشراف على مقدرات ومصير تونس ـ المصلح المقتدر خير الدين الذي غادر تونس غاضباً من غير رجعة سنة 1877 بسبب حصار محكم على الجبهتين الداخلية والخارجية لمشاريعه الإصلاحية والسياسية الاستراتيجية لإنقاذ تونس: ، فقد كان الباي محمد الصادق مرتاباً منه على الدوام وما انفك مصطفى بن اسماعيل يعرقل مشاريعه الإصلاحية وإن كان ذلك بمساعدة قنصل فرنسا بالخصوص، وكذا رفض

القناصل الأوربية التنازل عن وضع رعاياها المحظوظة بل والمؤثرة بما تملك من ثروة مختلفة في تونس ونفوذ تجاري واقتصادي كبيرين.

أما الجبهة الخارجية فقد قادتها فرنسا ضد سياسة خير الدين الذي حاول جاداً إعادة وتمتين الروابط بالاستانة لضمان استقلال تونس.

ومهما يكن فإن سياسته العامة الرشيدة على قلة بقائه في الحكم كوزير أكبر (1873 ـ 1877) وكثرة ما وجدت من عراقيل، فإنها على الأقل أطالت بعض الشيئ من «استقلال» تونس وهزّت كيان الأمة من داخله حيث استطاع هذا المصلح بفكره وعمله الدائب أن ينظر باقتدار لكل مناحي الأزمة التونسية، وأهم من ذلك جميعاً فإن فكره الإصلاحي الثوري تجاوز سنة 1881 باستفادة رواد الحركة الوطنية التونسية وهم في أغلبيتهم في طبقتهم الأولى على الأقل عيال المدرسة الصادقية التي أخرجها خير الدين للوجود [٦].

أما في الجانب الإقتصادي والمالي، فإن فترة 1860 ـ 1878 ـ كما يصفها جان غانياج (Jean Ganiage) **ـ كـانت قبل كـل شيئ فترة إفـلاس تونس المالي ودخولها تحت الوصاية المالية الأوربية** [٥]. وقد سبق أو زامن إتصال تونس لأول مرة بالبنوك الأجنبية سنة 1863م نشاط تجاري أو بالأحرى تدخل تجاري وصناعي وامتلاك عقاري واسع من طرف الأوربيين في تونس [٥].

وقد صبت هذه التدخلات الإقتصادية والمالية في إناء واحد: وهو الاستحواذ على شرايين الاقتصاد التونسي والقضاء على الصناعات المحلية الرائجة، فهكذا تدهورت تدهوراً تاماً قبيل الحماية كل من صناعة الأقمشة والشاشية والمعادن وغيرها بسبب إعفاء المتعاملين التجاريين الأجانب من الضريبة المحلية داخل حدود تونس إضافة إلى منحها إمتياز خفة الضرائب الجمركية (8٪ من قيمتها فقط). فهكذا فإن فرنسا وإيطاليا وبريطانيا كانت تسيطر على 92٪ من المبادلات التجارية التونسية [١٥]، وهي نسبة دالة أحسن دلالة على من هو سيد الوضع التجاري في تونس.

ثم إن هذا «الغزو» التجاري والمالي قد دحرج التونسيين إلى الاهتمام بتربية الماشية وامتهان الزراعة دون أن يكونوا مديري تجارتها داخلياً (إلا في حدود معينة)، أما تصديرها إلى الخارج فكان من اختصاص شركات أوربية أهمها من مرسيليا وجنوة.

وحتميٌّ والوضع الإقتصادي والمالي على هذا الحال أن يلجَ هذا البلـد بـاب الإفلاس المالي. وهذا ما حدث فعلاً سنة 1869، الأمر الذي استغل أحسن استغلال من الأوربيين فأنشأوا لجنة مالية دولية لمراقبة مالية واقتصاد تونس مراقبة مباشرة مصلحية شديدة [١١]، ومن وراء ذلك تعميق النفوذ السياسي الأوربي وبالأخص الفرنسي والاستعداد لقطف «الإجاصة الناضجة» على حد تعبير بسمارك [١٢]، ويعني بالإجاصة الناضجة المملكة التونسية.

ولا يفوتنا بهذا الصدد الإشارة إلى أن قلة أمانة وإكتراث مسؤولين سامين تونسيين بمصلحة بلادهم قد ساهم هو بدوره وبقدر لا يستهان به في إيقاع تونس في ضائقتها المالية التي أشرنا إليها. وكان على رأس هذا الصنف نسيم شمامة المستأجر العام الذي غادر تونس سنة 1864، ومصطفى خزندار ـ وقد أشرنا إليه سابقاً ـ وقد ثبت أنهما إختلسا مبالغ مالية كبيرة في ظروف كانت تونس في أمس الحاجة إليها لصد التدخل المالي والاقتصادي الأجنبي [١٣].

وبخصوص الجانب الثقافي والعلمي التطبيقي فقد أدرك عقلاء تونس ممن أسندت لهم مهام في إدارة شؤون البلاد عجز ثقافتهم في الميدان العلمي التطبيقي وطغيان النمط التقليدي التكراري، وقد احتد إدراكهم هذا خاصة بعد احتلال فرنسا للجزائر. فشرعوا في الاستقدام إلى تونس نماذج عن المدارس العسكرية الأوربية والكليات المتخصصة وإيجاد نظام تعليمي جديد كفيل بمسايرة العصر.

ومن المنجزات البارزة في هذا الإتجاه مدرسة البوليتيكنيك التي أقيمت في حدود سنة 1850م والتي جمع برنامجها الدراسي بين الثقافة العامة والفن العسكري. وقد سبق إنشاء هذه المدرسة إصدار قانون سنة 1842م الذي نظم سير الدروس وحسّن رواتب الأساتذة وفرض عليهم الدوام في عملية التدريس.

وجاء مرسوم سنة 1875 ليعيد النظر في البرامج الدراسية، فنصت مادته الأولى على ضرورة التوسيع إلى جانب العلوم الدينية والفلسفية ـ من نصيب الحقوق والأدب والتاريخ والجغرافية والرسم الهندسي والحساب والهندسة المعمارية والفلك وعلم المساحة (التوبوغرافية).

وفي نفس السنة الأخيرة وسع الوزير خير الدين إطارات جامعة الزيتونة وزاد في عدد أساتذة كليات الأقاليم وأنشأ في تونس مكتبة علمية كبرى ومؤسسة تعليمية يغلب

عليا الطابع العلمي هي كلية الصادقية. وكان أفضل عناصر هذه الكلية يوفدون في بعثات إلى أوربا تحضيراً لهم لدخول الجامعات والمدارس العليا.
ويضاف إلى هذا المجهود وجود عشرين مدرسة أجنبية في تونس كانت تباشر عملية التعليم حسب المناهج الغربية [14].

بيد أن هذا الإصلاح المتأخر لم يكن كفيلاً بإحداث الإنقلاب العلمي التطبيقي المنشود وإن أخلص المصلحون في عملهم: فميراث قرون من الجمود والتخلف في هذا الميدان لا يُصلح ويستدرك في سنوات معدودة. وقد تأثر عملهم الإصلاحي بالأوضاع السياسية والاقتصادية المحيطة أيما تأثر، بل وجد معارضة من «زعماء الجمود» في الداخل باسم الدين وإن كانت هذه المعارضة قد تلاشت بمرور الزمن وخاصة في عهد خير الدين.

هوامش:

(1) ذكر موقف الباي حسين جون غانياج في كتابه، أصول الحماية الفرنسية في تونس 1861 ـ 1881، (بالفرنسية) باريس، 1959، ص. 14.
(2) **الحركات الاستقلالية في المغرب العربي**، طنجة، بدون تاريخ، ص. 37.
(3) محمد الصالح لاجري، **تطوّر الحركة الوطنية التونسية** (بالفرنسية) الدار التونسية للنشر، تونس، 1974 الجزء 1، ص. 12.
(4) يراجع بخصوص مواقف الدول الأوروبية الكبرى المرجع السابق، ص.ص 38 ـ 50 وقد علق الكردينال لافيجري في تقرير سري بتاريخ 1881/04/24 على موقف بسمارك بما أثبتناه في النص. راجع هذا التقرير معرباً في كتاب المحجوبي (علي). **إنتصاب الحماية الفرنسية بتونس**، ترجمة عمر بن ضو وحليمة قرقوري وعلي المحجوبي، دار سراس للنشر، تونس، 1986، ص ص. 159. 165.
(5) مرجع سابق، ص.9.
(6) غانياج، مرجع سابق، ص. 76 و صص 68 ـ 67.
(7) لدراسة شاملة عن هذا المصلح أنظر، كرو (أبو القاسم محمد)، **خير الدين التونسي**، تونس، 1958 وفان كريكن (ج. س) **خير الدين والبلاد التونسية 1850 ـ 1881**، ترجمة البشير سلامة، دار سحنون بتونس وأي بريل بليدن، 1988 والمنجي صميدة، خير الدين، **الوزير المصلح** (بالفرنسية)، الدار التونسية للنشر، 1970.
(8) غانياج «الأزمة المالية التونسية وارتقاء يهود تونس (1860 ـ 1880)»، **المجلة الافريقية**، السداسي الأول والثاني، 1955، ص. 153.
(9) حرصت فرنسا أن تنفرد بإقراض تونس لاعتبارات سياسية واضحة، وقد حصلت تونس على أول قرض من بنك خاص يدعى إرلنجي وشركاؤه (أنظر Sammut (Carnel), L'impérialisme capitaliste français et le nationalisme tunisien (1881- 1914), Publisehed, Paris, 1983, p. 43.
(10) غانياج، مرجع سابق، ص 55.
(11) أنظر مقتطف من التقرير الذي قدم للجنة المكلفة بتنظيم القطاعات الاقتصادية في تونس بعد انتصاب الحماية (أوت 1882) في كتاب ساموت (Sammut) مرجع سابق، ص 46) والذي يؤكد على أن مقرضي الباي لم يكن يهمهم إلا «استرجاع» أموالهم وإن أدى ذلك إلى خراب اقتصاد تونس.
(12) لاجرى، مرجع سابق، ص. 47.
(13) أنظر بعض التفاصيل عن سيرة هذين المسؤولين في كتاب فان كريكن، مرجع سابق، ص ص. 176 ـ 177.
(14) الثعالبي (عبد العزيز)، **تونس الشهيدة**، ترجمة وتقديم سامي الجندي، دار القدس، لبنان، ط. 1، 1975، ص ص. 55 ـ 57، وفان كريكن، مرجع سابق، ص ص 200 ـ 212.

مساهمة الخالدي صالح بن عمار
في التعريف بالقضية الجزائرية
(1903 ـ 1906)

د. عمـار هـلال

1 ـ بداية الحركة السياسية:

من المعروف أن سنة 1912 تمثل بداية نشاط سياسي منظم، قامت به نخبة من الشبان الجزائريين الذين تعلموا في المدارس الاستعمارية بالجزائر[1]، وكان جل هؤلاء الشبان يتعاطون مهنة التعليم في المدارس الاستعمارية، ومن ثم فمن الناحية العلمية يمكن اعتبار هؤلاء على أغلبيتهم مثقفين من الدرجة الثانية عدا القلة القليلة التي تزودت بثقافة استعمارية عالية، ومبررنا لذلك، هو أن الجامعة الفرنسية خلال الفترة الممتدة ما بين سنتي 1839 ـ 1914، لم تكون سوى 12 طبيباً جزائرياً، اهتم ثلاثة منهم بالميدان السياسي، بينما لم يهتم الآخرون إلا بتنمية معارفهم العلمية في ميدان تخصصاتهم المختلفة، وأوضاعهم الاجتماعية التي وضعوها فوق كل اعتبار. وبما أننا أخذنا الأطباء الجزائريين كعيّنة للوقوف على مدى مساهمة المثقفين الجزائريين في إرساء حركة سياسية وطنية جزائرية، ففي بداية ظهور هذه الحركة لا نعرف على حد علمنا سوى الطبيب ابن التهامي، المختص في أمراض العيون، الذي قاد وفداً جزائرياً للتحدث مع البرلمانيين الفرنسيين في باريس، وبعض الساسة الفرنسيين بخصوص التجنيد الإجباري، الذي فُرض على الجزائريين من طرف الاحتلال الفرنسي في شهر فيفري من سنة 1912.

وقد التقى الوفد الذي كان يقوده ابن التهامي في باريس بوفد جزائري آخر،

كان يقوده امحمد بن رحال، الذي انتقل إلى باريس لنفس الغرض الذي انتقل من أجله ابن التهامي.

وعلى الرغم من التباين الواضح فيما يخص سلوك وتعلم وتربية كل من ابن التهامي وابن رحال فقد تطابقت آراؤهما، ووجهة نظرهما بشكل ملحوظ حول الأوضاع المأساوية التي كان الشعب الجزائري يعيشها تحت وطأة الاحتلال الفرنسي(د)، وقد دارت مطالب كلا الوفدين حول محور واحد، وهو الدفاع عن الحقوق المدنية والسياسية للجزائريين في ظل الحكم الاستعماري الفرنسي.

وقبل ذلك بسنوات قلائل حاول كل من عمر راسم وعمر بن قدور الجزائريين بواسطة كتاباتهما في الجرائد المحلية والعربية. إثارة بعض القضايا التي تهم الجزائريين، وقد يعتبر الأول من الوطنيين الأوائل الذين اعتنقوا فكرة الإصلاح وحاولوا بالوسائل البسيطة التي توفرت لديهم إرساء أركانها في المجتمع الجزائري. كما حدد عمر راسم مواقفه من عدة قضايا فرضت نفسها آنذاك على الساحة السياسية، «كالفرنسية» (سياسة الإندماج) «التجنيد الإجباري» الصهيونية وغيرها من القضايا الأخرى، أما عمر بن قدور الجزائري فقد يرجع إليه الفضل في استعمال كلمة «الوطنية» في كتاباته المنشورة بجريدة الأخبار، وتحديد معانيها وأهدافها البعيدة.

2 ـ التقاء أفكارها ببعضها البعض:

وما يهمنا من هذه المقدمة كلها. أن هؤلاء جميعا. انطلقوا من فكرة واحدة ارتكزت عليها آراؤهم الإصلاحية والسياسية. وهي: الأوضاع المأساوية التي كان الشعب الجزائري يعيشها قبيل إندلاع الحرب الأولى. سياسيا واقتصادياً، واجتماعيا، وثقافيا، ودينيا، وفي هذه الحقبة التاريخية المتقدمة بالنسبة لتطور الحركة الوطنية الجزائرية عمل كل فريق سياسي. كما عمل كل فرد اعتنق نوعا من الأفكـار السياسية أو الاجتماعية أو الإصلاحية بوسائله الخاصة. وعلى الرغم من محدودية الإمكانيات المادية والبشرية لم يقترب فريق من الآخر عمليا. ولم يلتحم فرد بآخر مصيريا، إلا في بعض الحالات الشاذة. وذلك مثل تعاون كل من عمر راسم وعمر ابن قدور في إصدار صحيفة (الفاروق). في شهر فيفري سنة 1913 (د)، ولكن هذا التقارب بينهما لم يعمر طويلا. وانفضت الشركة بينهما قبل قيامها.

في هذا الإطار أي المجهود الفردي. الذي غالبا لا يأتي بثمرته وتتشتت نتائجه وتتبعثر قبل أن تجد لها أرضية صلبة تغرس فيها تتبيها لتثمر وتأتي بأكلتها ناضجة مفيدة، عمل السيد الخالدي سالح بن عمار وقد يعتبر هذا الأخير، من الناحية العلمية من الشخصيات الجزائرية الأولى التي قاومت السياسة الاستعمارية في الجزائر، بحيث شن على إدارة الإحتلال عدّة حملات قلمية. في الداخل والخارج، أقلقتها كثيرا وراحت تحسب لها ألف حساب، وتعمل لإحباطها بكل الوسائل والطرق، وكان من السهل على إدارة الإحتلال الفرنسي في الجزائر أن تضع حداً فاصلا للنشاط السياسي الوطني الذي قام به صالح ابن عمار الخالدي فيما بين سنتي 1903 ـ 1906، لو استقر هذا الأخير في مكان ما. ولكن تنقلاته العديدة وعدم استقراره سواء في داخل البلاد، أو في البلدان العربية العديدة التي انتقل إليها مبشرا بالقضية الجزائرية ومنددا بالمظالم التي يرتكبهايوميا الإحتلال الفرنسي في البلاد. كل ذلك جعل إدارة الإحتلال تخفق المرة تلو الأخرى في محاولاتها لإيقاف نشاطه السياسي المناهض لها.(ه)

3) ـ من أوائل الشخصيات الجزائرية السياسية المعاصرة:

ولد صالح بن عمار في قرية بني مزلين على بعد حوالي 20 كلم. شرقي قالمة في حدود سنة 1879، حيث إلتحق بإحدى المدارس القرآنية في سن مبكرة وحفظ بها ما تيسر له من القرآن الكريم. وعندما بلغ السن الدراسية القانونية أدخله أبوه الشيخ صالح مدرسة التعليم الإستعماري الوحيدة من نوعها في قالمة حينئذ.

أ ـ تعليم الخالدي:

منذ بداية تعليمه انكب الشاب صالح بن عمار على الدراسة بشغف كبير مبديا مقدرته الفائقة على الاستيعاب والفهم والتحصيل. الشئ الذي جعله يحتل الصدارة ويبرز بين زملائه الجزائريين منهم وأبناء الكولون على السواء، بل تفوق عليهم تفوقا ملحوظا من حيث احتلال المراتب الأولى في الإمتحانات الفصلية والمسابقات للإنتقال من مرحلة دراسية إلى الأخرى، مما جعله يتقدم في دراسته بشكل عادي ليلتحق أخيرا بالمرحلة الثانوية للتعليم الإستعماري.

وذلك في وقت، أي في نهاية القرن الماضي. كان يستحيل فيه تقريبا على

الجزائريين الارتقاء إلى هذه المرحلة التعليمية الإستعمارية التي إلى وقت قريب منا كانت تعتبر في نظر الأهالي من أرقى مراحل التعليم الاستعماري في الجزائر بعد إتمام دراسته الإبتدائية والمتوسطة في قالمة إنتقل حوالي سنة 1895 وعمره آنذاك تناهز 16 سنة، إلى قسنطينة لمزاولة دراسته، حيث وجد مجالا رحبا لتثقيف نفسه. فبالإضافة إلى متابعة دُروسه في الثانوية الفرنسية، كان يتردد على المدرسة الكتانية لمتابعة بعض الدروس التي تهمه، كما كان يحضر باستمرار الحلقات الدراسية التي تنضم في بعض مساجد وزوايا المدينة ، ومن هنا اختلف صالح بن عمار عن باقي زملائه الوطنيين الذين يطلق عنهم عادة اسم «الشبان الجزائريين». في إطار بروز وتطور الحركة الوطنية الجزائرية (5) والذين عادة ما كانوا يكتفون بتعلم اللغة الفرنسية ويهملون تماما تعلم اللغة العربية، وما ينجز عنه من منافع تثقيفية. وفكرية، وحضارية.

ب ـ بعض أفكار الخالدي:

وقد شهد له أعداؤه، قبل أصدقائه، بنبوغه الفكري وبذكائه الحاد وبمدى اهتمامه بالعلم والسياسة في آن واحد، بحيث لم يفرق بينهما قط، وجعلها مكملين لبعضها البعض، بحيث كان يرى أنه ليس هناك علم بدون سياسة والعكس صحيح، وله في هذا الشأن بعض الآراء، وقد عرف عمار كيف يستخدم ثقافته العالية التي اكتسب بواسطتها مهارة سياسية لمواجهة الإدارة الاستعمارية في بلده، مستغلاً في ذلك حتى بعض الأوساط السياسية الفرنسية وبعض الشخصيات البرلمانية الفرنسية، فكان يقترب من الذين يشم فيه رائحة تنبأ بعدم الاطمئنان للاستعمار سواء كان ذلك عن طبع، وسليقة وصدق أو رياء، ومدجاة، فالذي كان يهمه هو المساندة المعنوية التي يمكن أن يقدمها له هذا أو ذاك لكي يستطيع التعبير عن آرائه السياسية في المناسبات والمجالات التي يمكن استغلالها. وهكذا، وبواسطة السيد البان روني إحدى الشخصيات الفرنسية البارزة في وقته، استطاع صالح بن عمار أن ينال ثقة الحكومة العامة.

ج ـ خطة الخالدي العملية:

وقد تمكن صالح ابن عمار أن يوهمها أنه مكلف من طرف وزارة

المستعمرات الفرنسية بمهمة خاصة في الجزائر، دون أن يكشف لها عن فحوى هذه المهمة، وقد نجحت فعلاً الخطة الجريئة هاته، التي استعملها مع الحكومة العامة التي فتحت أمامه أبواب إدارتها ومكاتب العاملين فيها على مختلف طبقاتهم ودرجات مسؤولياتهم.

وقد استغل هذه الوضعية ليتصل بشخصيات فرنسية عديدة، وبعض مدراء الصحف الفرنسية، وكل من كانت له علاقة بالشؤون الأهلية الجزائرية كما استطاع تحت إشراف الجمعية الجغرافية لمدينة الجزائر، أن يلقي محاضرة علمية هامة حول الرحلة التي قام بها نحو الـواد وبحر الغزال وتعتبر هذه المحاضرة تمهيدا لخطوات سياسية هامة، كان صالح بن عمار الخالدي ينوي القيام بها في أوانها ولكن الزمن داهمه، واكتشفت الحكومة العامة أمره في أوائل شهر أوت سنة 1903، فاعتقله وسجنته ثم أحالته على محاكم الردع الخاصة بالأهالي الجزائريين، فحكمت عليه بالسجن لمدة 15 يوماً، وبغرامة مالية مقدرها 50 فرنكا، وذلك بعد تدخل عدة شخصيات سياسية لصالحه.

د ـ اعتقاله ونشاطه في تونس:

بعد إطلاق سراحه، سافر إلى تونس حيث قضى حوالي ثلاثة سنوات. ولا نعرف بالضبط كيف قضى هذه المدة الزمنية هناك، وما هو نوع النشاط الذي كان يقوم به، ولكن في الفاتح من جانفي سنة 1906 هرعت الإدارة الفرنسية «لنداء إلى الثورة» وجهه أحد الجزائريين من تونس إلى بني جلدته في الجزائر، يدعى خوالدية صالح ابن عمار وقد أمضى صالح بن عمار هذا البيان بصفته رئيسا مفوضا للجنة المركزية لهيئة سياسية تدعى: «الإتحاد الإسلامي».

وقد أكد خوالدية صالح في هذا البيان على أن أوربا تستمر بطريقة مدروسة في خطتها التي تهدف إلى تدمير ركائز الإسلام، وهو الشئ الذي حسب رأيه قد يدفع العرب مستقبلا إلى تكوين كتلة واحدة لتقف ضدها، ويختم خوالدية صالح هذا النداء للثورة ضد الاحتلال الفرنسي في الجزائر بما يلي:

وعندما يحين وقت الجهاد الأكبر سنحتل الصدارة المركزية للإتحاد الإسلامي، لقيادة المعارك وستقودكم نحن إلى النصر الحق.. (6)

هـ ـ نشاطه في مصر:

بعد أيام قلائل من نشر هذا البيان تفاديا لبطش الاستعمار الفرنسي، غادر الخالدي صالح تونس نحو مصر وقبل وصوله إلى القاهرة توقف بضعة أيام في ليبيا حيث اتصل هنالك بالسنوسيين في إحدى زواياهم الهامة ببنغازي، وقد رحب به السنوسيون واعتبروه من عظام رجال العصر واتفقوا معه على المضي قدماً في تنفيذ خطة هيئة الاتحاد الإسلامي.

وبعد استقراره في القاهرة، نشر الخالدي صالح بن عمار عدة مقالات سياسية في بعض الصحف المصرية، عالج فيها الوضع المأساوي الذي كانت تعيشه الأمة الإسلامية، ومن مقالاته هذه نخص بالذكر مقالاً هاماً نشرته صحيفة مصرية ناطقة بغير العربية تحت عنوان (الإسلام) وقعه باسمه الكامل صالح بن عمار الخالدي الحسين، وقد جلب هذا المقال انظار كثير من المثقفين العرب منهم أحد الكتاب المصريين المدعو خليل أفندي الذي أراقه كثيرا، فقدم صاحبه إلى القراء العرب في مقال نشره في صحيفة المؤيد [7] بتقدير واحترام كبيرين مشيراً إلى أن صالح بن عمار الخالدي هو شاب في مقتبل العمر لا يعرف الكلل والملل يزخر حيوية ونشاطاً تتمثل فيه كل صفات الرجولية والمروءة العربية تجول في أوربا طولا وعرضا وزار كثيرا من البلدان الإسلامية مخترقا الصحاري الإفريقية والعربية، واعترافا بما بذله من جهود لنصرة الإسلام والمسلمين خصص السلطان العثماني لضيفه اقامة دامت عدة أشهر.

وقد يضاهي كره صالح بن عمار الخالدي الاستعمار بصفة عامة والفرنسي بصفة خاصة تعاطفه مع العثمانيين وتمسكه بفكرة الخلافة الإسلامية، وهو ما يفصح عنه في مقاله السابق الذكر بحيث يرى أن سياسة الدول الكبرى الأوربية لا تهدف إلا لتفرقة المسلمين وبالتالي إلى أضعافهم دينيا ودنيويا مشيرا إلى أنه ليس هناك من عدو للإسلام والمسلمين سوى فرنسا وبريطانيا اللتان تستغلان قوتهما ونفوذهما السياسية والعسكرية لانتزاع الخلافة من الباب العالي وحصرها في أمير أو سلطان عربي يكون أداة طيعة في أيديهما تفعلان به ما تريدان... ولا يرى من حل للمسلمين للخروج من المأزق الذي يتخبطون فيه سوى النهوض من سباتهم العميق والوقوف كرجل واحد ضد المحتلين الغاضبين.

وتأثراً بفكرة الجامعة الإسلامية يرى صالح بن عمار أنه لا مجال لتقدم المسلمين أو لانتعاشهم حضاريا وثقافيا واقتصاديا إلا في الإبتعاد عن الحزازات الهامشية وتوحيد صفوفهم ماديا ومعنويا، فبذلك يمكن إنقاذ ما تقدم من حضارة وثقافة ومفاخر الإسلام الشهيرة ويمثل التاريخ بالنسبة إليه المصدر الأساسي الذي يجب على الأمة الإسلامية الرجوع إليه لإستقاء مواقفها منه.

ولشحذ الهمم ودغدغة روح المبادرة في بني قومه يأخذ الخالدي اليابان كمثال للتقدم والإزدهار بحيث يقول عنه أنه بعد أقل من قرن من هذا التاريخ 1906 كان اليابان منغمساً في بربرية البربريات ولكن بفضل أبنائه المخلصين استطاع في وقت وجيز أن يضع حداً فاصلاً بينه وبين الفترة المظلمة التي كان يعيشها وصد عنها دون رجعة.

وما يلاحظ عنه هنا أنه خلافا للنداء السابق الذي وجهه للشعب الجزائري من تونس لينفض عنه نهائيا غبار الإستعمار الفرنسي بالثورة ضده لم يحرض الخالدي وهو في القاهرة المسلمين الذين يئنون تحت وطأة الاستعمار عامة، والجزائريين خاصة على استعمال السلاح ضده للحصول على استقلالهم سياسيا واقتصاديا، ولكن يقف مطولا على ضرورة إدراك الأوضاع المأسوية التي يعيشونها جملة وتفصيلا.

و ـ نشاطه في المغرب:

وفي بداية صائفة سنة 1906 نقل الخالدي نشاطه المعادي للاستعمار الفرنسي من القاهرة إلى المغرب بحيث سعى في طنجة إلى تأسيس جريدة مناهضة له وذلك في نفس الوقت الذي كان يعقد فيه تجمعات مع الوطنيين المغاربة يحرضهم خلالها على الثورة ضده مستهيناً به إلى حد بعيد يثير الضحك تارة والتألم والحزن تارة أخرى [8].

وفوروصوله إلى طنجة إتصل الخالدي بالسيد كيسميناس الذي يدير حينئذ صحيفة «إفريقيا اسبانيولا» وهي صحيفة ذات نزعة عدائية للاستعمار كيفما كان وحيثما وجد على سطح المعمورة وحسب مناهجها هذا سعت هذه الصحيفة جاهدة لربط صلات وثيقة بينها وبين بعض الجرائد المماثلة لها في أوربا والبلدان العربية كما حاولت الإقتراب من جميع الوطنيين المناهضين للاستعمار الفرنسي في أكثر من مناسبة، ولتمكين

الخالدي من ممارسة نشاطه السياسي ضد فرنسا الاستعمارية قدمه السيد كسيمناس إلى كثير من الشخصيات السياسية في طنجة واضعا صحيفته تحت خدمة الجميع ولكن الحظ لم يسعف الخالدي هذه المرة فسواء شعر أو لم يشعر. فقد كان الاستعمار الفرنسي يراقب خطواته خطوة خطوة ولم يغب عنه شيء مما قام به من تنديد وتشهير به وبالمظالم التي كان يرتكبها في مستعمراته في إفريقيا، وألقى بوليسه القبض عليه يوم 06 أوت سنة 1906 ونقله مكبلا إلى وهران حيث سجن لمدة ما، ثم أحيل على محاكم الردع الاستعمارية الخاصة بالأهالي الجزائريين التي حكمت عليه بالنفي المؤبد من الجزائر ويبدو أنه اختار مدينة دمشق كمنفى له، ذلك عشية بداية تحرك موجة من أهم موجات الهجرة الجزائرية نحو بلاد الشام، [9] ومنذ هذا التاريخ تنقطع أخباره ولا نعرف كيف وأين انتهت حياته[10].

وخلاصة القول أن الخالدي صالح بن عمار وعيا لذاته وللدور المتوجب على المثقف تأديته، ضحى بربيع شبابه متنقلا عبر العواصم الإسلامية والعربية حاملا تحت إبطه القضية الجزائرية عارضاً إياها على الحكام العرب والصحافة العربية، وفي التاريخ المعاصر للجزائر لا نعرف قبله شخصية قامت بهذا النوع من النشاط، أي المقاومة السياسية، في بداية هذا العصر. ومن ثمة فالقول القائل: «إن حركة الشبان الجزائريين» قد بدأت في سنة 1912 قابل جداً للنقاش، وهو بدون شك محتاج إلى مراجعة.

ملحق البحث

شجرة نسب الخالدي صالح بن عمر (*)

(1) عيسى – أوراسي أصلاً، كان مستقراً بقرية أريس.
(2) خالد – نزح إلى نواحي قالمة في بداية احتلال الجزائر استقر في بني مزلين.
(3) لعلى – أسس بني مزلين، زاوية على بعد حوالي 20 كلم شرقي قالمة.
(4) عمار (قايد).

الفضيل مقدم زاوية عمارة بن يعلى بيني مزلين

محمد (مقدم زاوية الحفناوي بالناظور)

السعيد (قايد)

بضياف (ترجمان الإدارة)

صالح 1879.

(*) اسمه الحقيقي صالح بن عمار خوالدية، لكن نسبة إلى جده الثاني حسب تسلسل شجرة نسبه «خالد» عرف أيضاً تحت اسم (الخالدي) وفضلنا أخذ هذه التسمية الأخيرة.
– من ناحية والدته، فهي عيشة نسبة إلى أولاد لعشاش، ومواطن سكناهم في نواحي سدراته.
– قبل أن يلتحق بالمدرسة الاستعمارية، تعلم القرآن في زاوية عمارة بن يعلى بيني مزلين، ثم بزاوية بديار الحفناوي الرحمانية بالناظور.

الهوامش:

(1) أصلاً أوراسي من قبيلة اتوابة، التي كانت تقطن أريس وبعض نواحيه.

(2) طوال عهد الاحتلال الفرنسي للجزائر (1830 ـ 1962) لم يكن التعليم الفرنسي بالنسبة للجزائريين «حكومياً» بحيث اقتصر على فئة معينة من الجزائريين، لذلك نفضل أن نطلق عليه اسم «التعليم الاستعماري» وليس التعليم الفرنسي، ولا كذلك «التعليم الحكومي».

(3) انظر عن ذلك، محمد ناصر، الصحف العربية الجزائرية (1847 ـ 1830) الجزائر 1980.

(4) لمزيد من التفاصيل أنظر الدكتور أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية.

(5) وفي الحقيقة فإن مقر هذه الهيئة كان يوجد آنذاك بباريس وليس في تونس، ولقد تؤكد الوثائق على أن نداءً مماثلاً كان قد وجه للجزائريين من باريس بتاريخ 28 ديسمبر 1905 من طرف الهيئة المذكورة ووزع على نطاق واسع بالأخص في القرى والأرياف الجزائرية.

(6) راجع عمار هلال، مجلة الثقافة: الخالدي صالح بن عمار، عدد 99، 1987 ص 115 ـ 125.

(7) عمار هلال: المرجع نفسه.

(8) المؤيد: 4 أفريل 1906.

(9) نقصد بذلك هجرة 1907، أنظر عن ذلك عمار هلال الهجرة الجزائرية نحو بلاد الشام (1847 ـ 1918) الجزائر 1987.

(10) يقال أنه توفي قبل انتهاء الحرب الأولى أو بعدها...

بعض المحافل الماسونية
في الشرق الجزائري

يوسف مناصرية

يجمع المؤرخون على أن الماسونية هي الاسم الجديد للشريعة اليهودية المقنعة، وأن رموزها وتقاليدها يهودية نابعة من (الكابالا) التي هي مزيج من الفلسفة والتعاليم الزوجية المعروفة عند اليهود منذ أقدم العصور[1].

والماسونية من أقدم وأعظم الجمعيات السرية التي مازالت قائمة، ومازالت غايتها الحقيقية سراً حتى على أعضائها أنفسهم، وهي مذهب سري لم تدون معالمها جميعاً، وأكثر أمورها تجري على نهج شفوي.

وجاء من نصوص الماسونية (مؤتمر الشرق الأعظم الفرنسي سنة 1923 وغيرها)، أن الماسونية اتفاقية دنيوية تهدف إلى التساند وتقصد الرفعة الأخلاقية ودستورها الحرية والمساواة والإخاء. وهي لا تشجع التزام الأديان ولا تناصرها[2]، بل تعتبر الدين عدوها الأزلي يجب سحقه وإزالة رجاله على ألا يقتصر نشاط الماسونية على شعب دون غيره.

ولتحقيق هذا الهدف لابد أولاً من التمسك بفكرة حرية العقيدة وشن الحرب على كافة الأديان لأنها ـ في اعتقادها - العدو الحقيقي للبشرية وهي السبب في التطاحن بين الأفراد والأمم عبر التاريخ.

وثانياً الكفاح من أجل إقامة القوانين والنظم اللادينية والوصول إلى إبادة الأديان جميعاً[3].

وقد نص (محفل الشرق الأعظم الفرنسي 1923) أنه على الماسونية ـ حتى

تصل إلى غايتها ـ أن تتلاءم مع مقتضيات الحياة اليومية، والإتفاق مع كل من لا يدعو إلى الدين أمثال الاشتراكيين والديمقراطيين ودعاة حقوق الإنسان والجمعيات المتحررة[٤]، وأن ينفذ الماسونيون في صفوف الجمعيات الدينية وغيرها، وأن اقتضت الضرورة عليهم أن يساهموا في تأسيس الجمعيات الدينية على أن لا تشم منها أي رائحة حقيقية للدين، وأن تنزع الأخلاق من أسسها خاصة في الجمعيات الرياضية والفرق الموسيقية وغيرها من المؤسسات التي لها علاقة عقلياً وجسمياً مع الناشئة[٥].

وتذكر نصوص المؤتمر الماسوني العالمي المنعقد بباريس سنة 1900، ومؤتمر الشرق الأعظم الفرنسي 1913 أن هدف الماسونية هو تكوين حكومة لا تعرف الله، وتكوين جمهورية لا دينية عالمية، وحتى تبلغ هذه الغاية اتخذت الإنسانية غاية لها، والنضال من أجل الوصول إلى فكرة فصل الدين عن الدولة.

ويعود النشاط الماسوني في شمال إفريقيا إلى مطلع القرن التاسع عشر حيث تأسست عدّة محافل ماسونية قدمت من فرنسا وإيطاليا وانجلترا وانتشرت بين الأوربيين، ونبعت منها محافل عديدة في القطر التونسي مثل (محفل أطفال قرطاجنة سنة 1841، ومحفل (القرطاجنية) سنة 1858 تحت رئاسة أنطونيو فينيا (Antonio Vigna) ومحفل (المثابرة) تحت رئاسة بامبيوسوليما (Pompeo Sulema) وكلاهما تابعين للمحفل الإيطالي.

وأسس المحفل الإنجليزي سنة 1877 (محفل قرطاجنة القديمة) وهو مرتبط بالمحفل الإنجليزي الأعظم عن طريق محفل مالطي. وانتظم الماسونيون الفرنسيون إلى هذه المحافل قبل عناية المحفل الفرنسي الأعظم بتأسيس محافله.

وفي سنة 1885 أسس المحفل الفرنسي الأعظم (محفل قرطاجنة الجديدة) وضم بعض الماسونيين الفرنسيين منهم فيليب كايا (Philippe Caillat) الذي كان خبيراً في الماسونية الفرنسية بالجزائر، وعين رئيسا للمحفل وبقي به حتى سنة 1902. [٥]

وعلى أية حال فإن بعض المصادر تذكر أن الماسونية انتهى نشاطها في تونس سنة 1960، ذلك أن الدولة التونسية كانت قد أمرت بحرق وثائق الماسونية غداة الاستقلال سنة 1956!

مع العلم أن وثائق الماسونية لا يمكن الإطلاع عليها حتى في فرنسا نفسها.

ويظهر أن النصوص الوحيدة التي نشرت هي وثائق المؤتمرات، ونذكر منها ما جاء في المؤتمر الثامن الماسوني لمحافل شمال إفريقيا المنعقد في تونس يومي 7 و8 أفريل 1901 تحت إشراف ممثل محفل الشرق الأعظم الفرنسي (Dupuy)، شارك فيه ثلاثون عضواً من المحافل الماسونية بالجزائر إلى جانب (محفل قرطاجنة الجديدة) بتونس و(محفل القرن 20) ببنزرت، تناولت المسائل السياسية والاجتماعية والموضوعات الماسونية، وأفردت الجزائر وتونس بموضوع خاص.

واستمدت المناقشة من قضية دريفوس (Dreyfus) وتناولت مشاكل الجيش، وانتخاب القانون الخاص بالجمعيات والعلاقة مع الكنيسة. وهنا طرح ممثل محفل قسنطينة موضوع (الحركة الكهنوتية في الجزائر) [٧].

وجاء في مؤتمر محافل شمال إفريقيا، المنعقد بتيزي وزو يومي 12 و13 أفريل 1903 أنه يجب تربية الأطفال وفق مناهج مقرر موضوع من طرف الدولة، وأن الذين يريدون تربية أطفالهم وتعليمهم بصورة خاصة في البيوت يجب أن يخضعوا لتدريس المعلمين الذين تعينهم الدولة، ونص على أنه لابد من تربية الأطفال بعيدا عن الدين[٨].

ولعل المقصود هنا هو منع تعليم أبناء المسلمين في الكتاتيب التي كانت منتشرة في الجزائر وخاصة منطقة جبال جرجرة التي كانت بها كثير من الكتاتيب القرآنية حافظت على العلوم العربية والإسلامية.

وقد عقد أكثر من اثنى عشرة مؤتمراً ماسونيا بالجزائر العاصمة بين سنوات 1905 ـ 1938، منها أربعة خصصت لمحافل بلدان شمال إفريقيا. كما عقد مؤتمران بمدينة وهران وتلمسان خصيصا لنفس المحافل الماسونية، وذلك بالإضافة إلى مؤتمر محافل الوسط الجزائري المنعقد يومي 4 و5 حزيران 1911، ومؤتمرات محافل المستعمرات التي كانت تعقد بباريس خاصة سنوات 1924 و1925 و1926.

أما بالنسبة للشرق الجزائري فقد عقدت عدّة مؤتمرات ماسونية وأخرى خاصة بمجال شمال إفريقيا[٥].

وقد اهتمت هذه المؤتمرات بعدّة موضوعات تناولت علاقة الماسونية بالأديان السماوية ومفاهيم الاشتراكية والديمقراطية وصلة الماسونية برجال الدين، ومسائل

اللائكية وحرية المرأة وحقوق الإنسان، وخصت الجزائر بعدّة دراسات منها موضوع (مراجعة قانون التجنيس وقرار كريميو)، وتاريخ محفل (أطفال مارس) بسكيكدة، وموضوعات أخرى مثل الغابات الجزائرية 1904 ـ 1905، وأحداث قسنطينة 5 أوت 1934، وغيرها كثير [15].

إن المحافل الماسونية التي كانت منتشرة في الشرق الجزائري، والتي سنعرف بها ـ كانت سرّية ولم تعرف إلا أثناء الحرب العالمية الثانية إثر قرار حكومة فيشي بحل الجمعيات السرية منها الماسونية الصادر بتاريخ 13 أوت 1940 [11]، وبمقتضى هذا القانون صار أي نشاط للجمعيات السرية جريمة، وأعطى الحق للإدارة أن تفرض على كل شخص يدخل الإدارة، التصريح بعدم الإنتماء إلى الفرا ماسونية، وفي حالة التصريح الكاذب يقتضي جنحة تؤدي بصاحبها إلى الإقالة الرسمية وحكم عام بالسجن لمدة تتراوح من شهر إلى سنتين وغرامة مالية من مائتين إلى عشرين ألف فرنك، وقدر قانون 13 أوت 1940 المعدل في 1942/2/27 عقوبات قانونية [12].

وبمقتضى هذا القانون قامت الشرطة الفرنسية بحجز جميع ممتلكات الجمعيات السرية، وظهرت هناك محافل عديدة متمركزة في الشرق الجزائري.

تم صدر قانون 14 مارس 1943، لإعادة استثمار الأموال في وكالاتها، وإعادة دمج المنتخبين والموظفين في عملهم وكانوا قد فصلوا بسبب إنتماءاتهم إلى الجمعيات السرّية. فأدمِجُوا في تجمع (Guyane Français)، ولم يسمح بإعادة نشاط الجمعيات إلا في نوفبر 1943 [13].

وقد أعلن عن رفع الرهن على ممتلكات هذه الجمعيات وإعادة نشاطها وفقا للقانون الصادر في نوفبر 1943 عن فرنسا الحرة (اللجنة الفرنسية للحرية الوطنية)، وكذلك وفقا للقانون الصادر بتاريخ 1943/12/15 اللاغي للمواد 1 ـ 2 ـ 3 من قانون 13 أوت 1940 [14] وبذلك استعادت المحافل الماسونية بالشرق الجزائري جميع ممتلكاتها بما في ذلك وثائقها وكتبها وأثاثها ومحلاتها.

وفي الأخير لابد من الإشارة إلى أن المعلومات الخاصة بالمحافل الماسونية في الشرق الجزائري هي مستقاه من أرشيف ولاية قسنطينة تحت رقم

(1) (UDA) (الجمعيات السرية). ويظهر أن هذا الرقم قد تغير مؤخراً نظراً للترتيبات الجديدة التي يعرفها الأرشيف الولائي.

محفل «أطفال مارس» ـ سكيكدة ـ

لا نعلم تاريخ تأسيس هذا المحفل بالضبط ولكن يمكننا أن يستنتج ذلك من السجلات المحجوزة، وخاصة الموضوع الذي كتبه السيد (Ledermann) تحت عنوان (تاريخ محفل أطفال مارس سكيكدة 1841 ـ 1926) ـ فيكون المحفل قد تأسس سنة 1841 ـ.

وكان هذا المحفل سنة 1948 يملك مقرا ببني مالك شارع يوغرطة ـ سكيكدة ـ ويقع تحت رئاسة السيد البير أوبرتين (Albert Aubertin) وهو تابع إلى محفل الشرق الأعظم الفرنسي. ويعتبر فرعا منه.

وكان شعاره يتمثل في ختم دائري وسطه عمودان متوازيان عموديا مكتوب على نصف دائرته العليا أطفال مارس في بداية العبارة ونهايتها فرجار مفتوح إلى الأسفل، وزاوية قائمة مفتوحة إلى الأعلى وبين العبارتين شمس مشرقة وسطها هيكل عظمي لرأس إنسان.

وبين العمودين هيكل عظمي لرأس انسان يشقه سيفان منحنيان على اليمين وعن الشمال.

محفل «نجمة الساحل» بجاية

وفقاً للسجل اليومي لهذا المحفل الذي حجزته مصالح أملاك الدولة بولاية قسنطينة سنة 1940، فإن هذا المحفل يكون قد تأسس سنة 1901 ذلك أن هذا السجل يبدأ من 1901 وينتهي سنة 1939 مع بداية الحرب العالمية الثانية. ويؤكد هذا التاريخ سجل المداخيل والمصاريف للمحفل الذي يبدأ سنة 1901 لينتهي سنة 1938.

وبقع مقر المحفل سنة 1946 ببجاية، 8 شارع فوبـــــون (Vauban)، تحت رئاسة السيد اميل جرار (Emile Gérard) .

وببجاية محفل ثان يسمى (اخوان النوميديين) ويظهر أنه تأسس هو الآخر حسب سجلات المحفل المحجوزة سنة 1901.

محفل «أخوة كلاما» ـ قالمـة ـ

يقع مقر هذا المحفل بمدينة قالمة، وكان سنة 1946 تحت رئاسة السيد جويجوار لويس (Louis Grégoire) . أستاذ الدروس الإضافية والمقيم بقالمة.

وكان المحفل سنوات 1922 تحت رئاسة الدكتور بيجي (Bugey) الذي ألقى محاضرتين الأولى بتاريخ 2 نوفمبر. والثانية بتاريخ 21 نوفمبر 1922 تحت عنوان (علاقة الجمهور بالكنيسة أثناء ومنذ الحرب). وخصصت الأولى لفترة الحرب والثانية لما بعد الحرب.

وركّز في الأولى على محاربة الكنيسة ولاحظ أن الجمهوريين كانوا قد وقعوا في فخ اليسوعيين أثناء قضية دريفوس، وأكد على إبراز الوسائل التي استعملت ضد الضباط الفرنسيين الماسونيين الذين حوربوا بقوة (لأنهم كانوا كفاراً)، ومنهم المارشال جوفر (Joffre) والجنرال صارال (Sarell)

وأبرز في محاضرته الثانية نشاط رجال الدين الكليروس في الجزائر، الذين عقدوا ملتقا بالجزائر في منطقة القبة ورصدوا أموالاً طائلة لتأسيس مدرسة لاعادة تكوين المعطوبين. ولما علمت المحافل الماسونية في الجزائر بالمشروع تدخلت لدى الحكومة العامة، وأهمل المشروع.

وأكد في آخر محاضرته أنه على الماسونيين الالتزام بالطاعة والتضامن التقليدي للماسونيين وذلك لكي يتبع الماسونيون بإخلاص المهمة الماسونية الكبيرة وهي البحث عن الحقيقة في إطار الحرية والعدالة والأخوة الاجتماعية والإنسانية.

والمؤكد هو تحقيق مجتمع إنساني بعيد عن الله وعن الدين.

وكان شعار هذا المحفل هو فرجار مفتوح إلى الأسفل. وزاوية قائمة مفتوحة إلى

الأعلى وشمس مشعة على أعلى الفرجار وغصنا زيتون يحتضنان الفرجار والزاوية القائمة من الأسفل إلى الأعلى.

محفل «سرتـا» ـ قسنطينـة ـ

لا ندري متى تأسس هذا المحفل بالضبط ولكن يظهر أنه هو المحفل الأم بالنسبة لمحافل الشرق الجزائري الماسونية كلها. وذلك حسب العبارة التي جاءت في مراسلة رئيس المحفل السيد فيريي (F. Ferrier) إلى والي عمالـــة قسنطينة بتاريخ 13 مارس 1952، حول ممتلكات محفل (نجمة الساحل) «أثاث محفلنا ببجاية».

وكان مقر محفل (سرتا) يقع في 14 شـــارع بانجي (Pinget) قسنطينة، وشعاره يتمثل في: عين انسان تحتها مثلث وسطه نجمة خماسية على يمين المثلث مطرقة ومعلقة، وعلى يساره فرجار وزاوية قائمة وتحتضن الجميع من الأسفل يدان متصافحتان، والشكل العام يظهر وكأنه النصف الأول من جسم الإنسان بدون رأس.

وبقسنطينة محفل ماسوني آخر يسمى (المضيافون) وذكرت جريدة (La Dépêche de Constantine) الصادرة بتاريخ 23 ماي 1937 أن هذا المحفل نظم اجتماعاً تناول فيه أولاً الموقف الحالي للماسونية رمز (F.∴M.∴) تجاه مسائل الأهالي الشمال إفريقيين (الجزائر ـ تونس ـ المغرب).

وثانيا الحركة النقابية منذ غابر الأزمنة إلى وقتنا الحاضر (1937) [14]

وذكرت بعض تقارير الشرطة بباتنة بتاريخ 29 جانفي 1937 أن السيد ديفرو (Defrot) رئيس محفـــل (المضيافون) بقسنطينة سيلقي محاضرة بالمسرح البلدي بباتنة يتناول فيها موضوع (الفرنكماسونية، هدفها، ومبادئها) وذلك حسب الدعوات التي يوزعها رئيس وأعضاء محفل (الأوراس) الماسوني بباتنة.[15]

محفل «هبونة» ـ عنابة ـ

لا ندري متى تأسس هذا المحفل بالضبط ولكننا نرجح أنه يكون قد تأسس خلال القرن 19 ما دام مؤتمر محافل شمال إفريقيا قد انعقد في نفس المدينة سنة 1900.

وكان هذا المحفل سنة 1949 يقع في 7 شارع الجديدة القديس أوغستين بعنابة تحت رئاسة السيد موريس برنسون (M. Barnasson) وكان شعار المحفل يتكون كالتالي:

الأول: فرجار مفتوح إلى الأسفل، وزاوية قائمة مفتوحة إلى الأعلى وسطها نجمة خماسية ويحتضنها غصنا زيتون من الأسفل إلى الأعلى.

الثاني: الختم دائري عليه عبارة محفل شرق عنابة، محفل هبونة، وبداخله عمودان قائمان متوازيان وسط كل واحد منها فرجار مفتوح إلى الأسفل وزاوية قائمة مفتوحة إلى الأعلى، ويشق العمودين سيفان من الأعلى ومطرقتان من الأسفل، وهما منحنيان نحو الداخل.

ويربط بين العمودين من الأعلى قوس تحته بعض النجوم الخماسية على يسارها هلال مفتوح إلى اليمين، وعلى يمينها شمس بوجه إنسان، وفوق القوس شكل يشبه الطير لعلّه العقاب أو الحمامة. ويربط بين العمودين من الناحية السفلى قوس مخطط وسطه هيكل عظمي لرأس انسان يشقه سيفان من الأسفل منحنيان نحو اليمين ونحو الشمال، وفي وسط الهيكل شكل نجمة ثمانية وشمس مشعة.

وهناك محافل ماسونية أخرى منتشرة في الشرق الجزائري مثل محفل (الوفاق السطائفي) بسطيف، ويظهر حسب السجل المحجوز لدى ولاية قسنطينة أن المحفل يكون قد تأسس مع بداية القرن 20.

ومحفل (جون جوريس) ببرج بوعريريج، ومحفل (نجمة نوميديا) بسوق أهراس.

ونلاحظ أن أغلب هذه المحافل ـ وحتى التونسية ـ قد أخذت أسماء لها من التاريخ الجزائري القديم. ترى ما هي الحكمة في ذلك وما هي الغاية المنشودة؟!..

ونحاول في الأخير تقديم بعض التوضيحات حول الشعارات التي أوردناها، إذ تقول بعض المصادر أن السيوف المستعملة من طرف الماسونيين هي مخصصة لمعاقبة كل من يخالف تعليمات الماسونية الذي يستحق اللعنة، فلقي مصرعه بخنجر مسموم في الظلام.

أما الزاوية القائمة والفرجار التي توضع دائما عـــلى شكل (٨) و (٧) أرقام هندية، بشكل متقاطع على شكل (V) لاتـــيني، بعنيان النصر (Victoire).

والعمودان يرمزان إلى عمودي هيكل سليمان (ص) والنجمة الخماسية استعملت في زمن النبي سليمان (ص) وقد اتخذت منها (جمعية الشرينرز) بأمريكا شعاراً لها.

أما المثلث المتساوي الأضلاع فهو رمز عالمي كثير الاستعمال عند الماسونية، وهو يشكّل نصف النجمة السداسية (نجمة داود) (ص).

وشعارات الماسونية كثيرة منها:

رسم الهلال ـ حرف (G) وحروف أخرى. الفانوس المثقوب بسيف ـ رسم اليدين المتصافحتين ـ السنبلة ـ رأس انسان يشكل شمس مشعة ـ العين الواحدة ـ الكف الواحد ـ والأذن الواحدة... الخ [١٧].

وهناك كثير من هذه الرموز احتجزت عند المحافل الماسونية بسنة 1940، وهي تشترك في أدوات كثيرة منها الزاوية القائمة مصنوعة من خشب، الهيكل العظمي للإنسان، الرأس والصدر، شظايا عظام الساق الأكبر، السيوف حوالي 225 سيفا والمثلثات المصنوعة أحيانا من قماش، والنجوم المعدنية الذهبية، وغيرها.

كما تلاحظ كثرة الكتب الماسونية والشيوعية والطقوسية (الماسونية)، وخاصة الكتب المتعلقة بحقوق الإنسان، وترقية المرأة، ووثائق المؤتمرات الماسونية التي تقع دائما بالتنسيق مع المؤتمرات العالمية الماسونية. وكذلك سجل المحافل الخاصة بالمنخرطين ودرجاتهم ولكنها متنوعة من الأوراق المكتوبة لسريتها.

والنتيجة هي أن هدفنا من الإشارة إلى هذه المحافل الماسونية ليس التعريف بها فقط وإنما لنتساءل ماهي الطرق التي تتبعها الماسونية العالمية اليوم لمحاربة تعاليم الشعوب في العالم؟!.

ولعل عنايتها بالشباب المثقف أكثر وخاصة بما يسمى بالانتيليجنسيا أوالنخبة في بلدان العالم، وخاصة العالم الإسلامي الذي نحن جزء منه.

فما مدى تأثير الماسونية كحركة فكرية على شبابنا وطلابنا وباحثينا من جهة وعلى حضارتنا وقيمنا ورموزنا وديننا ولغتنا وتاريخنا من جهة أخرى؟!...

الهوامش:

(1) جواد رفعت اتلخان، أسرار الماسونية، ترجمة وتعليق نور الدين رضا الواعظ المحامي. وسلمان محي الدين القلمي، د. م. ت، ص 6 ـ 19.

(2) اتلخان (نقلا عن النظام الماسوني الفرنسي 1884.

(3) اتلخان (نقلا عن المحفل الفرنسي الأعظم 1923)

(4) اتلخان، ص 26 ـ 27.

(5) المصدر نفسه (نقلا عن مؤتمر محفل الشرق الأعظم الفرنسي 1923) ص 28.

(6) Pierre, Soumille, Européens de Tunisie et questions religieuses (1892-1901), Etude d'une opinion publique, CNRS, Paris, 1975, pp. 38-41.

(7) Soumille, pp. 232-236.

(8) اتلخان، ص 37 ـ 38.

(9) لاحظ المؤتمرات الماسونية المنعقدة بالقطر الجزائري:

ـ الجزائر: المؤتمرات الماسونية المنعقدة سنوات 1905 ـ 1906 ـ 1907.

ـ المؤتمر 16 الماسوني، 9 ـ 10 / 4 / 1909.

ـ المؤتمر 18 الماسوني، 25 ـ 26 / 6 / 1910.

ـ المؤتمر 22 الماسوني، 1 ـ 3 / 4 / 1920

ـ المؤتمر 24 الماسوني، 13 ـ 15 / 4 / 1922

ـ المؤتمرات الماسونية 1925 ـ 1926.

ـ المؤتمر 32 لمحافل شمال إفريقيا، من 16 ـ 19 / 4 / 1930.

ـ المؤتمر 10 لمحافل شمال إفريقيا، 12 ـ 15 / 4 / 1933.

ـ المؤتمر 14 لمحافل شمال إفريقيا، 24 ـ 27 /3 /1937.

ـ المؤتمر 16 لمحافل شمال إفريقيا، 5 ـ 8 /4/ 1939.

ـ قسنطينة:

ـ المؤتمر 3 لمحافل شمال إفريقيا، من 24 ـ 25 / 5/1896

ـ المؤتمر 15 لمحافل شمال إفريقيا، 6 ـ 8 / 6 / 1908.

ـ المؤتمر الماسوني المنعقد في 1923.

ـ المؤتمر 11 لمحافل شمال إفريقيا، 28 ـ 31 / 3 / 1934.

ـ وهران:

ـ المؤتمر 9 للمحافل الماسونية لشمال إفريقيا، 23 ـ 26 / 3 / 1932.

ـ المؤتمر 15 للمحافل الماسونية لشمال إفريقيا، 13 ـ 16 / 4 / 1938

ـ عنابة:

ـ المؤتمر 7 الماسوني، 15 ـ 16 / 4 / 1900.

ـ المؤتمر 5 لمحافل شمال إفريقيا، 4 ـ 7 / 4 / 1928.

تلمسان: ـ المؤتمر 9 الماسوني، 30 ـ 31 / 3 / 1902.

تيزي وزو: ـ المؤتمر 10 الماسوني، 12 ـ 13 / 4 / 1903.

بجاية: المؤتمر الماسوني، 1904.

سكيكدة: ـ المؤتمر الماسوني، 26 / 7 / 1873.

أما بلدان المغرب العربي فقد انعقدت بها عدة مؤتمرات نذكر منها:

ـ تونس:

ـ المؤتمر الماسوني 1901 و 1924، والمؤتمر 13 لمحافل شمال إفريقيا 8 ـ 12 / 4 / 1936.

ـ بنزرت: المؤتمر الماسوني 1905.

ـ الرباط: المؤتمر السادس لمحافل شمال إفريقيا، 27 ـ 28/ 3 / 1929.

(10) G. Dazet et G. Dupuy, Révision de la loi sur la naturalisation en Algérie et du décret Crémieux.
— M.A. Bagard, la Tolérance religieuse dans l'Islamisme (Traduction).
— Moatti, la sécurité en Algérie.
— La maçonnerie Africaine 1849-1851.
— Bouchet, la question forestière en Algérie.
— E. Ledermann, Histoire de la loge "Les enfants de Mars" de philippeville de 1841 à 1926.
— Victor, Spielmann, la colonisation algérienne et la question indigène en 1922.
— Eug. Vallet, les évènements de Constantine du 5 Août 1934.
— Félix, Aumérat, Etude sur la question indigène en Algérie.

(11) ألغيت جميع نشاطات الجمعيات السرية العاملة في المستعمرات الفرنسية آنذاك بين سنوات 1940 ـ 1942، الجزائر، هايتي، كايان، الأراضي المنخفضة، طناناريف، المرتنيك، فيشي، برج فرنسا.
— A. O.M. Aix, C. 888 d 1, Affairés politiques.

(12) A.O.M Aix, C. 878 d. 8, Affaires politiques.

(13) Ibid, Télégramme, du 20.11.1943.

(14) Ibid.

(15) أرشيف بلدية قسنطينة، قسم الجرائد.

(16) أرشيف ولاية قسنطينة ((1) UDA) (الجمعيات السرية)

A.·. N.·. E.·. S.·. L.·. A.·. D.·. G.·. O.·. D.·. F.·.

Or.·. de Constantine, le 13 MAI 1952

La L.·. R.·. CIRTA

VÉNÉRABLE

V.FERRIER
14 Rue Pinget

Le Président de la Loge
"CIRTA"
à Monsieur le PREFET
du département de
CONSTANTINE

PREFECTURE DE CONSTANTINE
ARRIVÉE
14 MAI 1952
N°

Monsieur le Préfet

En application de la loi du 13 Août 1940 le matériel de notre loge de Bougie avait été confisqué et remisé dans les caves de la Préfecture

La loi du 13-8-1940 a été annulée par l'ordonnance du Comité Français de la Libération Nationale en date du 24 novembre 1943.

Depuis lors nous n'avions pas eu la possibilité de reprendre ce matériel;

Par la présente je vous demande Monsieur le Préfet de bien vouloir nous le faire restituer.

Veuillez agréer Monsieur le Préfet

L'expression de mes sentiments respectueux et dévoués

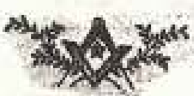
Ferrier

LIBERTE — EGALITE — FRATERNITE

A.·. N.·. E.·. S.·. L.·. A.·. D.·. G.·. O.·. D.·. F.·.

L.·. HIPPONE, O.·. DE BONE (Algérie)

Correspondance :
BARNASSON Maurice
7, rue Neuve St
Augustin BONE



Or.·. de Bône, le 2 Décembre 1949 (E.·. V.·.)

Monsieur le PREFET de CONSTANTINE
(Service des Archives départementales)

Nous avons l'honneur de vous faire connaitre que notre Président a signé ce jour le procés verbal de reddition de comptes et de remise de biens par l'Administration de l'Enregistrement, des Domaines et du Timbre, à la "LOGE D'HIPPONE".

En conséquence, conformément au Titre II-paragraphe Ier du dit procès verbal, nous vous prions de vouloir bien nous restituer les objets rituels et documents divers compris dans l'inventaire dressé le 6 janvier 1941 en notre possession.

Avec nos remerciements anticipés,

Veuillez agréer, Monsieur le Préfet, l'assurance de notre considération distinguée.

Le Secrétaire

ORIENT DE BÔNE — LOGE D'HIPPONE

Loge "Les Enfants de Mars"

le 5 - 8 - 48

Philippeville
A. F. AUBERTIN
Beni-Melek
PHILIPPEVILLE (Constantine)

Monsieur le Préfet

En réponse à votre lettre n° 253, j'ai l'honneur de vous faire savoir que j'ai bien reçu les documents appartenant à la Loge "Les Enfants de Mars" — dès ..., je vous ferai parvenir les emballages.

PREFECTURE DE CONSTANTINE — ARRIVÉE — 11 AOUT 1948

Seulement, une autre question reste encore à régler : c'est le versement par la Caisse des dépôts et consignations du montant de la vente de notre immeuble avec les intérêts depuis 1941. Je voudrais pouvoir régler cette affaire avant mon départ en France le 19 courant.

Veuillez agréer, Monsieur le Préfet, l'expression de mes sentiments distingués.

Le Président.

Aubertin

لمحات تاريخية عن مقدمات
ثورة نوفمبر 1954

د. بوعزة بوضرياسة

لقد مرّت ستة وثلاثون سنة على هذا اليوم الأغر، الذي اعتبر فاتحة عهد جديد في تاريخ الجزائر، فأعاد لها كرامتها وحريتها وشخصيتها هذه المقومات النبيلة التي لطختها الهمجية الفرنسية، وداستها بأقدامها القذرة قرابة مائة وثلاثون عاماً.

وليس بإمكاننا من خلال هذه السطور القليلة المتواضعة مهما كان محتواها ومهما بلغ حجمها أن نستوفي حق ذلك التاريخ المشرق الذي خط أسطورته الشعب الجزائري بدماء أبنائه الطاهرة الزكية، فسقط في ميدان الوغى أكثر من المليون ونصف المليون شهيد فداءً لاستقلال الوطن.

إن ثورة نوفمبر كانت شعبية في طموحاتها وفي كفاحها ضد العدو الفرنسي الآثم، وما حققته من انتصارات تلوى الأخرى إلا دليل قاطع على أنها فعلاً جماهيرية المحتوى والشكل بتحطيمها أسطورة القوة الفرنسية التي لا تقهر. فكانت صرحا من خيال فهوى أمام عزيمة مجاهدي الثورة الذين آمنوا بها روحا فباعوا أنفسهم في سوق الشهادة لتحيا الجزائر عربية مسلمة رغم كيد الأعداء الذين حاولوا ويحاولون فصمها عن إنتمائها الحضاري العربي الإسلامي...

لقد كانت الثورة الجزائرية المسلحة تتويجا لمراحل بطولية في تاريخ الحركة الوطنية ولكل أنواع المقاومات التي خاضها الشعب الجزائري والتي كانت رد فعل عنيف وقوي ضد التواجد الإستعماري الفرنسي.

إن ثورة نوفمبر وان تميزت بقوتها وضراوة معاركها وطول مدتها، إلا أنها

حولت أمنية الاستقلال حقيقة ملموسة ليس فقط على جزء من تراب الوطن المترامي الأطراف بل كانت شاملة لأنها لم تكن ثورة جهوية، وهذا ما جعلها وطنية شاملة جمعت بين النضال السياسي والعمل العسكري وهذا إنطلاقا من حتمية تاريخية أملت قوانينها على الواقع الجزائري المعيش الذي جعلها ثورة نموذجية طلائعية النضال، فهم يحلمون ليل نهار بالجبهة ويعجبون في أعماقهم بصمودها ونجاحها في تكثيل الشعب وصهره في الكفاح وفي تحقيق قوة قال عنها أحد الضباط الفرنسيين الذين حاربوها أنها أكبر وأعمق في العالم.

وهذا ما يجعلنا نجزم قطعا أن ثورة نوفمبر كانت المرحلة الحاسمة والفاصلة للفتور السياسي الذي طرأ على الساحة السياسية قبيل إندلاع الثورة المسلحة، وبالتالي فإنها استفادت من مراحل النضال التي سبقتها فكانت عبرة وموعظة لرجالها.

فالنضال السياسي إذن هو القاعدة الأساسية التي قامت عليها الثورة المبجلة.

وابتداء من عام 1927، تم إلغاء المبادئ الأساسية لقانون الاندجينا لعام 1881، الخاص بالأهالي الجزائريين والذي جاء ليضع الشعب الجزائري تحت قبضة الاستعمار الفرنسي وإدارته،هذه القبضة الحديدية التي تمثلت في العقوبات القاسية والضرائب الثقيلة التي انهكت كاهل الشعب لينعم المعمرون بخيرات الوطن ويتململون في نعيمها وليشقى الجزائريون وليكونوا عبيداً لهم، ليس هذا فحسب إنما تعرضوا كذلك بموجب هذا القانون إلى الطرد والابعاد والحجز بطرق تعسفية يندي لها جبين البشرية وهذا العمل ماهو إلا تجسيد لقانون الغاب وتعميقا لسياسة الإرهاب حتى يهان هذا الشعب على أرضه وتطمس شخصيته وتنتحر وطنيته أمام العالم أجمع...

وبحلول 11 ديسمبر 1927 ظهرت رابطة المنتخبين المسلمين بزعامة الدكتور محمد الصالح بن جلول هذه الشخصية التي تأثرت بفرنسا حتى النخاع، جاءت بأفكار لا تعدوان تكون إلا ضربا من الخيال ولم تعبر بأي حال من الأحوال عن رغبة الجزائريين في الإستقلال التام والحرية. بل رسخت فكرة الإرتباط بفرنسا الوطن الأم. ولقد طالب أعضاء رابطة المنتخبين المسلمين بالمساواة في الحقوق بين الجزائريين الأصليين ـ أي الأهالي والجزائريين الأوربيين وما فتئت هذه الفكرة إن تحولت إلى فكرة الانصهار في مقومات المجتمع الفرنسي، تحت إسم الإندماج الكامل، وهذا ما

يعكس طموحاتهم الرامية إلى جعل الجزائر ولاية فرنسية بعد أن كانت مستعمرة.

لقد تفاخر هؤلاء الاندماجيون بثقافة فرنسا أمهم الحنون وهذا ما جعلهم يعلنون أنهم لا يفكرون إلا بالفكر الفرنسي ولا يعبرون عنه إلا باللغة الفرنسية.

وفي هذه المرحلة بالذات، ظهر حزب نجم شمال إفريقيا الذي تكوّن في بدايته من عمال المغرب العربي المغتربين في فرنسا، غير أن الاخوان التونسيين والمغاربة بدأوا يبتعدون عن النظرة الواقعية للمغرب العربي واعتبروا أن قضية الجزائر قضية صعبة ومعقّدة بالمقارنة مع كل من القطرين التونسي والمغربي، وهذا ما دفع إلى أن يصبح الحزب فيما بعد حزبا جزائرياً محضا، وبذلك اعتلت المسألة الجزائرية كرسي المناقشات وطغت على كل جلساته.

ومع بداية عام 1931 ظهر حزب آخر ذو أهمية تمثل في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلى رأسها الشيخ عبد الحميد بن باديس وكان لهذا الحزب رد فعل قوي وعنيف ضد سياسة الإندماج التي رأى أنها عمل إجرامي يهدف إلى سلخ الجزائري عن هويته الحضارية ومقوماته الأساسية. وقد صرح الشيخ العلامة في إحدى مقالاته عن وجهة نظره تجاه زعماء الإندماج أمثال بن جلول وفرحات عباس قائلاً: «نحن العلماء الناطقون باسم أغلبية الشعب الجزائري ونقول الذين يدعون بأنهم فرنسيون أنتم لا تمثلوننا، إن الشعب الجزائري المسلم له تاريخه ووحدته الدينية ولغته وثقافته وتقاليده وإن هذا الشعب ليس فرنسيا ولا يستطيع أن يكون فرنسيا ولا يريد أن يكون فرنسيا».

إلى جانب هذا، فإن العلامة الشيخ عبد الحميد بن باديس أطلق العنان لقريحته الشعرية، فجاءت تعبيرا صادقا عن مواقفه السياسية ضد الإحتلال الفرنسي وعملائه في الداخل، فكانت قصيدته الرائعة شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب دليل قاطع وتعبير صادق عن فكره السياسي.

وفي 11 مارس 1937 ظهر حزب الشعب الجزائري الذي ما هو في حقيقة الأمر إلا امتداد لحزب شمال إفريقيا، والذي يمكن اعتباره نقطة لبداية، فمناضلوه لم يؤمنوا بالأحلام المزيفة كالمساواة في الحقوق والإندماج والجزائر فرنسية إنما ركزوا نشاطهم على المطالبة الضمنية بالإستقلال الكامل دون قيد أو شرط.

لقد انتصرت الجبهة الشعبية اليسارية في الانتخابات الرئاسية في فرنسا

وأعتلت سدة الحكم في عام 1936ممّاجعل الاندماجيين يهللون بها آملين في تحقيق مطالبهم فكان أول عمل لها هو حل نجم شمال إفريقيا واضطهاد مناضليه، ولاستقطاب التفاعل السياسي دعت إلى عقد المؤتمر الإسلامي في 01 جوان 1937 حضره كل من المنتخبين والعلماء المسلمين والشيوعيين وقدماء المحاربين والفلاحين قصد أعداد ميثاق يتضمن مطالب النخبة في تطبيق مشروع فيوليت وأهم ميزة في هذا المؤتمر هو الإعتراف باللغة العربية كلغة رسمية في الجزائر أما باقي المطالب فإنها كانت ترمي من بعيد أو من قريب إلى ربط الجزائر بفرنسا.

والملاحظ في هذا الحدث الهام والبارز هو معارضة حزب الشعب الجزائري المؤتمر وذلك بزعامة مصالي الحاج حيث رفض الإندماج من أساسه وقد تم الإعلان عن ذلك في التجمع الذي أقيم في الملعب البلدي بالجزائر العاصمة، وفيه أشار الزعيم الحاج مصالي أمام الملأ إلى الخطورة التي يكتسبها مشروع فيوليت وبالتالي آل المؤتمر ومعه مشروع موريس فيوليت إلى الفشل الذريع.

وباندلاع الحرب العالمية الثانية عام 1939 بادرت السلطات الفرنسية إلى تجنيد الجزائريين بالقوة الإجبارية ، وشهدت هذه المرحلة نوعاً من الركود والشلل بالنسبة للحركة الوطنية والسبب في ذلك يعود إلى ما تعرضت له من ممارسات قمعية، وحل وطرد وسجن واعتقال من جراء هذه الحرب المضنية، ومع ذلك فإنها أي الحرب امتدت من 1939 إلى غاية 1945، حيث استطاعت تحريك ضمير الشعوب المغلوبة على أمرها ومنها الجزائر في التخلص من عقدة الرجل القوي الذي لا يهزم والتخوف من غطرسته خاصة عندما منيت فرنسا بهزيمة نكراء وشنعاء أمام ألمانيا الهتلرية ولم تتمكن من الصمود أمامها إلا 24 ساعة فقط لتصبح العاصمة الفرنسية باريس رهن إشارة الألمان.

لقد كانت سنة 1945 نهاية حرب ضروس أتت على الأخضر واليابس ومن جهة أخرى أحيت تطلعات الشعوب إلى المستقبل فها هو ذا الشعب الجزائري يتطلع إلى الوعود التي وعدته بها فرنسا عندما تهزم ألمانيا والمتمثلة في منحه الاستقلال، فخرج إلى الشوارع للتعبير عن فرحته بنهاية حرب كان يرجى منها الإستقلال كيف لا وهو الذي دفع بأبنائه إليها لتضمهم فرنسا في الصفوف الأولى ليكونوا الضحية الأولى لهذه الحرب.

..... ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، حيث أن فرحته لم تدم طويلا فكانت المجزرة الرهيبة وكان الثلاثاء الأسود في 8 ماي 1945، وعوض أن ينال الشعب الجزائري استقلاله كجـــــزاء لما قدمه من تضحيات جسام لفرنسا لتهنأ هي وأبناؤها وليشقى هو وكانت النتيجة عكسية تماما إذ سقط في شوارع المدن ما يفوق 45 ألف شهيد برصاص فرنسا التي تناست أن الجزائريين هم الذين طردوا الألمان في بلادها وهم الذين أرجعوا لها ماء الوجه وأخذوا بثأرها وأعادوا لها كرامتها المنتهكة.

وهكذا كانت مجزرة 8 ماي 1945 مؤامرة مدبرة بدقة متناهية ضد الشعب الجزائري وكان الهدف منها دفن الروح الوطنية إلى الأبد والقضاء نهائيا على الأصوات الوطنية، المطالبة بالإستقلال الكامل خاصة الفئة الثورية.

إن مجزرة 8 ماي 1945 كانت المنعرج الحاسم لنشاط الحركة الوطنية فكان ذلك وراء ظهور حزب الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري بزعامة فرحات عباس ويتكون في معظمه من مجموعة معينة كأطباء ومحامين وبالتالي فإن الحزب يعكس وجهة نظر معينة وإلى جانب حزب البيان، ظهر حزب الشعب ولكن في حلة جديدة بعد أن تعرض إلى الحل والمصادرة من طرف السلطات الاستعمارية الفرنسية وذلك عام 1939، غير أن نشاطه السياسي بقي مستمرا في السر حتى عام 1946، هذه الحلة الجديدة في حركة انتصار الحريات الديمقراطية التي واصلت بدورها العمل السياسي مطالبة في ذلك بالإستقلال الذي لا رجعة فيه.

وفي عام 1947 انعقد مؤتمر حزب الشعب في العاصمة وبالتحديد في بوزريعة، وقرر المؤتمرون تكوين حركة عسكرية تحت إسم جيش التحرير الوطني الجزائري، وهذا ما جاء على لسان أحد المشاركين في المؤتمر وهو المجاهد أحمد بودة بقوله: «وتقرر تكوين حركة عسكرية تحت إسم جيش التحرير الوطني الجزائري، هذا الإسم الأول الذي سمعته في المؤتمر».

وهذه الحركة العسكرية هي المنظمة السرية التي انتشرت في ربوع الوطن، والتي كان يرى أعضاؤها وجوب القيام بالعمل العسكري، لكن المخابرات الفرنسية تمكنت من كشف المنظمة السرية في عام 1948م بعد العملية التي قام بها المجاهد الكبير «سويداني بوجمعة»، في منظمة «فلفلة» بمدينة سكيكدة بمنجم الرخام، وكان

هدف العملية هو الإستيلاء على المفرقعات، وفي عام 1949 قام أعضاء المنظمة بالهجوم على مركز البريد بمدينة وهران.

وبحلول عام 1950 أصبح أعضاء المنظمة السرية على دراية كبيرة بالسلاح، وبالتالي أصبحت لهم خبرة عسكرية كبيرة، لكن مؤامرة مارس من نفس العام ضد المنظمة كانت كارثة كبيرة، حيث انكشفت بعد عملية التأديب التي تمت في مدينة تبسة إذ تم إلقاء القبض على بعض المناضلين، لكن البقية المتبقية منهم عندما أدركوا خطورة الوضع إلتحقوا بالجبـــال آملين السير قدما في إتجاه تحضير الثورة المباركة عن طريق التعبئة الجماهيرية وتخزين الأسلحة وقد تمكنت هذه المنظمة من غرس تقاليد ثورية، كالطاعة والإخلاص والصراحة، فأين هي هذه المثل يا ترى؟.

وفي ظل ديمقراطية وهمية، فإن الوضع الذي آلت إليه المنظمة السرية فيما بعد من تشتيت أعضائها بسبب كشفها من طرف الاستعمار الفرنسي وأجهزته وعملائه وكذلك انقسام حركة انتصار الحريات الديمقراطية إلى قسمين اللجنة المركزية من جهة وحركة وطنية من جهة أخرى أدى إلى حدوث صراع دموعي وعلني بين أبناء الوطن الواحد، مما دفع ببقية أعضاء المنظمة السرية الى إلتزام الحياد وهذا الوضع سمح للبعض إلى المبادرة في تأسيس لجنة عرفت باللجنة الثورية للوحدة والعمل وكان ذلك في شهر مارس 1954، ولكن ظهور هذه اللجنة خلق نوعا من القلق والخوف لدى البعض من أن تصبح اللجنة الثورية حزبا جديدا يضعف الصفوف، وبالتالي دفعتهم هذه الوضعية إلى الاحجام عن الإنضمام لها.

ومنذ نشوب هذا الخلاف الحاد بين اللجنة المركزية لحركة انتصار الحريات الديمقراطية برئاسة حسين لحول والتيار الثاني بزعامة مصالي الحاج وأحمد مزغنة والذي تمحور حول الحفاظ على المناصب واحتكارها، وبالتالي فإن ذلك كان وراء عرقلة مسيرة العمل المسلح في الوقت نفسه كان التيار المحايد (اللجنة السرية) ينظم صفوفه ويعبئها للثورة المسلحة كوسيلة لطرد الإستعمار لأن العمل السياسي أثبت فشله الذريع، ومن أبرز أصحاب فكرة العمل المسلح السيد أحمد بن بلة ومراد ديدوش وسويداني بوجمعة ورابح بيطاط ومصطفى بن بولعيد وبوضياف وعمار بن عودة وغيرهم. وهي المجموعة المغضوب عليها من طرف الإدارة الفرنسية والتي جاء في حقها أما الإعتقال والسجن مدى الحياة أو الإعدام.

ونظراً لتطرف هاته الجماعة في الرأي والتمسك بفكرة حمل السلاح كسبيل وحيد يوصل إلى الاستقلال ويحققه، إلى جانب إسقاط كل الحلول السياسية وهذا ما جعلها فعلاً تتعرض إلى مؤتمرات عديدة من طرف الكتلتين أي جماعة حسين لحول وجماعة مصالي الحاج ومزغنة، ويضاف إلى ذلك البوليس السري الفرنسي كطرف ثالث، لكن العمل السري الشامل أحبط كل المؤتمرات.

ولقد وصل فعلاً التزاع بين الإخوة ذروته في عام 1953 مما دفع بالحاج مصالي إلى حل اللجنة المركزية والتي بدورها رفضت أوامره اثر ذلك وقع انقسام الحزب على نفسه، ومع ذلك فإن الكتلتين حتى وإن اختلفتا في الشكل فإنهما متفقتان في المضمون والمنهج ضد المنظمة السرية لأنهما تفضلان العمل السياسي قبل كل شيء وأن العمل المسلح بالنسبة لهما لم يحن وقته وبمعنى آخر، لا بد من تعبئة الجماهير سياسياً كمرحلة أولى إلى جانب فتح المفاوضات مع العدو، لتأتي مرحلة الكفاح المسلح.

وأمام هذه التطورات كان لزاما على مناضلي المنظمة السرية الخاصة نزع الثقة من رئيس الحزب وكذلك أعضاء اللجنة المركزية، وعلى هذا الأساس قرّر أعضاء المنظمة في شهر جانفي 1954 إنشاء اللجنة الثورية للوحدة والعمل، المشار إليها سابقا، الرامية إلى توحيد الصفوف، غير أن هذه اللجنة لم تعمر طويلا وتم حلّها لينصب العمل على الاهتمام أكثر من أي وقت مضى بالثورة المسلّحة وما إن حل شهر جوان عام 1954 حتى ظهر إلى الوجود ما عرف عنه بإجتماع الاثنين والعشرين (22)، وهذا الإجتماع الذي انعقد بمعية من أعضاء المنظمة السرية (الخاصة) بحي المدنية (صلامبي سابقاً) (19).

كان بمثابة الخطوة الأولى لاندلاع الثورة المباركة، وقد ترأس هذا الإجتماع الشهيد مصطفى بن بولعيد، والذي أوكلت له مهمة الإتصال بالمناضلين في أرجاء الوطن، وتولى الشهيد ديدوش مراد إعداد المتطلبات المالية اللازمة للثورة، أما السيد محمد بوضياف فقد أوكلت له مهمة اعداد التقرير المتعلق بالإجتماع.

وتضمن جدول أعمال الإجتماع النقاط التالية:

أولا: مراحل تطور المنظمة السرية من نشأتها إلى تاريخ حلها.

ثانيا: عرض مفصل للحالة التي كان عليها أعضاء المنظمة.

ثالثا: معظلة الحزب والأسباب التي أدت به إلى التشتيت والفتور.

رابعا: موقف اللجنة الثورية للوحدة والعمل (CRUA) من الحالة التي آلت إليها حركة انتصار الحريات الديمقراطية والشيء الأساسي بالنسبة لهذا الإجتماع الذي يعتبر جوهر النقاط هو هل حان وقت تفجير الثورة المسلحة أم لا؟.

وبين الأخذ والرد ما بين مؤيد ومعارض حسم الشهيد سويداني بوجمعة الموقف والدموع تذرف من عينيه قائلاً: «نعم أولا هل نحن ثوريون؟ إذا ماذا ننتظر لنقوم بهذه الثورة إذا كنا مخلصين صادقين مع أنفسنا» [20].

كما تم في هذا الإجتماع تكوين مكتب تنفيذي يتألف من خمسة أعضاء، هم على التوالي السادة ديدوش مراد، ومصطفى بن بولعيد، والعربي بن مهيدي، ومحمد بوضياف، ورابح بيطاط ثم انضم إليهم عضو سادس هو كريم بلقاسم [21].

وهكذا غادر الأعضاء الإثنان والعشرون [22] الدار التي اجتمعوا فيها وهي دار السيد الياس دريس بالمدينة ضواحي العاصمة وبقي المجلس يعدّ الثورة المسلحة، حيث تم اختيار هؤلاء بالاجماع طبقا للمواصفات التالية:

أولا: نشأوا في أحضان حزب الشعب.

ثانيا: تكونوا في المنظمة السرية.

ثالثا: اكتسبوا خبرة كبيرة عن طريق مساهمتهم في صنع الأحداث.

رابعا: كونهم انبثقوا من الطبقة الشعبية فهم على دراية كبيرة بمشاكله وطموحاته.

خامسا: آمنوا إيمانا جازما بأن الثورة المسلحة هي الطريق الوحيد للاستقلال، وأن النضال السياسي أثبت فشله في العديد من المرات.

... وقد تلى ذلك الإجتماع عدّة اجتماعات أخرى سرّية نتج عنها الكفاح المسلّح وتحديد مناطق العمليات العسكرية عبر التراب الوطني، وعليه تم تقسيم الجزائر إلى مناطق هي:

أ ـ المنطقة الأولى: (الأوراس) يترأسها مصطفى بن بولعيد.

ب ـ المنطقة الثانية: (الشمال القسنطيني) يترأسها مراد ديدوش.

ج ـ المنطقة الثالثة: (القبائل) يترأسها كريم بلقاسم.

د ـ المنطقة الرابعة: (ناحية الجزائر) يترأسها رابح بيطاط.

هـ ـ المنطقة الخامسة: (ناحية وهران) يترأسها العربي بن مهيدي.

كما كان الإعتماد في تفجير الثورة المسلّحة على الروح الجماعية التي حملت راية الثورة وبالتالي فإن التمثيل الخارجي لم يشكل أي عائق، حيث اتصلت اللجنة المهيئة للثورة برفقائهم في الخارج وهم الإخوة بن بلة، ومحمد خيضر، وحسين آيت أحمد وتم الإتفاق حول كل الأمور المتعلقة بالثورة.

إلى جانب دراسة القضية الجوهرية والأساسية بالنسبة للثورة دراسة دقيقة ومعمقة وهي التسليح باعتباره عنصرا هاما وفعالاً لاستمرارية الثورة، فكان التنقل إلى العديد من العواصم العربية والأجنبية قصد شراء الذخيرة الحربية ورغم قلّة توفره في الداخل فقد تقرر تفجير الثورة، ولتكن مغامرة كما رآها البعض وكذا بالنسبة للمضمون السياسي للثورة فهو الآخر أخذ حيزا كبيرا من جدول الإجتماعات حيث تقرر في النهاية الإعلان عن الثورة وتحديد تاريخ تفجيرها، وذلك عن طريق كتابة بيان أول نوفمبر [23]. وفي 10 أكتوبر 1954 اجتمعت لجنة الستة واتخذت قرارين هامين هما، تحديد تاريخ اندلاع الثورة التحريرية، واستبدال تسمية اللجنة الثورية للوحدة والعمل بتسمية أخرى.

وقد تم ذلك فعلاً، حيث أطلق المناضلون إسم الجبهة على اللجنة لأنها تشمل كل الإنتماءات السياسية ومنذ ذلك التاريخ أصبحت التسمية الرسمية والفعلية هي جبهة التحرير الوطني وكذلك فقد وقع اختيار يوم أول نوفمبر الاثنين لعدّة اعتبارات منها أن هذا اليوم يواكب احتفال الفرنسيين بعيد القديسين حيث اللهو والمرح، وكذلك تسلّم الرخص للجنود والشرطة ورجال الدرك للذهاب إلى أهاليهم، ومن ناحية أخرى فهو بالنسبة للمسلمين يواكب اليوم الذي ولد فيه نبينا محمد ﷺ فهو اليوم الذي جاء فيه الحق وذهب الباطل إلى جانب اعتبارات أخرى لها علاقة بالمناخ الذي يسهل للمجاهدين التنقل بسرعة ويصعب على جنود العدو الفرنسي متابعتهم.

وفي ساعة الصفر من منتصف ليلة الأول نوفمبر 1954 وقع إنفجار رهيب أذهل النائمين والمحتلين بعيدهم وتلا ذلك صدور بيان نوفمبر عن قيادة الثورة والتي شرحت فيه أسباب تفجير الثورة المباركة [24]، مبرزة مرّة أخرى فشل الأحزاب وسلبية نضالها والإعلان عن تأسيس جبهة التحرير الوطني التي اعتبرت البوتقة التي تنصهر فيها كل القوى الوطنية بمجرده من كل انتماءاتها السياسية.

وعلى هذا الأساس فإن كل الشروط توفرت في ذلك اليوم فكان الرمز الثورة، وكان صداها الداخلي والخارجي.

وما ان حل صباح يوم أول نوفبر حتى انتشر خبر تفجير الثورة بين الشعب الجزائري من جهة والمعمرين والسلطات الحاكمة من جهة أخرى، كالنار في الهشيم نظرا لضراوة الهجومات التي قام بها المجاهدون وتبددت فرحة المستعمرين إلى خوف وفزع، وعلت البهجة وجوه الوطنيين الذين شئموا الهيمنة الفرنسية والذل والهوان، وانتظروا طويلاً قارب النجاة الذي جاءهم على يد هذه الثورة.

والأمر الذي دوّخ الاستعمار هو التحكم الدقيق في العمليات التي قام بها المجاهدون والتي شملت التراب الوطني، وهذه العمليات جاءت كلها في وقت واحد ولم تتخلف احداها عن الأخرى ويمكن ذكر بعضها على النحو التالي:

- في بوفاريك أحرق المجاهدون تعاونية للحمضيات يمتلكها المعمرون.
- في الجزائر قام المجاهدون بهجوم جماعي على عدّة ثكنات.
- في البليدة تعرضت عدّة مرافق حيوية إلى الإنفجار.
- في خنشلة تم القضاء على قائد الجيش الفرنسي.
- في قسنطينة تم الهجوم على عدّة مراكز للشرطة.
- في وهران تم إشعال النار في مزارع المعمرين.
- في القبائل تم إضرام النار في بعض المستودعات.

وقد اعتمد جيش التحرير الوطني أسلوب حرب العصابات في عملياته العسكرية ضد المستعمرين نظرا لفعالية هذه الطريقة (24) لأن تكافؤ القوتان غير منطقي، إذ كانت كل الكمائن والهجومات يعد لها مسبقا ومن كل النواحي، كاختيار الوقت بالضبط والمكان ونوعية الأسلحة وما إلى ذلك من أمور تساعد المجاهدين على إتمام عملياتهم بأسرع وقت.

إن ثورة 1954 شهادة حيّة لنضال شعبنا منذ التواجد الفرنسي الذي دام مدّة قرن ونصف من السنين الطوال وهي نبراس إضاءة الطريق للعديد من الثورات التحريرية في العالم ومازالت رايتها رفرافة في سماء الجزائر المستقلة ـ وان عمدت فرنسا إلى الإحتفال بثورتها بعد مرور قرنين من الزمن وكستها حلّة من البهجة وسمحت للكتاب والمؤرخين والشعراء والموسيقيين لإعطاء هذه الثورة قيمتها ـ أما نحن اليوم لم

نعط لثورتنا قيمتها التي تستحقها وحتى تدون بطولات هذه الثورة لابد من الإعتناء بما تبقى من المجاهدين الذين همشوا إلى اليوم فنهم من لقى ربه ومنهم من ينتظر وعلينا كذلك أن نعيد لها روحها ووطنيتها التي بدأت تتلاشى رويدا في زمن طغى فيه الباطل على الحق.

الهوامش:

(1) سرفان شرايبر «جريدة ليكسبريس» 8 أوت عام 1961.
(2) Agéron (Ch. R.), Histoire de L (1830-1976) Algérie contemporaine Puf Paris.
(3) Mehsas (A), le Mouvement révolutionnaire en Algérie, éd. L'Harmattan, Paris 1970.
(4) سعد الله أبو القاسم الحركة الوطنية (1900 ـ 1930) ج 2 ش. و. ن. ت، الجزائر 1983.
(5) عبد الرحمن بن براهيم بن العقون ـ الكفاح القومي والسياسي ـ ج 1 م. و. ك، الجزائر 1984.
(6) بن العقون المرجع نفسه.
(7) محمد قنانش ـ الحركة الإستقلالية في الجزائر ـ ش. و. ن. ت، الجزائر 1982.
(8) Guerin (D); le Front Populaire éd. Maspéro Paris 1970.
(9) سعد الله أبو القاسم ـ الحركة الوطنية (1830 ـ 1945) ـ ج 3، ط 3، م. و. ك الجزائر 1986.
(10) Guerin (D), opcit.
(11) Tabet (A), 8 mai en Algérie D.P.
(12) فرحات عباس ـ ليل الاستعمار ـ
(13) الملتقى الوطني الثاني لتاريخ المنعقد ما بين 8 و 10 ماي 1984 بقصر الأمم.
(14) الملتقى الوطني الثاني لتاريخ الثورة المنعقد ما بين 8 و 10 ماي 1984 بقصر الأمم.
(15) يحي بوعزيز سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية 1830 ـ 1954 د. م ج. الجزائر.
(16) الملتقى الوطني الثاني لتاريخ الثورة المنعقد ما بين 8 و 10 ماي 1984 بقصر الأمم.
(17) الملتقى الوطني الثاني لتاريخ الثورة المنعقد ما بين 8 و 10 ماي 1984 بقصر الأمم.
(18) يحي بوعزيز: سياسة التسلط الاستعماري.. المرجع السابق الذكر.
(19) الملتقى الوطني الثاني لتاريخ الثورة المنعقد ما بين 8 و 10 ماي 1984 بقصر الأمم.
(19) الملتقى الوطني الثاني لتاريخ الثورة المنعقد ما بين 8 و 10 ماي 1984 بقصر الأمم.
(21) الملتقى الوطني الثاني لتاريخ الثورة المنعقد ما بين 8 و 10 ماي 1984 بقصر الأمم.
(22) بسام العسلي سلسلة جهاد الشعب الجزائري عدد رقم 9 دار النفائس بيروت 1982
(24) بسام العسلي نفس المرجع.
(25) عبد الله شريط محمد مبارك الميلي: مختصر تاريخ الجزائر السياسي والثاقي والاجتماعي م. و. ك. الجزائر 1985.

رابعا:

تقديم الأطروحات

الحياة الريفية بالجزائر «مقاطعة دار السلطان»

من 1791 إلى 1830

د. ناصر الدين سعيدوني

تتعرض الأطروحة إلى الجانب الاقتصادي والاجتماعي للإقليم المركزي للجزائر في العهد العثماني المجاور لمدينة الجزائر، والمعروف بدار السلطان، وتركزت الرسالة أساساً على العلاقة بين سكان الأرياف ومحيطهم الطبيعي والبشري، هذا المحيط الذي يمكن تصنيفه إلى ثلاث بيئات متميزة هي الفحوص الخاضعة لسكان المدن المجاورة لها، وأوطان متيجة بمزارعها «الأحواش» وفلاحيها المستأجرين «الخماسين»، وقيادات الأطلس المتجي بتجمعاتها القبلية المحافظة على تقاليدها المتوارثة.

انطلاقاً من هذا التصنيف تم التعرض للنشاط الاقتصادي مع التركيز على إظهار تأثير عدة عوامل منها: الوضع السياسي السائد وطبيعة الجهاز الاداري والتنظيم المالي والضريبي وطريقة استخلاص الجبايات وطبيعة حيازة الأرض واستغلالها سواء كانت أراضي ملك أو عرش أو بايليك أو أوقاف وذلك قبل التطرق إلى طريقة الانتاج والتقنيات الفلاحية المستعملة ونوعية التبادل المحلي وطرق الصناعات التقليدية المتبعة وتطور الأسعار ومستوى المعيشة وتغيرات المواسم الفلاحية والدورة التجارية لمناوج القمح الذي كان يكتسي أهمية استراتيجية آنذاك.

أما الحياة الاجتماعية في أرياف دار السلطان فقد تمت دراستها من خلال التعرف على إطار الحياة اليومية وطبيعة البنية الاجتماعية بمختلف تشكيلاتها (الأسرة،

(*) موضوع أطروحة دكتوراة دولة تم تحضيرها تحت إشراف الأستاذ روبير مونتران، ونوقشت بجامعة أيكس أون بروفانس «فرنسا» ونالت درجة مشرف جداً في 20 مارس 1988.

الجماعة، القبيلة، الصف) وذلك قبل التطرق إلى علاقة القوى الاجتماعية في الوسط الريفي والتي تمثلت خاصة في العلاقة بين المدن والأرياف وبين السلطة والفلاحين وبين الزوايا الريفية ورجال البايليك، هذا وقد جعلت تلك العلاقات عالم الأرياف بدار السلطان تصنف إلى مجموعات خاضعة مستغلة من طرف غيرها «الرعية» ومجموعات متعاونة ومستفيدة «قبائل المخزن» ومجموعات متحالفة أو ممتنعة «القبائل الجبلية والأحلاف العشائرية».

هذا دون أن نغفل الحالة الصحية والوضع الديمغرافي وطبيعة العلاقة بين السلطة المركزية وسكان الأرياف والظروف الدولية للمتوسط وما تميزت به من ضغوط كان لها تأثير على إضعاف الجزائر والحد من قدرتها الاقتصادية والحربية، وذلك قبل أن تتعرض للغزو الفرنسي (1830) هذا الغزو الذي لا يمكن تفسيره من خلال المواجهة العسكرية فقط وإنما بالتعرف أيضاً على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للجزائر آنذاك.

REGION OF ALGIERS AT THE OF OTTOMAN PERIOD (1792-1830)

The man and space in the region of Algiers. The precolonial region of Algiers is composed of three physical and human spaces which are strongly characterized: the fohos surrounding the principal cities, the outhans of the Sahel and the Mitidja and the caïdats of the Atlas. The fohos inhabited by the city dwellers were entensively exploited. The outhans organized into haouchs, were managed by groups of khammas and of djemaas. The caïdats, mountainous spaces, were occupied by tribes.

The economic life in the countryside of the region of Algiers. There were various factors which played a decisive role in the economic life: the main ones are the political context, the beylical apparatus, the administrative organization, the fiscal system and the method of collecting taxes. The property, under multiple forms might be: melk, ard, beylik or habous. The economic activity may be noticed across the agricultural production and techniques, the handcrafts men and local exchanges.

Moreover, it gives us indications such as prices, money, measures, standard of living calamities, agricultural out look and cycle of wheat which clearly explains the economic situation in the countryside of the region of Algiers. The framework of social life appears to us in various ways: the daily life (nourrishment, clothes, dwelling the structuration and the social expenses of religious establishments, the spread and influence of the zaouias and the marabouts, the justice and the judiciary regulations and the rural culture and knowledges. The population was divided into djemaa ferkas or kabilas, in its classification there appeared groups of raya, makhzen or even independent or semi-independent tribes. The movements and localization, the sanitary system and the density are other aspects of social life. Finally, the relations of city-country side, beylik-makhzen-raya, beylik-religious establishments as well as the influence of the Mediterranean out look and external markets: all tell us about the rural situation which prevails in the region of Algiers at the period under study.

dition attribuant une influence considérable au mystérieux. Les arts et le folklore campagnards témoignent aussi d'un goût populaire original bien que replié sur lui-même.

La population rurale algéroise s'organisait essentiellement en djemaâs occupant des dechras, ou bien en ferkas, formées de plusieurs djemaâs, constituant ainsi une partie de la tribu ou kabila, cette dernière basée sur l'existence incertaine d'un ancêtre commun, sur la solidarité de ses membres et leur soumission aux directives du cheïck, le tribalisme instituait inévitablement le concept de çof.

L'organisation socio-spatiale de l'Algérois faisait apparaître divers groupes; les gens de raya appartenant aux multiples tribus des outhans survivaient péniblement à la proximité de l'autorité beylicale, payant l'impôt et approvisionnant les villes en denrées agricoles; par contre les gens de Makhzen formaient des groupes priviligiés en échange de leur appui au beylik dans les contrées éloignées. Enfin, loin de l'emprise beylicale, l'insoumission, pas toujours sauvegardée faisait la fierté des tribus semi-indépendantes ou indépendantes de l'Atlas. Les mouvements de déplacement des populations étaient impulsés par les circonstances suivantes: le refoulement des tribus dans les massifs montagneux, le contrôle des migrations temporaires, la déportation totale ou partielle des tribus insoumises et l'établissement des groupements militaires, auxiliaires de l'Oudjaq pour assumer le contrôle des autres tribus et collectivités paysannes.

Les populations rurales étaient, par ailleurs, agressées par des épidémies meurtrières auxquelles on faisait face par des procédés coutumiers de guérision. L'état sanitaire présente, d'autre part, un lien évident avec la démographie et la densité des populations rurales; à cet effet, les fohos avaient une densité élevée comparée à celles des autres zones; toutefois, les Outhans du Sahel et de la Mitidja étaient fortement peuplés. Depuis le XVIIIème siècle, les conjonctures défavorables ont contribué à une diminution sensible des populations rurales. Les rapports de force dans les campagnes étaient régis par un éventail de types de relations dont les relations villes-campagnes caractérisées par l'existence d'une propriété foncière citadine dans les campagne, les prélèvements beylicaux effectués en milieu rural, l'interdépendance en termes de besoins alimentaires et artisanaux, et l'attraction exercée par les villes sur les gens démunis des campagnes, on notera que villes et campagnes n'arrivaient pas à constituer un véritable marché intérieur unifié. D'autre part, cet éventail comprenait la

trilogie beylik-makhzen-raya, mise en place pour le maintien d'un statut socio-économique dans les camapagnes garanti par l'instauration d'un système de défense efficace, l'usage de la répression en cas de nécessité, l'exploitation des divisions sociales, la création de liens indispensables sur le plan économique entre les divers groupes et régions et l'établissement d'une organisation administrative minutieuse. D'un autre côté, le beylik s'appuyait sur des établissements religieux alliés ou collaborateurs, ces mêmes établissements (zaouias) se rangeaient dans les rangs des récalcitrants au cas où leurs intérêts venaient à s'opposer à ceux du beylik.

Hormis ces données d'ordre interne, il s'avère que les marchés extérieurs et les conjonctures agraires avaient eux aussi des retombées nuisibles sur le contexte de vie du campagnard algérois. En guise de conclusion finale, nous dirons que malgré cette contribution jugée acceptable, nous restons en deçà des ambitions premières. Pour cela, il serait souhaitable que des travaux futurs puissent mettre à jour les trésors des sources toujours enfouis pour réaliser une histoire objective, passionnée et passionnante de l'Algérie ottomane.

Nacereddine SAIDOUNI

L'activité économique dans l'Algérois peut être saisie à travers divers indices: le système monétaire était double avec circulation simultanée de monnaies locales et étrangères. Les monnaies les plus utilisées dans les campagnes sont: le sultani, le rial boujou, le rial draham, le draham seghar (aspre-chique) pour les monnaies locales; ainsi régnait une anarchie monétaire qui fit baisser la valeur de la monnaie dans l'échange au détriment de l'économie rurale.

Les mesures (longueur, poids, surface) variaient dans des proportions assez considérables selon l'usage, le lieu et les produits mesurés en l'absence d'une réglementation unifiée. Les prix des produits agricoles dans les marchés des villes et des campagnes étaient assez bas, bien que le monopole y jouait un rôle défavorable pour les populations rurales. Le niveau de vie, dans les campagnes algéroises, changait d'un groupe à l'autre et d'une région à l'autre. Une première classe comprenait les citadins et dignitaires habitant les fohos et les outhans et les fellahs propriétaires. Une seconde classe se composait d'ouvriers agricoles tels les khammas, les bahars (jardiniers) et les bergers dont le niveau de vie était assez bas.

Les campagnes algéroises furent frappées, à la fin du XVIIIème et au début du XIXème siècles de maintes calamités comme la sécheresse, les invasions de sauterelles, les famines, les épidémies et les tremblements de terre. Leur ampleur obéit à un processus cyclique assez clair. Il est à noter que toute cette période fit subir, au monde rural algérois, une diminution de la production agricole et entraina, plus tard, un décroissement sensible de la population. Les conjonctures agraires étaient soumises essentiellement aux conditions naturelles et aux contraintes administratives, suivant une alternance presque continuelle de bonnes et de mauvaises années. Le prix du blé était fixé par l'offre et la demande, subissant les retombées des conjonctures internationales. Afin de combler le déficit de la balance commerciale, le Beylik avait recours à l'échange, à vil prix, des produits agricoles principalement le blé, par le biais du monopole qui s'opérait sans prise en considération des calamités imprévues, des capacités d'achat et des aléas des marchés extérieurs.

III – La vie sociale dans les campagnes algéroises.

Le cadre de la vie rurale profonde ne peut nous apparaître qu'à travers le survol des détails de la vie de tous les jours. L'alimentation du campagnard différait selon le lieu et le groupe social. La part des céréales était

prépondérante à celle de la viande, des fruits et des légumes. Les gens des fohos avaient un régime alimentaire influencé par les usages citadins. L'habillement était modeste pour le campagnard mais d'une grande valeur utilitaire. L'ameublement se limitait aux articles ordinaires de maison ou à ceux du travail des champs.

Dans les fohos, l'habitat était formé, en général, de maisons de campagne possédées par des dignitaires citadins. Dans les outhans, trois types d'habitation coexistaient: le premier était formé de tentes des groupements de tribus makhzen et des quelques campements de nomades; le second est la cabane (gourbi) où khammas et gens de djemaâ trouvaient refuge; le troisième est la maison bâtie (dar). Dans l'Atlas on rencontrait la maison à terrasse et la maison à toit de tuiles.

Les sentiments islamiques, de leur côté, imprégnaient fortement la vie sociale dans les campagnes. Les confréries jouaient un rôle temporel qui ne fut pas sans étouffer le rôle spirituel. Les marabouts étaient sujets à des offrandes et à des pélerinages de différentes sortes. Les zaouias assuraient la paix sociale, satisfaisaient les besoins élémentaires et atténuaient les malheurs en milieu rural algérois, entreprenaient un rôle pacificateur et émancipateur et diffusaient les connaissances islamiques, disposant en contre-partie, de biens fonciers assez importants. Les confréries, inégalement influentes en milieu algérois, étaient la Taïbia, la Kadiria, la Tidjania, L'Aïssaouia, la Derkaoua et surtout la Rahmania.

La jurisprudence rurale se détachait de celle des villes; cette dernière se composait d'un appareil exécutif comprenant principalement l'agha, le hakem et le caïd et d'un appareil législatif comprenant des muftis et des cadis. Hors des villes, chaque cadi avait à ses côtés un caïd. La législation rurale proprement dite était confiée à la djemaâ ou assemblée de notables présidée par un cheïck; les marabouts et les gens des zaouïas exerçaient aussi un droit de justice incontesté. Lez zaouïas formaient également le cadre de la vie culturelle dans les campagnes; on y enseignait le Coran, le droit, la théologie, les traditions du prophète, l'histoire, la géographie, et d'autres sciences. Hormis le parler citadin répandu dans les fohos, les campagnes voyaient à l'époque la dominance de l'arabe, surtout le parler bédouin, dans la zone où l'isolement tribal ne pouvait se maintenir.

Le femme campagnarde bien que plus déprimée, jouait un rôle plus influent dans la vie quotidienne que la femme citadine. Elle était sujette à un mysticisme crédule qui régnait à l'époque parmi la masse paysanne, la tra-

tif était entretenu par plusieurs agents allant de l'agha des Arabes au cheikh en passant par le Beit-ul-Maldji, le Khodjet-el-kheil, les khodjas, les hakems et les caïds. Le Dar es-Soltan se subdivisait en trois zones soumises inégalement à l'autorité beylicale: la première, semi-citadine, constituée par les fohos, la seconde, paysanne, dépendant directement du Beylik, la troisième, tribale, partiellement contrôlée.

Le système fiscal présente une complexité évidente procédant par l'accumulation de multiples redevances, se répartissant en contributions régulières et irrégulières. Les premières englobent l'achour et la zakkat, les secondes, la lezma, la manoua, la ghrama et la khatia. A cela s'ajoutaient les taxes, droits et usages dont le fermage, les taxes des marchés, les droits d'investiture et les présents d'usage. Le mode de perception, fort bien organisé, adoptait des méthodes parfois répressives, caïds et cheikhs avec l'agha des Arabes étaient les garants des déroulement sans incidents de ce genre d'opérations. Les impositions différaient sensiblement d'un groupe à l'autre, le contraste makhzen-raya illustre cet état des choses. Les campagnes algéroises éprouvaient de ce fait un grand malaise face à un système fiscal qui, par ailleurs, n'atteignait pas des résultats optimaux dans l'entretien de la fiscalité de l'Etat, à cause de diverses lacunes inhérentes au système même.

Le mode de propriété dans les campagnes algéroises différait d'une zone à une autre. La terre pouvait être melk ou propriété privée supportant une vie rurale plus paysanne que pastorale; ce genre de propriété était répandu dans les outhans sous forme de haouch et s'étendait parfois aux caïdats et aux fohos où prédominait la petite propriété. La propriété collective ou terre de djemaâ, ou bien encore arch, se répandait dans les outhans et les caïdats, domaines des communautés tribales. Ce mode de propriété vit son étendue se rétrécir, vers la fin de l'époque ottomane aux profit de la propriété mère, à cause de facteurs divers. L'exploitation de la terre arch, en tant que mode collectivitste de propriété, associait les céréales à l'élevage du cheptel. Dans les zones moins favorisées, la terre djemaâ devenait pâturages et parcours.

On trouvait aussi une propriété d'"Etat ou terre beylik, comprenant des domaines acquis par divers procédés et se divisant en Bled el Beylik, Bled el Makhzen, azels et en terres octroyées à des personnes influentes allant des hauts fonctionnaires aux cheïkhs. L'exploitation des terres beylik était soit une exploitation directe, concernant les haouchs de Beylik de la Mitidja et du Sahel et reposant sur le khammassat, soit une exploitation indirecte s'appliquant aux domaines affermés loués ou concédés aux makhzens ou aux hauts dignitaires.

Le quatrième type de régime auquel obéissaient les terres de Dar es Soltan est le habous pouvant être ahli ou privé, khaïri ou public, ou affecté à des zaouïas rurales. Dans le premier cas, la gestion était confiée au bénéficiaire, dans les deux autres, les divers établissements religieux et de bienfaisance disposaient de régisseurs (oukils). Les principales fondations auxquelles appartenaient les habous étaient : la fondation des Haramaïn (lieux saint de l'Islam), la fondation de la Grande Mosquée, la fondation de Souboul el Khaïrat (les bonnes œuvres), chargée des biens habous des mosquées hanéfites, les fondations de marabouts et la fondation des Andalous. Ces modes de propriété étaient globalement soumis à l'indivision, à une délimitation souvent précise, à des procédures d'enregistrement plus ou moins pratiquées, à la chafaâ ou préemption, à la rahnia, à la maouna et à la touiza.

Pour ce qui est de la production agricole, nous noterons le développement d'une culture intensive dans les fohos et de plus en plus extensive dans la Basse et la Haute Mitidja, alors que dans l'Atlas, l'agriculture se dirige vers l'auto-suffisance. Les principales productions touchaient aux céréales, aux olives, aux figues, aux cultures maraîchères et à d'autres cultures dites spéciales ainsi qu'à l'élevage.

Les techniques agricoles reposaient essentiellement sur les instruments aratoires traditionnels et sur la préparation des terres arables selon des procédés ancestraux. L'artisanat algérois s'occupait de la fabrication d'armes, de chaux, de tuiles, de plâtres, d'ardoise, de poterie, de bois et charbon, de cuir, de bijouterie, de tissage, de vannerie. Plusieurs moulins et fabriques s'occupaient de la production de farine, d'huiles, de savon, de sucre et de sel. Les échanges locaux étaient garantis par une infrastructure de marchés comprenant les marchés des villes et de leurs fohos, les marchés des outhans et les marchés des tribus.

Les voies de communications dans l'Algérois se répartissaient en routes principales (tourouk Es-Soltania) qui étaient la route de l'Est la route de l'Ouest et la route du Sud et en routes secondaires dont les principales sont la route de Blida, la route de Coléa, la route de Cherchel, la route de Cherchel à Miliana et la route de la montagne. On trouvait aussi de simples sentiers locaux. D'innombrables ponts et bordjs (forts) jalonnaient ces routes et sentiers.

LA VIE RURALE DANS L'ALGEROIS DE 1791 A 1830

Dr Nacereddine SAIDOUNI
Institut d'Histoire - Université d'Alger

I – L'homme et l'espace dans l'Algérois.

La partie de l'Algérois soumise à l'étude se divise, sur les plans naturel et humain, en trois entités: les fohos, les outhans et les caïdats.

Les fohos sont les environs des quatre principales villes algéroises (Alger, Blida, Cherchel et Coléa). Ceux d'Alger sont de loin les plus importants. Collines et vallons en forment le cadre naturel, s'étendant du massif du Bouzaréa à l'oued El-Harrach; la végétation y est abondante, presque sauvage, toutefois, il ne faudrait pas négliger les particularités de chaque micro-zone mentionnées dans le texte. Le territoire des fohos d'Alger présentait une organisation assez claire, la population était disséminée dans des jardins dont la majorité se trouvait groupée dans des localités, ces jardins devenaient parfois de vastes propriétés possédées par des notables, de riches dignitaires citadins, ce qui confirme l'idée selon laquelle l'espace fohosien n'était qu'une extension de l'hégémonie de la ville sur le monde rural; d'autre part, les fohos se distinguaient par un cadre bâti formé de belles maisons de résidence et de divers autres vestiges tels les fontaines, les forts et les cimetières. L'utilisation de l'eau y était d'une rationnalité exemplaire, fontaines, sources, puits et acquedues y formaient un système efficace. Les jardins dont l'irrigation était ainsi assurée se spécialisaient dans les cultures maraîchères et fruitières. Les autres villes s'entouraient de fohos dont les spécificités étaient conditionnées par la situation géographique, les caractères naturels et les conditions socio-économiques. Ceux de Blida occupaient le piémont de l'Atlas, largement irrigué et d'un sol particulièrement fertile. Ces fohos présentaient une riche végétation naturelle, la prospérité de la ville de Blida leur était largement dûe, le système d'irrigation était tout aussi convenable que celui retrouvé dans les fohos d'Alger.

* Cette notice est le résumé de notre thèse de Doctorat sous la direction de M. le Professeur Robert Mantran, et soutenue à la Faculté des Lettres de l'Université d'Aix-en-Provence le 20 mai 1988. (mention très honorable).

Les fohos de Coléa occupaient une partie des collines du Sahel, à configuration assez difficile; l'oued Mazafran en formait le principal cours d'eau. Coléa jouissait d'une réputation de piété dont témoigne le tombeau du vénérable marabout, Sidi M'barek. La terre était soigneusement travaillée dans les fohos de Coléa où les citadins voisinaient avec les gens de tribus venus y travailler. Plus à l'Ouest, les fohos de Cherchel s'organisaient en amphithéâtre, autour de la ville. Leurs belles demeures étaient occupées par les gens riches de tribus et les citadins d'origine andalouse. Les arbres fruitiers et les jardins maraîchers y étaient bien irrigués.

Les outhans constituent un autre cadre naturel et humain. Deux zones s'y distinguent : le Sahel constitué d'une succession de collines s'interposant entre la mer et la plaine alluviale peu élevée, marécageuse par endroits et parcourue par deux cours d'eau importants : El-Harrach et Mazafran et d'autres moindres: Isser, Boudouaou, Bouroumi, etc... Bois et broussailles couvraient le sol des outhans à côté des vastes terres cultivées par les khammas ou par les djemaâs et les ferkas peuplant la plaine et habitant des douars.

Le haouch était le mode d'exploitation dominant dans les cinq principaux outhans (Isser, Khachna, Beni Moussa, Beni Khelil et Hadjout).

Les caïdats, partie montagneuse de l'Algérois, bordent la plaine de la Mitidja au Sud et relient le bloc du Djurdjura à l'Est aux monts du Dahra à l'Ouest depuis l'Oued Isser jusqu'à l'oued Messelmoune. Dans cette région, l'activité économique devient à dominance pastorale et forestière. Le tribalisme y est prédominant. Onze tribus principales peuplent cette montagne cultivant les vergers et exploitant les forêts, beaucoup plus heureusement dans la partie septentrionale, humide que dans la partie méridionale, sèche. Les effectifs humains et la richesse agricole déterminaient la place de chaque tribu dans l'ensemble des groupements.

II – La vie économique dans les campagnes

Divers facteurs jouent un rôle primordial dans les mécanismes de la vie économique: L'organisation politique de l'Etat d'Alger prenait un cachet républicain s'appuyant sur l'organisation militaire de l'Oudjaq. Ce système politique était frappé par l'instabilité. A cet effet, les révoltes paysannes contribuaient à la destabilisation et à l'affaiblissement de l'administration beylicale. Plus particulièrement pour les campagnes, l'appareil administra-

التطور السياسي والاقتصادي والاجتماعي لمنطقة الأوراس من 1837 إلى 1939 (*)

عبد الحميد زوزو

ملخص :

تتناول هذه الدراسة في سبعة أبواب وثمانية عشر فصلاً، منطقة الأوراس من جوانبها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية خلال قرن من الزمن تقريباً.

وتشكل المقاومة المتواصلة التي ميزت المنطقة والتنظيمات الإدارية والقضائية الهادفة، وكذا النظام الجبائي ومختلف القوانين العقارية والتشريعات الصادرة لصالح الاستيطان أهم محاور هذا البحث. إضافة إلى الغزو الفكري والاستمال الروحي بالتوازي مع عملية تجريد السكان من مقوماتهم المادية.

وقد أدت سياسة التجهيل والافقار هذه، والتي أثرت سلباً على حياة السكان الاجتماعية والاقتصادية لفترة معينة إلى نتائج عكسية لما كانت تتوقعه المؤسسة الاستعمارية، ذلك أن هذه الأخيرة وان توصلت إلى تفكيك البنية الاجتماعية وإضعاف الهيكلة الاقتصادية للسكان وبالتالي الحيلولة دون تطورهم الطبيعي في شتى المجالات فقد شكلت بممارساتها هذه عاملاً أفضى في الأخير بجانب

(*) رسالة دكتوراة دولة في التاريخ المعاصر، تقدم بها الأستاذ عبد الحميد زوزو بجامعة باريس (7) بتاريخ 30 جوان 1992، ونال بها درجة مشرف جداً.
وكانت لجنة المناقشة مؤلفة من الأساتذة:

Ch. R. Ageron	René Galissot
Mahfoud Kaddache	Fanny - Colonna
Benjamin STORA	Lerner

عوامل أخرى إلى إعادة الوعي للناس بأنفسهم وبوضعهم المتردي في ظل الاستعمار ومن ثمة كانت ردة الفعل العازمة على التخلص من الاحتلال بعد أن تبينت حقيقة طبيعته الاستغلالية التي كانت تختفي وراء العديد من السعارات الكاذبة.

فمن خلال هذه المحاور وغيرها من المواضيع المتناولة بالدقة والعمق المطلوبين، يمكن فهم مواقف وسلوكات وأدوار الأوراسيين، ومن خلالهم ما كانت عليه أوضاع كل الجزائريين إبان علاقاتهم الطويلة بالفرنسيين.

SUMMARY

The latent content of this apparently massive survey focused on the Aures regions, taken as an example, can be summed up in one sentence: "Colonization only engenders regression". In addition to a long introduction necessary for the understanding of this Aures region of Amazigh majority, seven parts have been devoted to it in order to surround with a highest accuracy the different steps of its evolution under the French domination. To perpectuate the latter, the system in favour of colonialism, did its utmost to allow the foreign community it was supporting to dominate the algerian society.

The fiscal laws that hindered the peasants development, the administrative and legal organization according to the French conception, the different legislations beneficial to the Europeen settlement, the lack of a policy taking the native people's interests in consideration, these were the means and instruments used by the colonial authorities and which constitute the themes of this research work.

Although this survey concerns a region only, it shows how the Algerian people became more and more aware of their right to freedom and of the necessity to put an end to a state of dependence that had been lasting for too long.

Moreover, it shows how the precise analysis of the present in ancient colonies depends on the scientific knowledge of their past.

L'EVOLUTION POLITIQUE, ECONOMIQUE ET SOCIALE DE LA REGION DE L'AURES (1837-1939)

RESUME

Le contenu latent de cette étude apparemment massive et centrée sur la région aurésienne, prise pour exemple, peut se résumer en une phrase: la colonisation n'engendre que la régression. En plus d'une longue introduction indispensable à la compréhension de ce pays de l'Aurès à majorité Amazigh, sept parties lui ont été consacrées afin de cerner avec le maximum de précision les différentes étapes de son évolution sous la domination française. En vue de pérenniser celle-ci, le système colonialiste met tout en œuvre pour permettre à la communauté étrangère qu'il soutenait de dominer la société algérienne.

Le système fiscal qui entravait le développement des fellahs, l'organisation administrative et judiciare selon la conception française, les différentes législations au profit de l'implantation européenne, l'absence d'une politique prenant en considération les intérêts des autochtones, tels sont les moyens et instruments mis en place par le pouvoir colonial et qui constituent les thèmes de cette recherche. A cela s'ajoutait la loi du plus fort qu'on avait apliquée dans toute sa rigueur et qui se traduisait par une répression constante contre toute forme de résistance ou vélléité d'insubordination. Fut également essayée la conquête morale dont le but était d'écarter les esprits de toute idée d'émancipation politique.

Cependant, comme toute chose, la colonisation portait en elle les germes de sa propre destruction: sa nature de capitaliste exploiteur fut un des facteurs qui fit prendre conscience aux Algériens de leur droit à la liberté, de la nécessité de rompre avec l'état de dépendance qui avait trop duré. Chose qui devient inévitable lorsque le niveau politique des colonisés parvient à un certain stade de développement.

Enfin, cette étude bien que régionale, montre combien l'analyse précise du présent dans les anciennes colonies est tributaire de la connaissance scientifique du passé colonial.

LES INTELLECTUELS ARABOPHONES ALGÉRIENS ENTRE, LE NATIONALISME, L'IDENTITÉ, LE MODERNISME ET L'INDÉPENDANCE (1918-1962)

Thèse de Doctorat d'Etat Présentée par HELLAL Amar

Ce travail ayant pour base essentielle les documents d'archives du Gouvernement Général et les Archives privées des intellectuels arabophones algériens, celles de Tunis, Rabat, Oran et Constantine a le mérite, au moins, de mettre à nu, le rôle, jusque là ignore, de plusieurs personnalités algériennes, sur le plan politico-religieux, et aussi intellectuel, tels : Al-Khaldi Salah Ben Amar, Abdelaziz Belhachemi et Mohamed Laïd Djebari.

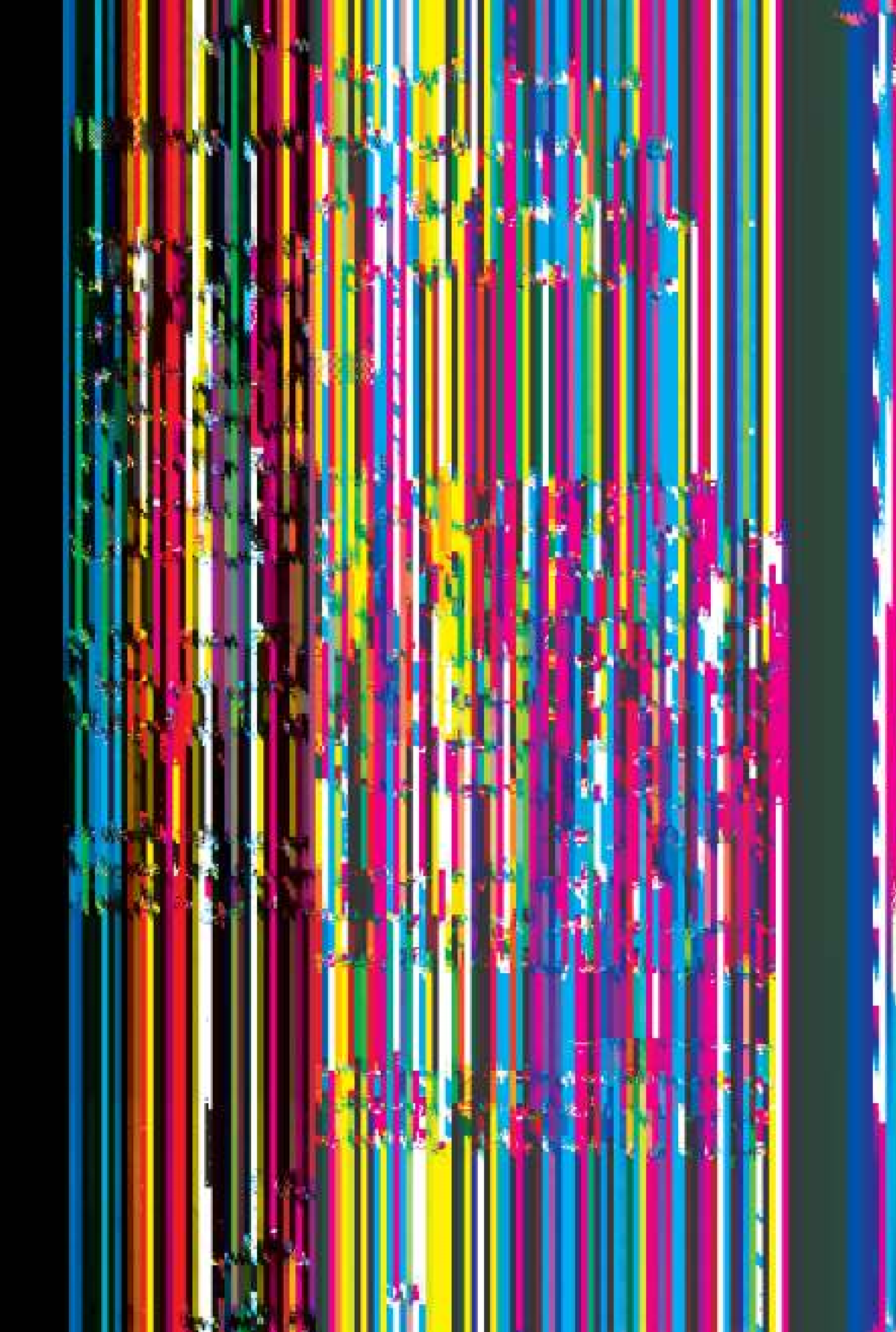
Par des documents authentiques, il prouve bien des réalités historiques du mouvement national algérien que, beaucoup d'historiens français ignoraient, en particulier le commencement et la formation de ce qu'on appelle: "Le mouvement des jeunes algériens". L'activité menait par El-Khaldi, Omar Racim et Ben Kaddour entre 1900-1912, démontre bien l'économie de l'analyse du mouvement national algérien. Et si on y ajoutait, l'omission totale, voulue ou non, du rôle des intellectuels et étudiants des universités arabes: Tunis, Fès et le Caire, entre 1920-1954, tout ce qui a été écrit jusque là, à ce propos, risque d'être mis en question. Quoi qu'il en soit, sans prétention aucune, seul le rôle des étudiants des universités arabes, jusque là ignore, peut, peut-être, donner un aperçu sur l'importance scientifique du travail que nous présentons à nos lecteurs aujourd'hui.

Cette thèse de Doctorat d'Etat (1051p) contenu 6 parties (10 Chapitres) 2 annexes (Dictionnaires biographiques pp. 830-946; et textes, statistiques et tableaux pp. 946-1026) des index des noms et sources (pp. 1027-1033) et bibliographie (1034-1043).

Préparée sous la direction de prof Gilbert Meynier

Le Jury de soutenance composée de Professeur

A. Wahib (Nancy II), Meynier (Nancy II) A. Nouschi (Niceà, D. Rivet (Lyon II), N.S. raieb (Aix-en-Provence).



والمنكب و3 من جيان و10 من قُرطبة و13 من إشبيلية و1 من أوسونة و2 من شاطبة و1 من جزيرة شقر و3 من دانيا و6 من تدمير.

تركز الرسالة على الرحلات المتبادلة بين الرحالة الأندلسيين والمغاربة وهجرات سكان المغرب الأوسط إلى الأندلس والأندلسيين إلى المغرب الأوسط، وقد عدد أربع هجرات من الغرب الأوسط إلى الأندلس للزيارة وطلب العلم والإقامة، الأولى على عهد الرستميين والثانية في فترة حكم العبيديين، والثالثة أثناء حكم الدولة الحمادية والمرابطية، والرابعة في عهد الموحدين. وأثبت خمس هجرات أندلسية إلى المغرب الأوسط ، الأولى في عصر الولاة في عهد الدولة الأموية، والثانية في فترة حكم ملوك الطوائف والرابعة على عهد الموحدين، والخامسة مع سقوط حواضر الأندلس الكبرى (بلنسية ودانية) مع التركيز على مراكز الاستقبال الرئيسية وهي بجاية وتلمسان، وتناول مفصل ودقيق للمظهر الحضاري من لباس ومأكولات وصنائع ومهارات مثل الفروسية. بحيث تعتبر هذه الرسالة مساهمة علمية تتميز بالموضوعية والدقة والتحليل والبحث عن المصادر العربية والاسبانية مما يجعلها بحق لبنة في بعث التراث الحضاري الجزائري وحلقة وصل في التبادل الثقافي الجزائري الإسباني في الفترة الإسلامية...

أدب الرحلة في النثر الجزائري الحديث*
(1900 - 1990)

د. عمر بن قينة

كان اختيار هذا الموضوع للبحث لثراء مادته وارتباطها بالقضايا الوطنية والإنسانية وتنوّعها، وقلة الاهتمام به أو تجاهله، بينما حظيت ألوان أخرى باهتمام مفرط، وهذا مما نمّى لديّ رغبة شديدة في الكشف عنه مادة وقضايا، كما غذّى حرصاً أيضاً على إغناء المكتبة العربية عموماً بإضافة جادة - كما نرجو - في جناحها الجزائري.

وقد تطلب بحث ذلك جهداً كبيراً جمعاً وإعداداً وتصنيفاً ودراسة في ظروف صعبة، فنهجت في ذلك نهجاً تاريخياً تحليلياً نقدياً لتحديد الاتجاهات وحصر القضايا والأشكال والصور، فقسمته إلى ثلاثة أبواب مسبوقة بتمهيد.

كان الحديث في التمهيد عن المعالم العامة في مسار فن الرحلة في النثر العربي عموماً منذ القرن الثالث الهجري، ومنه النثر الجزائري منتهياً بمطلع القرن العشرين مجال البحث في الأدب الجزائري، مذكراً خلال ذلك ببعض الجهود الخاصة بالدراسات العربية والأجنبية في أدب الرحلة العربي.

فكان الباب الأول بعنوان (اتجاهات الرحالين) حوى ثلاثة فصول، هي (الرحلة الداخلية) التي شملت كل مناطق الوطن، وكتب فيها معظم الرحالين، تلاه

(*) هذه فقرات من عرض قدم به السيد عمر بن قينة رسالته لدكتوراه الدولة التي نوقشت في قاعة المحاضرات الجامعية (جامعة الجزائر) وحصل بها على دكتوراه الدولة بدرجة مشرف، يوم 23-12-1992. وكانت اللجنة مكونة من الدكتور: عبد الله ركيبي رئيساً، والدكتور محمد ناصر مقرراً، وعضوية كل من الدكتور سعد الله، ولعرجي، ومرتضى، مناقشين.

فصل ثان عن (الرحلة في اتجاه الوطن العربي والإسلامي) بينما كان الفصل الثالث عن (الرحلة في اتجاه أوروبا). فكان الباب الأول قاعدة أساسية للاحقة، لذا أثريته بالنصوص، وتوسعت فيه عرضاً وتحليلاً، لأن التعامل مع النصوص يستدعي استنطاقها للاقناع وليس الاكتفاء بمخاطبة القارئ بآراء وأحكام قد تغدو في حالات لدى بعض القراء أقرب إلى مراسلة برموز رياضية، أو «شيفرة» لمعالجة أمور سرية.

وخصصت الباب الثاني للحديث عن (أشكال الرحلة) فكان الفصل الأول عن (الرحلة السياسية والصحفية) والثاني عن (الرحلة السياحية الاستطلاعية والكشفية) تلاه ثالث خاص بـ (الرحلة الثقافية والدينية الاجتماعية).

أما الباب الثالث الذي حصرت الحديث فيه عن (صورة المكان والإنسان في الرحلة) فقد تضمن فصلين اثنين، أولهما عن (صورة المكان) والثاني عن (صورة الإنسان) مسبوقين بتمهيد عن طبيعة هذه الصورة.

وهكذا راعيت في البحث ما يمكن اعتباره تدرجاً طبيعياً في التعامل مع الموضوع لاكتشاف معالمه، وقد توج ذلك بخاتمة أوجزت فيها أهم النتائج، متبوعة بفهارس مختلفة، منها ملحق خاص بتراجم الكتاب، وفهارس الرحلات، والأعلام، والأماكن والبلدان، وفهرس الجمعيات والهيئات.

وقد اتضح بعد كل ذلك أن الرحلة الجزائرية في نثر القرن العشرين بدأت مع مطلعه، بما كتب فيها بوحي من الحكم الفرنسي، لكنها لم تلبث حتى انطلقت تحمل الحس الوطني التحرري، فتعددت القضايا والأشكال، ومن ذلك يخرج البحث بنتائج مختلفة، منها اطراد اهتمام الجزائريين بفن الرحلة في القرن العشرين، وبروز العمق الإسلامي واضحاً فيها برؤية مثالية لأمة إسلامية موحدة لا تحول بين أقطارها الحواجز الجغرافية ولا السياسية واللغوية.

وقد عمّت الرحلات الداخلية كل جهات الوطن، أما الخارجية فإن أهم بلد استقطب الرحالين في الوطن العربي والإسلامي هو (القاهرة) بينما تحوز (باريس) أغلب الرحلات الجزائرية إلى (أوروبا) في هذه الفترة، لمختلف العوامل الثقافية والسياسية وغيرها. وتراجعت الرحلة إلى الحج في هذه الفترة كمرحلة مدونة مستقلة في منطلقها وغايتها، وبرزت الرحلة الكشفية والمدرسية إبان الاحتلال الفرنسي فعكست حيوية الكشاف الجزائري وحسه الوطني رغم صعوبات الظروف الخاصة

بالحياة والكتابة.

ثم إن أغلب الرحالين الجزائريين اتسمت رحلاتهم بنغم حزين على وطنهم، سواء وهم يرتحلون داخلياً، أو حين يرتحلون خارجياً، وقد كان التفكير في حال وطنهم ينغص عليهم لحظات الغبطة والمسرات العابرة، في لقاء أو في مأدبة طعام. وقد بدت مآدب الطعام من السمات العامة في الرحلة، وهي مآدب للرجال وحدهم، وتبقى شخصية المرأة بعيدة عن الضوء لطبيعة هذا النوع الأدبي المرتبط بطبيعة الظروف الاجتماعية، وظروف الحياة الخاصة بالمرأة التي تجعل لها إطاراً بعيداً عما تتفاعل به الأحداث في المحيط العام، وحين تظهر قليلاً لأمر ما تبدو في صورة سيدة فاضلة عموماً.

بات الكاتب الجزائري خلال ذلك كله لساناً معبر عن هموم الإنسان الجزائري، ومعاناته تحت وطأة الاحتلال، كما بات صاحب قضية واضحة يرتبط فيها الهم الذاتي بالهم الوطني العام، وهو يصوغ رحلاته في نسيج متطور يصف الواقع الاجتماعي في مختلف امتداداته، والقضايا والأنفعال بها، كما يصف المواقع والمواقف ويحدد وجهة النظر فيها سلباً أو إيجاباً.

موريطانيا القيصرية ـ المغرب الأوسط

الجزائر الوسطى والغربية

دراسة حول الليمس ومقاومة المور

د. محمد بشير شنيتي

تناولت الأطروحة تاريخ موريطانيا منذ الاحتلال الروماني إلى نهاية العهد البيزنطي بشمال إفريقيا. وذلك انطلاقاً من الجوانب العسكرية ممثلة في منظومة الخطوط الدفاعية التي أنشأها الرومان بغرض التحكم في شعب المور والحد من ضغط المقاومة على تراب المقاطعة، وهي الخطوط الدفاعية المعبر عنها بـ «الليمس». وقد انطلق الباحث في رصده لأخبار موريطانيا من زاوية النشاط العسكري نظراً لأن الوثائق والمصادر المتوفرة حول الموضوع تتعلق بالوقائع الحربية أكثر مما تتعلق بجوانب أخرى. ومن ثم فهذا التناول أصلح من غيره للكشف عن الجوانب الخفية من تاريخ موريطانيا منذ سقوطها بأيدي الرومان إلى الفتح الإسلامي، إذ يرى الباحث أن تاريخ «الليمس» هو تاريخ المور كذلك، فالعلاقة جدلية بين الطرفين لكون الأحداث العسكرية التي خلدتها المصادر والوثائق هي مستندات تاريخية لكل من «الليمس» والمور معاً.

أما مصادر البحث، فإن طبيعة الموضوع ومحتويات فصوله تطلبت أن تكون هذه المصادر من نوع المستندات الأثرية، كالأطلال والمعالم والنقائش اللاتينية وغيرها. فالنصوص التاريخية ذات العلاقة بتفاصيل هذا البحث قليلة ومقتضبة ولا

(*) رسالة دكتوراة دولة في التاريخ القديم والآثار، تقدم بها الأستاذ محمد البشير شنيتي أمام لجنة مؤلفة من الأساتذة: موسى لقبال رئيساً ومصطفى العبادي مقرراً ومحمد فنتر. ونوقشت بمعهد جامعة الجزائر، بتاريخ 6 مارس 1993، ونال صاحبها درجة مشرف جداً مع توصية بطبعها.

تفي بالغرض في رأي الباحث.

تحتوي الأطروحة على أربعة محاور تبعاً لتصميم منهجي تحكمت فيه مناحي البحث وتطوراته. وقد جعل الباحث هذه المحاور أقساماً تتضمن ستة عشر فصلاً تتصدرها مقدمة ومدخل، وتوج بحثه بخاتمة أبرز فيها نتائج أعماله. ومما جاء في هذه النتائج:

– إن سيطرة روما على موريطانيا حصلت بصفة تدريجية، فاحتلال الأقاليم الساحلية كان سريعاً وحاسماً لكونها تشكل حلقة أكمل الرومان من خلالها غلق سيطرتهم على الحوض الغربي للمتوسط. لكن استيلاءهم على العمق الموريطاني كان بطيئاً وتم في شكل احتلال اقليمي استند إلى نشاط المنظومة الدفاعية وهي «الليمس».

– تأكد للباحث ارتباط خريطة الاحتلال بالمجال الحيوي، حيث يمكن الاسترشاد بهذا المفهوم في البحث عن معالم تلك الخريطة على الواقع الجغرافي. وانتهى إلى ما يشبه اليقين بأن «الليمس» الذي رآه البعض فاصلاً بين المدنيةوالتوحش هو في الواقع فاصل بين المناطق المفيدة وغير المفيدة بالنسبة لروما.

– إن «الليمس» باعتباره مؤسسة عسكرية كرست الاحتلال وعملت على تغيير البنية الحضارية للبلاد، قد ألحق أضراراً بالبنية السكانية وبالوسط الطبيعي، تجلت في مظاهر من التغيرات الديمغرافية وإفناء أنواع من الحيوانات البرية الهامة، سواء بدافع الحاجة إليها أو بغرض التخلص منها. والنتيجة هي إقفار مناطق كانت تحتفظ بتوازن بيئوي قبل أن يغزوها العمران البشري. وسجل الباحث أن أهم حيوان نبيل تعرض لمجازر رهيبة في موريطانيا هو الفيل الذي كان من أوائل ضحايا الاستعمار الروماني.

– إن أبرز آثار «الليمس» تفاقم ظاهرة البداوة. وهو أمر نجم عن حرص المؤسسة العسكرية الرومانية على الحد من تنقل البدو نحو بلاد التل التي ارتفع النمو الديمغرافي بها، واشتدت فيها الحاجة إلى الأراضي الزراعية، بالإضافة إلى انتشار الجمل لدى البدو وتكاثر أعدادهم في مجالات جغرافية قليلة الموارد الرعوية، وإن اتسعت أرجاؤها. وبذلك ساهم الرومان في إنماء البداوة بكيفية غير مقصودة. ثم ما لبث البدو أن فتكوا بمنشآت «الليمس» الموجهة ضدهم واستعادوا حريتهم في إكمال

دورتهم الاقتصادية بين التل والصحراء.

– حاول الباحث أخيراً أن يرصد أخبار المور شعباً وممالك في الفترة المعاصرة للبيزنطيين التي تبلورت فيها ملامح الخريطة السياسية لبلاد المغرب وانعكست أخبار أهلها في الكتابات العربية الباكرة تحت مصطلحات جديدة شاع تداولها في العصور الوسطى الإسلامية. فاتضح من خلال الاشكالية أن شعب «المور» أصبح يدعى «بربر»، وأنه صُنّف في مجموعتين: «البتر» و«البرانس». وأن مصطلح «المغرب الأوسط» عوض مفهوم «موريطانيا القيصرية».

أما الخريطة السياسية التي وجد العرب المسلمون عليها بلاد المغرب فكان يتجاذب أجزاءها كل من الإدارة البيزنطية ومدن الأفارق (الفرنج) وممالك المور (البربر).

خامسا:

القسم الأجنبي

envahit en tyran le royaume de Zénon; Nepos qui avait ejecté du pouvoir Glycerius, fut élevé à l'empire à Rome.

Oreste après avoir mis en fuite Nepos, plaça sur le trône impérial son fils Augustulus.

A.C 476 *Ind. XIV, ssous les consuls Basiliscus et Armatus.*

<u>*Suite prochainement*</u>

A.C 465 *Ind. III, sous les consuls Basiliscus et Herminericus*

La ville de Constantinople fut ravagée par un grand incendie et déplora la dégradation de sa façade.

Sévère qui avait usurpé le principat d'Occident, mourut à Rome.

A.C 466 *Ind. IV, sous le consulat unique de Léon Auguste.*

Théodoret évêque de Cyr, écrivit contre le prêtre Eutyches et contre l'évêque Dioscore d'Alexandrie qui déniaient l'humanité corporelle du Christ.

A.C 467 *Ind. V, sous les consuls Puseus et Joannis*

L'empereur Léon envoya à Rome le patrice Anthémius et le nomma empereur. Simplicius fut nommé 45ème pape de l'église Romaine, et survécut 15 ans à sa désignation.

Un tremblement de terre terrifia la ville de Ravenne.

A.C 468 *Ind. VI, sous le 2ème consulat d'Anthémius Auguste, seul consul.*

Le patrice d'Occident, Marcellinus qui était paien, fut massacré traiteusement, alorsqu'il apportait argent et secours aux Romains aux prise avec les Vandales et Carthage, par ceux-là même pour lesquels il était venu se battre ouvertement.

A.C 469 *Ind. VII, sous les consuls Zénon et MArcien*

Sous ces consuls, la tête du fils du roi des Huns Attila, Denzicis fut apportée à Constantinople.

A.C 470 *Ind. VIII, sous les consuls Jordanes et Severus*

Gennade, pontife de l'église de Constantinople commenta mot pour mot, la parole du prohète Daniel, il composa de nombreuses homélies et publia toutes les lettres de Paul.

A.C 471 *Ind. IX, sous le 4ème consulat de Léon Auguste, et de Probianus.*

Aspar, chef des patrices, partisan de l'Arianisme, avec descendance Arienne, mourut, blessé à mort dans son palais, des coups des eunuque avec ses deux fils Ardabure et Patriciolus, l'un avait été autrefois patrice, l'autre gendre du prince Léon, avait reçu le titre de césar.

A.C 472 *Ind. X, sous le consulat de MArcien et de Festus.*

Un mont de Campagnie, le Vésuve torride, brûlant de feux intérieurs a vomi ses viscères embrasées et recouvert toute la surface de l'Europe d'une fine poussière, alors que les ténèbres de la nuit tombaient en plein jour. Les Byzantins célèbrent tous les ans, le 8ème jour des idés de Novembre, le souvenir redoutable des cendres des morts.

L'empereur Anthémius a été tué par son gendre Ricimer à Rome. Son remplaçant, Olybrius mourut au bout de 7 mois de règne.

En Asie, quelques cités et places fortes furent détruites par un tremblement de terre.

A.C 473 *Ind. XI, sous le 5ème consulat de Léon Auguste, seul consul.*

Glycérius fut nommé empereur, à Ravenne, par usurpation plus que par élection. A Constantinople, une insurrection éclata dans le cirque, de nombreux Isauriens furent tués par le peuple.

A.C 474 *Ind. XII, Léon Junior seul consul.*

L'empereur Léon sénior mourut de maladie, après avoir désigné césar Léon Junior. Il avait comptabilisé autant d'années de pouvoir que son fils Léon, de mois de règne, soit 17 années et 6 mois. Léon Junior lui même fils d'empereur, confia, le pouvoir à Zénon. Glycerius césar, qui détenait l'empire à Rome, fut expulsé du pouvoir à Rome, par Népos, fils de la sœur de l'ancien patrice Marcellinus lui même ancien césar, fut ordonné évêque dans le port de la ville de Rome et mourut.

A.C 475 *Ind. XIII, sous le 2ème consulat de Zénon Auguste, seul consul .*

L'empereur Zénon, victime des intrigues de sa belle-mère Vérina et de son frère Basiliscus, s'enfuit en Isaurie, avec son épouse Ariane-Basiliscus

lus dont on a parlé plus haut à l'époque de l'évêque Uranius de cette mémorable cité, le 24ème jour du mois de février, la semaine du milieu du jeûne pascal; sous les consuls vincomalus et Opilion, et sous le règne des empereurs Valentinien et Marcien.

Pulcherie Auguste, épouse du prince Marcien, acheva l'atrium du bienheureux Laurent, par un travail inimitable, et eut une fin de vie heureuse.

A.C 454 *Ind. VII, sous les consuls Aëtius et Studius.*

Attila roi des Huns, fossoyeur de la province d'Europe, fut transpercé de coups de couteau, la nuit par sa femme.

Certains prétendent qu'il est mort d'hémorragie. La patrice Aétius, grand sauveur de la république d'Occident et terreur du roi Attila, fut assassiné par l'empereur Valentinien avec son ami Boetius, dans son palais. Avec lui, s'effondra l'empire d'Occident, il n'a pu jusqu'ici se relever.

A.C 455 *Ind. VIII, sous le 8ème consulat de Valentinien et celui d'Anthemius.*

Le prince Valentinien, dont la fourberie avait cuasé la mort d'Aétius fut assassiné au champ de Mars par les hommes de main d'Aétius, Optila et Transtila, après la disparition de l'eunuque Héraclius, et sur ruse du Patrice Maximin. Ce même Maximin envahit l'empire et après trois mois de tyrannie, fut trainé et déchiqueté en morceaux par les Romains. Le roi des Vandales Genséric, entra à Rome, venant d'Afrique, invité par lettre par Eudocie, épouse de Valentinien, il dépouilla la ville de toutes ses richesses et répartit emmenant avec lui Eudocie et ses deux filles.

A.C 456 *Ind. IX, sous les consuls Varane et Joannis*

Sous ces consuls, une multitude de sauterelles dévasta le blé de Phrygie. Eucher, l'évêque de Lyon, écrivait de nombreuses œuvres, d'intérêt éclésiastique et monastique.

A.C 457 *Ind. X, sous les consuls Constantinus et Rufus.*

L'empereur Marcien qu'on peut assimiler aux meilleurs rendit le dernier soupir. Il gouverna 6 ans et 6 mois. Léon, succéda au défunt, Majorien fut désigné césar à Ravenne sur ordre de celui-ci.

A.C 458 *Ind. XI, sous les consuls Léon auguste et Majorien.*

L'empereur Léon envoya dans le monde entier, à tous les évêques orthodoxes des lettres particulières et de même contenu, à propos du Livre

de Chalcédoine, et tous firent savoir par leurs réponses ce qu'ils pensaient du livre en question. Il reçut de la part de tous ces évêques des réponses, à ce point concordantes qu'on aurait pu penser quelles avaient été écrites en même temps, par un seul homme.

A.C 459 *Ind. XII, sous les consuls Patricius et Ricimer*

Isaac, prêtre de l'église d'Antioche écrivit en langue syriaque, de nombreuses œuvres, essentiellement contre les Nestoriens et les Eutychiens. Il déplora dans un poème en vers élégiaques, la destruction d'Antioche, comme le diacre Ephrem avait pleuré celle de Nicomédie.

A.C 460 *Ind. XIII, sous les consuls Apollonius et MAgnus.*

La ville de Cyzique fut démolie par un tremblement de terre, par rupture de son enceinte au milieu, et déplora longuement la perte des siens.

A.C 461 *Ind. XIV, sous les consuls Dagalaifus et Severinus.*

Hilaire fut ordonné 44ème Pontife de l'Eglise Romaine et survécut 6 années à sa désignation. Majorien césar mourut à proximité d'un fleuve appelé Ilyra Sévère s'empara de sa place.

A.C 462 *Ind. XV, sous le 2ème consulat de Léon Auguste, seul consul*

Jacob, grec d'origine et paien, s'était rendu célèbre par son expérience de l'art de la médecine, autant par son habilité que par ses écrits. Un jour, il fut appelé pour soigner Léon Auguste, qui était épuisé de fièvre. Il entra dans la chambre à coucher vénérable du palais et s'assit, sans y avoir été invité par l'empereur sur un siège près du lit impérial et appliqua ses mains qui soignent. Au milieu de la journée, revenu vers ce même lit impérial, il réalisa qu'il était très élevé par rapport au siège qu'il occupait le matin, et intrépidement il s'assit sur le bois de lit du lit royal et il s'enquit auprès du prince malade s'il avait suivi ce conseil issu des préceptes des vieilles recettes de son art, et n'avait pas mangé n'importe quoi.

A.C 463 *Ind. I, sous les consuls Vivianus et Félix*

Prosper d'Aquitaine, au discours éloquent et aux prises de positions vigoureuses, composa, dit-on de nombreux ouvrages.

Le pape Léon aurait aussi écrit des lettres contre Eutyches, à propos de la véritable incarnation du Christ.

A.C 464 *Ind. II, sous les consuls Rusticius et Olybrius.*

Le roi des Alains Beorgor fut tué par le roi Ricimer.

sommes. Et pardessus tout, une guerre catastrophique, infligée aux notres par le roi Attila, embrasa toute l'Europe, envahissant et rasant cités et forteresses.

La même année, les murs de la ville Auguste détruits naguère par un tremblement de terre, furent reconstruits en 3 mois, sous la direction du préfet du prétoire Constantinus.

Le roi Attila poussa les hostilités jusqu'aux Thermopyles.

Le maitre de l'armée Arnegisclus fut tué, par le roi Attila en combattant courageusement, en Dacie ripuaire, près d'Utumamnem, après avoir éliminé un grand nombre d'ennemis.

A.C 448 *Ind. I, sous les consuls Zenon et Postumianus.*

La province de l'Inde envoya au prince Théodose en cadeau un tigre domestiqué. Le feu consuma les portiques de la Troade et les tours des portes. Le préfet du prétoire Antiochus déblaya les ruines, les releva et leur rendit leur aspect d'origine. Des légats réclamèrent à Attila des sommes d'argent refusées par Théodose.

A.C 449 *Ind. II, sous les consuls Protogènes et Asturius.*

Marina sœur du roi Théodose mourut. L'évêque Flavien fut exilé lors du second consile d'Ephèse à Epipa par la volonté de l'évêque Dioscore d'Alexandrie et de l'eunuque Saturnin. Les patrices Aérobinda et Taurus perdirent tous les deux la vie.

A.C 450 *Ind. III, sous le 7ème consulat de Valentinien et celui d'Abiénus.*

L'empereur Théodose rendit le dernier soupir, il avait régné 42 ans suite au décès de son père Arcadius.

A sa place, Marcien prit le pouvoir. L'eunuque Chrysaphe fut tué sur ordre de la sœur de Théodose, Pulchérie, pour sa cupidité.

A.C 451 *Ind. IV, sous le consul de MArcien et d'Adelfius.*

Sous le poutificat de Léon, qui occupait le siège de Saint-Pierre un consile universel, composé de 630 pères, prit position contre Eutychès, chef de file des moines les plus impies.

Seul l'évêque Dioscore, de l'église d'Alexandrie, marqua son désaccord et fut démis de son sacerdoce par ces mêmes pères catholiques.

A.C 452 *Ind. V, Sporacius et Herculanus consuls.*

Marcien Auguste décida que les futurs consuls ne jeteraient aucune menue monnaie au peuple, mais dépenseraient cet argent à réparer l'aqueduc de la ville. A cette époque, trois grandes pierres tombèrent du ciel, en Thrace. La cité d'Aquilée fut rasée par le roi des Huns Attila.

A.C 453 *Ind. VI, sous les consuls Vincomalus et Opilion.*

Jean le Baptiste, précurseur du Seigneur, révéla à deux moines orientaux venus à Jérusalem pour célébrer la résurrection du Christ, que l'impie Hérodiade avait reçu, suite à son abominable demande, sa tête décollée de l'épaule et déposée sur un plateau et l'avait enterrée, loin de son corps tronqué. (Il leur fit ces révélations) afin qu'ils se rendent à la demeure de l'ex. roi Hérode, pour rechercher et exhumer la tête. Cette tête fut retrouvée, grâce à la foi, et enfouie dans leur rude besace. Alorsqu'ils regagnaient leur propres demeure, un certain potier de la cité d'Emèse, qui fuyait une longue et menaçante pauvreté, s'offrit de leur tenir compagnie un bout de chemin.

C'est lui qui transporta sans le savoir la besace contenant la tête sacrée, qu'on lui avait confiée. Averti pendant la nuit par celui dont il transportait la tête, il s'enfuit abandonnant ses deux compagnons et rentra aussitôt dans la ville d'Emèse, avec son saint et léger fardeau. Et là pendant toute sa vie, il rendit un culte à la tête du précurseur du Christ; et à sa mort, il la transmit à sa sœur qui ignorait tout de ces choses, cachée dans un vase, pour la vénérer, laquelle la transmit déposée et cachée, comme elle l'était à son successeur. Par la suite, un certain Eustochius, prêtre caché de l'hérésie Arienne, obtint alorsqu'il en était indigne un si précieux trésor et la grâce que le Christ N.S. dispensait aux infirmes par l'intermédiaire de Jean-Baptiste, celui-ci la dispensa au peuple comme s'il s'agissait de la sienne.

Sa supercherie fut découvere, et il fut expulsé de la ville d'Emèse. Par la suite, quelques moines entreprirent de prendre pour habitacle la grotte où la tête du bienheureux Jean-Baptiste, qui avait été envoyée dans son urne, avait été enterrée.

Alors le prêtre Marcellus prit la tête de tout un monastère, et alors qu'il menait une existence irréprochable dans cette caverne, Jean-Baptiste, précurseur du Christ, éclatant de mille vertus, se montra à celui-ci et découvrit sa tête entérrée à cet endroit.

Il est admis que cette vénérable tête fut découverte par le prêtre Marcel-

rent restituées à cette cité et enterrées, le 28ème jour du mois de Janvier. L'empereur Valentinien entra à Ravenne avec son épouse Eudocie.

A.C 439 *Ind. VII, sous le 17ème consulat de Théodose et celui de Festus.*

Théodose fit représenter les huitièmes jeux quinquennaux.

Eudocie épouse du prince Théodose de retour de Jérusalem dans la ville royale, ramena avec elle les reliques du premier martyr, le bienheureux Etienne, qui furent déposées dans la basilique Saint-Laurent, pour y être vénérées.

A cette époque, le roi des Vadales Genséric, occupa les cités d'Afrique et leur métropole Carthage, avec ses troupes, le 10 des Calndes de Novembre.

A.C 440 *Ind. VIII, sous le 5ème consulat de Valentinien et celui d'Anatolius.*

Paulinus, maitre des offices, à Césaréa en Cappadoce, fut tué sur ordre du prince Théodose. Léon fut désigné 437 pape de l'église Romaine, et survécut 21 ans à sa désignation.

A.C 441 *Ind. IX, Cyrus seul consul*

Les Perses, les Sarrasins, les Tzanni, les Isauriens, les Huns sortirent de leurs frontières et envahirent le territoire Romain. Les maitres de l'armée, Anatolius et Aspar furent envoyés pour les contrer et signèrent une paix d'un an avec eux.

Joannes, vandale d'origine, maitre de l'armée, fut tué en Thrace sur trahison d'Arnegisclus. Les rois des Huns à la tête de plusieurs milliers des leurs firent irruption en Illyrie et détruisirent Nisch et autres cités, et la plupart des forteresses d'Illyrie.

A.C 442 *Ind. X, sous les consuls Eudoxius et Dioscorus.*

Une étoile dite chevelue, apparut et brilla pendant un temps assez long. Les frères Bleda et Attila, rois de plusieurs peuples dévastèrent l'Illyrie et la Thrace.

A.C 443 *Ind. XI, sous le 2ème consulat de Maximus et celui de Paterius*

Sous ces consuls, la neige tomba en si grande quantité, qu'elle mit 6 mois pour fondre. Plusieurs milliers d'hommes et d'animaux moururent

épuisés par la rigueur du froid. L'empereur Théodose revint dans la ville suite à une expédition en Asie.

Des thermes furent construits en l'honneur d'Achillas.

A.C 444 *Ind. XII, sous le 18 ème consulat de Théodose et celui d'Albertus.*

Le prince Théodose a célébré les neuvièmes fêtes quinquennales.

La sœur de Théodose, Arcadia mourut.

Quelques places fortes et immeubles de Bythinie, s'écroulèrent et se disloquèrent sous l'action persistante de pluies. La montée des eaux fit sortir les fleuves de leur lit. Saturninus, "comte des gens de la maison" fut envoyé par Théodose, pour tuer le prêtre Severin et le diacre Joannes, attachés à la reine Eudocie, qui exerçaient leur ministère dans la ville d'Aélia. Eudocie, excitée par je ne sais quel ressemtiment fit décapiter Saturnins, aussitôt, et fut assignée à la résidence jusqu'à sa mort, dans la cité d'Aélia sur ordre de son mari l'empereur; et privée de serviteurs royaux.

A.C 445 *Ind. XIII, sous le 6ème consulat de Valentinien et celui de Nomus.*

Bleda, roi des Huns mourut des intrigues de son frères Attila. A Byzance, une insurrection populaire éclata dans le cirque et un grand nombre de personnes s'entretuèrent; à l'extérieur, hommes et troupeaux périrent de maladie, en masses.

A.C 446 *Ind. XIV, sous le 3ème consulat d'Aetius et celui de Symmache.*

Sous ces consuls, une grande famine envahit Constantinople et la peste suivit aussitôt. Le temple de la cité royale fût incendié.

A.C 447 *Ind. XV, sous les consuls Ardabures et Callepius.*

La plupart des murs de la ville Auguste, qui venaient d'être fraichement reconstruits avec 57 tours s'écroulèrent sous l'effet d'un immense tremblement de terre, qui se produisit en différents endroits.

Sur le forum du Taurus, des pierres énormes, qui avaient été disposées naguère les unes au-dessus des autres, en forme d'édifice, et un grand nombre de statues s'écroulèrent, sans aucun dommage.

La plupart des cités furent ni plus ni moins détruites. La faim et une odeur pestilentielle incommoda plusieurs milliers de gens et bêtes de

assez éloquent, mais de trop peu de sagesse, fut ordonné évêque avec l'appui des gens de Constantinople.

La mémoire du bienheureux évêque Jean qui avait été exilé naguère, pour avoir provoqué la jalousie de mauvais évêques commença être honorée à la cour, le 26ème jour de septembre.

A.C 429 *Ind. XII, sous les consuls Florentinus et Dionysius.*

Nos fidèles orthodoxes détruisirent l'église des partisans de Macédonius, située en dehors des murs de la ville, parce que ceux-ci avaient tué l'évêque catholique Antoine Germis.

Le bienheureux Augustin, évêque de l'église d'Hippone, très distingué prêtre du Christ, et remarquable docteur, mourut de mort paisible.

A.C 430 *Ind. XIII, sous le 13ème consulat de Théodose, et le 3ème de Valentinien.*

Théodose donna des fêtes à l'occasion du trentième anniverssaire de son règne. Félix fut tué à Ravenne. Célestin, pape de la citadelle Romaine, fit savoir par lettres à l'évêque pervers Nestorius, après lui avoir donné un délai de 10 jours, qu'il accorderait son pardon au pénitent, mais condamnerait le rebelle.

Ce même Nestorius, évêque déloyal de l'église de Constantinople, par qui l'hérésie Nestorienne s'était propagée, fut condamné au concel d'Ephèse, sur décision de 200 saints pères; Célestin demandant à Cyrille évêque de la ville d'Alexandrie de le remplacer pour un moment.

L'évêque Maximien fut élu en remplacement de Nestorius.

A.C 431 *Ind. XIV, Antiochus et Bassus consuls.*

Flacilla, fille de Théodose Auguste rentit le dernier soupir.

Les barbares nourris par la ville Auguste, affluèrent comme d'habitude pleins d'intentions hostiles, vers notre église, et jetèrent le feu dans l'église pour brûler l'autel, mais grâce à Dieu, ils s'entretuèrent.

A cette époque, une pénurie de blé sévissant dans la population, Théodose qui procédait à une visite des greniers publcs, fut acceuilli par une pluie de pierres par le peuple affamé.

A.C 432 *IValeius et Aetius consuls*

Xystus fut nommé 42ème pape de l'église Romaine, et survécut 8 ans à

sa désignation. Une longue guerre éclata entre les patrices Boniface et Aetius, à l'instigation de Placidie, mère de l'empereur Valentinien.

Aetius blessa Boniface qui venait à sa rencontre, au moyen d'un javelot plus long que celui de Boniface qu'il avait préparé la veille.

Trois mois plus tard, Boniface mourut de sa blessure, conseillant à son épouse Pélagie, qui était très riche, de n'épouser aucun autre qu'Aétius.

A.C 433 *Ind. I, sous le 14ème consulat de Théodose et celui de Maximus.*

La plus grande partie Nord de la ville royale, fut incendiée pendant trois jours sans discontinuer et détruite au cours du mois d'août.

A.C 434 *Ind. II, Ariobindus et Aspar consuls*

La sœur de l'empereur Valentinien, Honoria devint grosse, deshonorée par le procurateur Eugenius et fut expulsée du palais.

Expulsée d'Italie, par le prince Théodose, elle excita Attila contre la république d'Occident.

A.C 435 *Ind. III, sous le 15ème consulat de Théodose et le 4ème de Valentinien.*

Le forum de l'empereur Théodose fut construit à l'endroit appelé Heliana. Sébastien, gendre du défunt patrice Boniface s'enfuit de la ville Auguste, et fut tué en Afrique.

A.C 436 *Ind. IV, Isidore et Sénator consul.*

L'empereur Théodose se rendit dans la ville de Cyzique, avec ses navires, fit preuve de grande générosité envers cette ville et regagna la ville Auguste.

A.C 437 *Ind. V, sous le 2ème consulat d'Aétius et celui de Sigisvuldus.*

L'empereur Valentinien quitta Rome pour s'unir en mariage à Eudocie fille du prince Théodose, à laquelle il était fiancé depuis longtemps et vint à Constantinople; après l'avoir épousée, il passa l'hiver en Thessalonique, sur la route de l'Italie.

A.C 438 *Ind. VI, sous le 16ème consulat de Théodose et celui de Faustus.*

Le brigand Cotradis fut capturé avec ses compagnons pirates et tué.

Les reliques du bienheureux Jean, évêque défunt de la ville Auguste fu-

l'empereur Aracadius, un livre remarquable sur la Foi et la vierge dans lequel prenant les devants, il combattait le dogme de Nestorius.

A.C 417 *Isous le 11ème consulat d'Honorius et le 2ème de Constant*

La ville d'Asie de Cybera et quelques autres bourgades furent détruites par un tramblement de terre, la nuit tombant en plein jour. Zosime fut ordonné 39ème évêque de l'église Romaine, et sur vécut 3 ans (à sa désignation).

A.C 418 *Ind. I, sous le 1éème consulat d'Honorius et le 8ème de Théodose.*

Le comte Plinta instigateur des rebellions dans la province de Palestine, fut anéanti. Une ecclipse du soleil eut leiu. Une étoile se leva à l'Est et brilla durant 7 mois.

A.C 419 *Ind. II, sous les consuls Monaxius et Plinta*

Valentinien Junior naquit à Ravenne de Constantius son père et de Placidie, sa mère, le 5 des nones de Juillet.

N.S. Jésus Christ toujours présent partout, s'est manifesté sur un nuage au-dessus du mont des oliviers, près de Jérusalem.

Alors, de nombreuses nations apparentées par la race, et des deux sexes terrifiées autant par ce qu'elles avaient vu ou entendu dire, et crédules, furent baptisées à la fontaine sacrée du Christ et la croix du Christ sauveur, imprimée par la volonté de Dieu, sur les tuniques de tous les baptisés brilla aussitôt.

A.C 420 *Ind. III, sous le 9ème consulat de Théodose et le 3ème de Constantius*

Boniface ordonné 49ème pape de l'église Romaine, vécut encore 3 ans. en Orient, des soldats provoquèrent un soulèvement et tuèrent leur chef, du nom de Maximin.. En Perse, la persécution contre les chrétiens se déchaina.

A.C 421 *Ind. IV, sous le consulat d'Eustathius et d'Agricola.*

L'empereur Théodose prit pour épouse Eudocie Achivie. Le même Théodose dédicaça, en l'honneur de son père Arcadius, sur le forum qui porte son nom, une très grande statue, placée sur une immense colonne.

La citerne d'Aetius fut construite, et les Romains entrèrent en guerre contre les Perses.

A.C 422 *Ind. V, sous le 13ème consulat d'Honorius et le 10ème de Théodose*

L'empereur Théodose eut une fille Eudocie. Lors des fêtes commorant-la 30ème année du règne d'Honorius, le tyran Maxime et Jovin furent vaincus par le fer, amenés d'Espagne et tués.

Les Huns dévastèrent la Thrace et les Perses signèrent la paix avec les Romains.

A.C 423 *Ind. VI, sous les consulats Asclepiodotus et Marinianus*

Célestin nommé 41 ème pape de l'église Romaine, survécut 9 ans (à sa désignation) Evagrius écrivait "l'altercation du Juif Simon et du chrétien Théophile" qui est connue à peu près de tous. Un tremblement de terre secoua la terre en plusieurs endroits et une pénurie de blé s'en suivit. Les philosophes Philippus et Sallustius moururent de maladie. L'empereur Honorius, acheva sa destinée sur terre quand une étoile chevelue se mit à briller souvent.

A.C 424 *Ind. VII, sous les consuls Vistor et castinus.*

Placilie, la mère de Valentinien reçut le titre d'Augusta.

Valentinien devenu césar, se fiança à la fille de l'empereur Théodose Eudocie. A la mort d'Honorius, Joannes envahit le royaume d'Occident.

A.C 425 *Ind. VIII, sous le 11ème consulat de Théodose et celui de Valentinien césar.*

Joannes dont nous avons parlé plus haut, fut tué par Ardabure et Aspar plus par ruse que par bravoure. Valentinien Junior fut fait empereur à Ravenne.

A.C 426 *Ind. IX, sous le 12ème consulat de Théodose et le second de Valentinien.*

Sisinnius, qui était un homme vénéré pour sa simplicité et resté simple dans sa sainteté, fut fait évêque de Constantinople.

A.C 427 *Ind. X, sous les consuls Hierius et Ardabure.*

La Pannonie, qui avait été occupée pendant cinquante ans, par les Huns fut récupérée par les Romains. Les Thermes de Théodose furent dédicacés.

A.C 428 *Ind. XI, sous les consuls Félix et Taurus.*

L'ancien prêtre, Nestorius, natif d'Antioche, qui était un homme certes

champ par un plus grand dommage.

A.C 406 *Ind. IV, sous le 6ème consultat d'Arcadius et celui de Probus Théodose Junior célébra les fêtes quinquennales.*

Radagaise paien et Scythe, innonda toute l'Italie avec ses deux mille hommes, Huldin et Sarus, rois des Huns et des Goths triomphèrent de Radagaise, lui coupèrent la tête, et échangèrent les prisonniers de celui-ci, à chaque fois, contre de l'or.

A.C 407 *Ind. V, sous le 7ème consulat d'Honorius et le second de Théodose.*

Une très grande citerne fut construite non loin de la colonne de porphyre de l'empereur Constantin, sur le forum, sur le chemin du marché.

A.C 408 *Ind. VI, sous les consuls Bassus et Philippus*

Le comte Stilichon qui avait donné en mariage ses deux filles Maria et Thermantia, au prince Honorius, l'une et l'autre étant morte vièrge, méprisait Honorius et convoitait son royaume.

Il excita les peuples des Alains, des Suèves et des Vandales contre le royaume d'Honorius, les attirant par des dons et de l'argent dans le désir de nommer césar son fils Eucher, paien qui ourdissait des complots contre les chrétiens. Sa ruse découverte il fut tué ainsi qu'Eucher.

A Rome, la terre gronda durant sept jours, sur le forum de la paix. L'empereur Arcadius rendit le dernier soupir. Il avait régné treize ans après la disparition de son père.

A.C 409 *Ind. VII, sous le 8ème consulat d'Honorius et le 3ème de Théodose Junior.*

Une grande insurrection populaire éclata à Constantinople, suite à une pénurie de pain.

A.C 410 *Ind. VIII, sous le consulat unique de Varanus.*

Alaric envahit la ville de Rome terrifiée et en brûla une partie dans un incendie, le 6ème jour de son arrivée. Il sortit de la ville après l'avoir pillée, en emmenant avec lui la sœur du prince Honorius, Placidie, qu'il livra ensuite à son germain Ataulf.

A.C 411 *Ind. IX, sous le 9ème consulat d'Honorius et le 4ème de Théodose*

Théodose Junior célèbra par des fêtes dix années de règne et Honorius, à Rome ses vingt années de pouvoir.

Constantinus envahit l'empire en Gaule et fit nommer son fils, ancien moine, césar. Il fut tué près d'Arles. Son fils Constans fut frappé à la tête à Vienne.

A.C 412 *Ind. X, sous le 5ème consulat de l'empereur Théodose, seul consul*

Jovin et Sebastien périrent en intriguant pour le pouvoir, en Gaule. Attale fut capturé en mer, et présenté à Honorius, il fut laissé en vie, amputé d'une main.

A.C 413 *Ind. XI, Lucius seul consul*

Héraclius, comte d'Afrique, tenta, une expédition contre la ville de Rome à la tête de 70 navires et de 3.000 soldats, mais bientôt il rebroussa chemin, terrorisé par l'attaque du comte Marinus qui vint à sa rencontre, il prit la fuite, et rentra seul à Carthage, sur un bateau arraisonné et là il fut tué illico.

A.C 414 *Ind. XII, sous le consulat de Constantinus et Constant*

Pulcherie, sœur de l'empereur Théodose reçut le titre d'Augusta Valia, le roi des Goths signa la paix avec le prince Honorius et et lui rendit sa sœur Placidie, devenue veuve.

A.C 415 *Ind. XIII, sous le 10ème consulat d'Honorius et le 6ème de Théodose*

L'église de Constantinople, qui avait brûlé autrefois, fut restaurée et dédicacée, sous ces consuls, l'évêque Atticus, en reçut la garde. Le prêtre Lucien, saint homme à qui Dieu révéla à l'époque de ces consuls, l'endroit où se trouvaient le tombeau et les reliques du premier martyr Saint Etienne, écrivit sa révélation à l'intention des fidèles, de toutes les églises, en langue grecque.

A.C 416 *Ind. XIV, sous le 7ème consulat de Théodose et de Palladius.*

Le prêtre espagnol Orose écrivait 7 livres d'Histoires. Il fut envoyé par l'évêque Augustin auprès du prêtre Jérôme pour discuter de la doctrine de l'âme à son retour, il fut le premier à rapporter en Occident, les reliques récemment découvertes du bienheureux Etienne.

L'évêque Atticus, de Constantinople, écrivait à des princesses, filles de

Comme diacre, il publia de façon continue pendant 5 ans, de nombreux livres saints; devenu prêtre, il en composa aussi plusieurs, pendant 12 années, il fut élu pntife à la place de Nectaire, alors il ajouta à son œuvre catholique, de très nombreux commentaires edulcorés des écritures saintes, s'attirant l'inimitié des évêques suivants, Théophile d'Alexandrie, Epiphane de Chypre, Acace de Bérée, Antiochus de Ptalemais, Severien de Gabala et Sévère de Chalcédoine.

Le comte Gildon, paien lui aussi, qui avait pris le commandement de l'Afrique, à la mort du prince Théodose, voulut garder le pouvoir, parce qu'il voyait d'un mauvais œil Arcadius et Honorius régner alors qu'ils étaient encore enfants.

Son frère Mascezel, dont la démence était connue, abandonna deux de ses fils en Afrique et retourna en Italie. Gildon tua par ruse les deux fils de son frère; Mascezel ayant appris le crime de son frère, marcha contre lui, plein de haine, à la tête de 5.000 des siens lequel vint à sa rencontre avec 70.000 hommes armés.

Il mit en fuite le parricide Gildon, à l'aide de ses jeunes et de ses prières, conseillé dans son sommeil par le bienheureux Ambroise. Gildon mis en fuite, se pendit, et ainsi Mascezel obtint la victoire sans guerre et la vengeance, sans massacre.

A.C 399 *Ind. XII, sous les consuls Théodorus et l'eunuqye Eutropius.*

Cet Eutropius fut le premier de tous les eunuques et le pire consul comme là dit le poète Claudien.

"Tous les fléaux échurent sous le consul Eutropius".

Une autre fille Pulcherie est née à Arcadius.

A Constantinople, le comte Gaina exhorta en cachette, ses barbares à préparer une guerre civile; lui-même prétextant son état de santé, quitte la ville; Un grand nombre d'ennemis périt, dans le combat engagé contre les Byzantins, quelques fuyards se présentèrent à notre église et là furent ensevelis sous les pierres jetées du sommet dégarni de l'église.

A.C 400 *Ind. XIII, sous les consuls stilicon et Aurelianus*

Un combat naval eut lieu contre le tyran Gaina, entre Chersonèse et l'Héllespont, plusieurs milliers de Goths furent taillés en pièces et engloutis. Le comte Gaina se sauva de cette guerre en prenant la fuite, cependant, il fut tué cette année là au mois de février.

A.C 401 *Ind. XIIV, sous les consuls Vincentius et Fravita*

La tête de Gaina fut apportée à Constantinople, fixée au bout d'une pique. La surface de la mer du Pont Euxin, fut comprimée à tel point par les glaces, qu'une fois fondue, elle dévalla comme du haut des montagnes, à la surface de la mer Propontide durant trente jours. Théodose le jeune est né à son père Arcadius le 3ème jour des idés d'Avril.

A.C 402 *Ind. XV, sous le 5ème consulat d'Arcadius et le 5ème d'Honorius.*

Innocentius nommé 37ème pape de l'église Romaine, vécut 15 ans encore Théodose Junior fut fait césar là où l'avaient été son père et son oncle. Un grand tramblement de terre eut lieu à Constantinople.

A.C 403 *Ind. I, sous le consulat de Théodose Junior et de Rumoridus*

Marina est née dans la maison de son père Arcadius, le 3ème jour des idés de février. Une statue d'argent, en l'honneur d'Eudocie, l'épouse d'Arcadius, fut placée sur une colonne de porphyre, près de l'église où elle se trouve encore. Les six évêques, dont on a parlé plus haut qui étaient jalou en vain de l'évêque Jean de la ville de Constantinople, décidèrent d'accord avec trente autres évêques de l'envoyer en exil, contre la volonté de l'empereur Arcadius, dans la place forte de Cucusum en Arménie et le reléguèrent au bout d'un an dans une propriété appelée Comana dans la région du Pont.

La foule pieuse des fidèles avertie dans un songe, qu'il était mort à cet endroit, l'enterra dans un nouveau tombeau, bientôt découvert dans atrium de l'évêque Saint Basile, lui-même martyr, avertie qu'elle fut par ce même martyr.

A.C 404 *Ind. II, sous le 6ème consulat d'Honorius et d'Aristoenetus.*

Un incendie provenant du trône du bienheureux Jean, autrefois évêque, détruisit subitement l'église de Constantinople et se répandant de proche en proche, consuma en même temps une partie de la ville voisine de l'église.

Eudocie, épouse d'Arcadius expira.

A.C 405 *Ind. III, sous le 2ème consultat de Stilicon et celui d'Anthémius.*

Les Isauriens descendant par la montagne du Taurus causèrent un important dommage à la république; le légat Narbazaicus leur répondit sur le

A.C 390 *Ind. III, Sous le 4ème consulat de Valentinien Augustin et celui de Néotori..*

Un signe ressemblant à une colonne suspendue dans le ciel, et brillant de tous feux, fit son apparition pendant 30 jours.

Galla, l'épouse de Théodose fut renvoyée par son beau-fils Arcadius. Un obélisque fut dressé dans le cirque. Une colonnade supportant une statue d'argent de Théodose le Grand fut placée non loin de l'Eglise, on peut la contempler jusqu'à ce jour.

A.C 391 *Ind. IV, sous les consuls Tatianus et Symmachus.*

L'empereur Théodose rentra à Constantinople, venant d'Italie.

L'empereur Valentinien mourut étranglé, pendant les idés de Mars dans un piège tendu à Vienne par Arbogaste. Eugénius qui bénéficiait de la confiance d'Arbogaste, usurpa le pouvoir à son profit.

A.C 392 *Ind. V, Tsous le 2ème consulat d'Arcadius et celui de Rufinus.*

Arbogaste, Valentinien disparu, et Eugenius devenu césar, rassembla en Gaule des troupes nombreuses et invincibles, venues de toutes part. Cet homme fruste dans ses jugements et décisions, par sa violence, son hardièsse et disposant de trop de pouvoir voulait récupérer à son profit l'empire d'Occident, si possible. Il rassembla donc des troupes innombrables, venues de tous côtés, renforcées de garnisons romaines ou d'auxiliaires barbares, soutenu soit par le pouvoir, soit par sa parenté.

La 19ème année de pouvoir de Théodose, le bienheureux Jérôme écrivit des livres consacrés à 135 hommes illustres de l'église, commençant à l'apôtre Pierre, après l'ascension de NS Jesus Christ, et se terminant à son époque, à Bethleem, ville fortifiée où il vivait là, il fonda un monastère pour lui même et écrivit de nombreuses œuvres eclésiastiques, instruit qu'il était en lettres hébraiques. Devenu vieux, il mourut et fut enterré à cet endroit. Pour les catholiques, il fut la le pilier invincible de l'église, l'ennemi infatigable de tous les hérétiques, autant par l'engagement de sa vie, que par l'impact de ses livres qu'il fit éditer lui-même.

A.C 393 *Ind. VI, sous le 3ème consulat de Théodose et celui d'abundantius.*

Théodose fit césar Honorius à l'endroit où son père avait nommé césar son frère Arcadius, c'est à dire à 7 milliaires de la ville royale. Alors, la nuit tomba à la 3ème heure du jour.

A.C 394 *Ind. VII, sous le 3ème consulat d'Arcadius et le second d'Honorius*

Théodose Auguste, après avoir associé au pouvoir, son fils Honorius devenu césar, se lança de nouveau contre Arbogaste, qui avait eu l'audace de nommer empereur le tyran Eugenius.

La guerre engagée, Eugenius fut vaincu, capturé et tué. Arbogaste se suicida.

Qualques régions d'Europe furent détruites par un tremblement de terre, qui menaçait continuellement de septembre à Novembre.

Les thermes d'Arcadius reçurent le nom de leur fondateur.

A.C 395 *Ind. VIII, sous les consuls Olybrius et Probinus*

Théodose le Grand mourut à Milan. Il avait régné 17 ans. Son corps fut transporté à Constantinople, la même année et enterré. Les frères Arcadius et Honorius entreprirent de diriger l'un et l'autre l'empire, après en avoir séparé les sièges. Le patrice Rufinus qui complotait contre l'empereur Arcadius, excita l'hostilité d'Alaric roi des Goths contre la république, en lui envoyant secrètement des sommes d'argent, et il l'envoya en Grèce.

Sa ruse découverte, Rufinus fut tué devant les portes de la ville pour son crime, par des soldats Italiens envoyés par Arcadius et commandés par le comte Gaina.

Sa tête et sa main droite furent exhibées partout à Constantinople.

A.C 396 *Ind. IX, Arcadius consul pour la 4ème fois et Honorius pour la 3ème .*

L'épouse et la fille de Rufinus furent exilées.

Eutropius préposé à la chambre sacrée du Palais en déroba toutes les richesses et transféra sa cupidité sous d'autres cieux.

A.C 397 *Ind. X, sous les consuls caesarius et Atticus.*

Anastasius, fut nommé 37ème pontife de l'église Romaines et survécut 4 ans (à sa désignation). Ambroise de Milan, évêque de valeur, pilier de la foi, orateur au service du Catholicisme, rejoignit le Seigneur Christ-Jean d'Antioche, fut nommé lecteur de l'église à cet endroit, par Mélèce, évêque de cette citée et lui-même confesseur et il gravit un par un les échelons de sa fonction.

Ariens continua d'haranguer quotidiennement la foule Catholique de ses prêches, dans l'oratoire de la bienheureuse Anastasie. Il eut à subir souvent les invectives des dépravés, mais aidé par la grâce du Christ, il s'opposa aux perfides Ariens jusqu'à ce que cette église nous fut rendue, par sa fermeté.

Théodose le Grand, après avoir triomphé des races Scythes, et avoir expulsé continuellement les Ariens de l'église des orthodoxes, qui l'avaient détenue pendant quarante ans, sous les empereurs ariens rendit à nos catholiques un empereur orthodose; au mois de décembre.

A.C 381 *Ind. IX, sous les consuls Eucherius et Evagrius.*

Quarante saints pères qui s'étaient rassemblés dans la ville Auguste pour contrer Macedonius qui avait fait erreur sur le dogme de l'esprit Saint, décidèrent de convoquer un saint synode. A cette époque Damase occupait le siège du bienheureux Pierre.

Le paien Nectaire était baptisé prestement, et ordonné prêtre à Constantinople, au cours du Synode dont nous avons parlé, par les évêques Timothée d'Alexandrie, Mélèce d'Antioche, et Cyrille de Jérusalem.

Le roi des Goths Athanaricus qui avait signé un traité avec Théodose, arriva à Constantinople au mois de Janvier, et mourut de maladie, ce même mois.

A.C 382 *Ind. X, sous les consuls Antonius et Syagrius.*

Le prince théodose fit replacer à la cour, dans le tombeau royal; la dépouille mortelle du divin et grand Valentinien, qu'il ramena d'Italie.

Cette année là, toute la race des Goths se rendit à l'empire Romain au mois d'Octobre, à la mort de son roi Athanaricus.

Damas 35ème évêque de l'église Romaine, après la suspension de Libère et de Félix, mourut dans le seigneur, la 18ème année de son pontificat.

A.C 383 *Ind. XI, sous le 2ème consulat de Mérabaude et Saturnius..*

Sirice, fut nommé 36ème chef de l'église Romaine, et vécut encore 15 années Arcadiuc associé à l'empire par son père Théodose Auguste, fut couronné à 7 milliaires de la ville L'empereur Gratien fut tué sur ruse du tyran Maximus, à Lyon, le 8ème jour des calendes de septembre.

A.C 384 *Ind. XII, sous les consuls Richimer et Clearchus*

Des ambassadeurs Perses arrivèrent à Constantinople pour demander la paix à l'empereur Théodose.

A la même époque, un autre fils, Honorius est né à Théodose, au mois de septembre.

A.C 385 *Ind. XIII, sous les consuls Arcadius et Bautone*

L'empereur Théodose soumit à sont autorité par le biais de ses ambassadeurs, quelques nations cruelles, quand il eut la possibilité.

A.C 386 *Ind. XIV, Honorius césar et Evodius consul*

L'empereur Théodose délivra la Thrace envahie par les goths et rentra en vainqueur à Rome, accompagné de son fils Arcadius.

A l'époque de ces consuls, Galla, autres épouse du roi Théodose arriva à Constantinople.

A.C 387 *Ind. XV, Valentinien consul pour la 3ème fois et Eutropius consul.*

Arcadius devenu césar, célébra avec son père Théodose, les fêtes quinquennales. Théodose le Grand vint en Italie pour combattre le Tyran Maxime.

A.C 388 *Ind. I, Théodose Auguste consul pour la 2ème fois et Cynegius consul.*

Valentinien frère de Gratien et l'empereur Théodose vainquirent le Tyran Maxime et son fils rebelle près d'Aquilée; le comte Andragathius apprenant la mort de Maxime se jeta d'un bateau dans les flots et mourut suffoqué.

A.C 389 *Ind. II, sous les consuls Timosius et Promotus.*

L'empereur Théodose entra dans Rome accompagné de son fils Honorius, en juin, fit des libéralités au peuple romain et sortit de la ville aux Calendes de septembre. Pendant cette période, une grêle crépitante précédant la pluie, tomba sans arrêt deux jours durant, entrainant la perte d'arbres et troupeaux. Une étoile plus éclatante à la manière de Lucifer que resplendissante apparut au Septentrion, au chant du coq et disparut au bout de 23 jours.

Le temple de Sérapis fut démoli à Alexandrie, sur ordre de l'empereur Théodose.

CHRONIQUE DE MARCELLINUS COMES

Traduit du Latin par M^me ARIDJ

Suite au travail admirable qu'Eusèbe de Césarée a édité en langue grecque, commémorant les origines de cette espèce, époques, années règnes, les qualités des mortels et leurs créations dans les divers arts, ainsi que les monuments des différentes province, depuis la fabrication du monde, jusqu'à l'empereur Constantin, notre Jérôme a tout traduit en latin, et poursuivi avec l'éloquence propre aux Romains, jusqu'à Valence César; chacun des auteurs de ce travail a compté, avec une admirable ingéniosité, que le monde devait avoir alors 5.579 ans. Mais, poursuivant seulement l'empire, j'ai apporté une modification au travail de ces auteurs, en comptant, simplement d'après la méthode de comput orientale, des indictions, et de l'inscription des consuls, durant 140 ans, c'est-à-dire, depuis la 7ème indiction et le consulat d'Ausone et d'Olybrius lesquels étaient consuls à l'époque où théodose le Grand fut nommé empereur et jusqu'à la 11ème indiction, sous le consulat de Magnus. Et j'ai présenté aussi 16 autres années, depuis le 1er consulat de Justin Auguste, jusqu'au 4ème consulat de Justinien Auguste. Ce sont ainsi 156 années que mon modeste travail englobe.

Ainsi commence la chronique

A.C. 379 *(379ème année de l'ère chrétienne)* indiction VII, sous les consuls Ausone et Clybrius. Théodose, espagnol d'origine, de la colonie romaine d'Italica fondée par le divin Trajan, fut nommé 49ème empereur des Romains, par Gratien Auguste près de Sirmium après la mort de Valence, le 14 jour des Calendes de février, pour commander seulement à l'empire d'Orient. Cet homme parfaitement religieux, propagateur de la foi Catholique, que l'on doit placer en tête de tous les princes d'Orient, (si ce n'est qu'il aura pour imitateur Marcien, 3ème prince après lui), vainquit les Alains, les Huns, les Goths, et les races des Scythes, au terme de grands et nombreux combats.

A.C 380 *(380ème année de l'ère chrétienne)* indiction VIII, sous le 5ème consulat de Gratien Auguste, et de Théocose Aug.

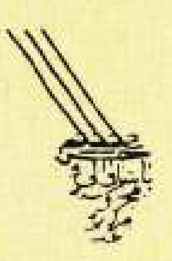
Le très éloquent prêtre du Christ, Grégoire de Nazianze, qui fut le précepteur de notre Jérôme, après la prise de notre église de Byzane par les

Ministère de l'Enseignement et de l'Education

Université d'Alger

Institut d'Histoire

Revue des Etudes Historiques



Périodique de l'Institut d'Histoire

N° 6